

الحسين
ملك الملوك للدور في حياة الهاشميين

مهنتي كملك



B. U. C. LIBRARY

10 AUG 1984

RECEIVED

A
923.1
H968m

الحسين

ملك المملكة الأردنية الهاشمية

مهنتي كملك

أحمد مؤيد ملك

نشرها بالفرنسية فرديون
صاحب جيم ونقلها إلى العربية
غالب عارف طوقان

مهنتي كملك

مقدمة الطبعة العربية

كتاب جلالة الحسين الذي صدر في النصف الثاني من عام ١٩٧٥ بعنوان (مهنتي كملك) قد نال اعجاب وتقدير كل من قرأه من المطلعين على اللغة الفرنسية في هذا البلد ، وما من شك في أن هذا الاعجاب وهذا التقدير اللذين قوبل بهما كتاب جلالة في الاردن يعتبران مؤشرا أكيدا لما حظي به الكتاب القيم للعاهل الهاشمي العظيم في أوساط المثقفين والمعنين بشؤون الشرق الاوسط في فرنسا وفي سائر الاقطار التي تتذوق الادب الفرنسي وتتابع قراءة الكتب الحديثة التي تنشر في هذه اللغة .

لقد عودنا الحسين رعاء الله أن يكون قمة في الكتابة والخطابة ، وأن يبلغ الذروة في سائر الموضوعات القومية والسياسية والانسانية التي يعالجها سواء على الصعيد المحلي أو العربي أو الدولي ، فلا عجب أن تأججت في نفوس المواطنين الرغبة الاكيدة الحارة في الاطلاع على محتويات كتاب الحسين الجديد ، كعادتهم بالنسبة لكل ما يصدر من أقوال وأفعال عن القائد الرائد .

ماذا قال الحسين في هذا الكتاب ؟ أو ما هي الموضوعات التي عالجها الملك المحبوب في كتابه (مهنتي كملك) ؟
سؤال طرحه كل منا على نفسه وبقي متلهفا متشوقا لمعرفة الجواب .

لقد صدر كتاب الحسين على شكل أسئلة موجزة وجهها الى جلالاته الكاتب الكبير السيد فريدون صاحب جم ، وأجوبة مفصلة تلطف بها جلالاته حفظه الله .

ان الحسين في
ملك لشعبي
«عبد الله بن الحسين»
١٨ تموز - يوليو - ١٩٥١

مهنتي كملك

أما الاسئلة فعددها ثمانية وثلاثون سؤالا ، يمكن أن تجمع في صفحات أربع ، وأما الاجوبة ، فتشمل الكتاب بأسره ، وتتناول صورا مشرقة من حياة صاحب الجلالة الهاشمية ، منذ طفولته الكريمة حتى يومنا هذا ، يتألف منها تاريخ الاردن الحديث .

أما هذه الصور ، فهي تارة لوحات فنية ضخمة تصور كفاح بطل عملاق يصارع الكوارث والاهوال والمصاعب ، ويعاني المشقات والمتاعب في سبيل حياة أفضل لشعبه الوفي الامين .

وهي تارة ألحان عذبة حزينة ، تصور آلام شاب في عمر الزهور يحتضن جسد جده البطل الشهيد ، ويعرض حياته الغالية للخطر ، لملاحقة الجاني الاثيم .

وهي حينما تحكي مشاعر ابن بار بوالده الحبيب وأمه الحنون ، وتحلل لنا أحاسيس الطفولة الملكية الطاهرة البريئة ، وتصور البرعم الجميل الغالي وهو مبتهج بألعاب تعلق بها نفسه العزيزة بسداجة الطفولة الملائكية فتأخذها الام العظيمة بيدها الحانية لتعيدها الى مالكةا ، ثم تخلع حليتها الوحيدة لتشتري بثمانها ما يعوضه عما أخذ منه لتعيد الفرح الى القلب الحزين .

وهي حينما آخر ، تروي لنا الجد والنشاط اللذين يبذلهما شاب أعده القدر الالهي لمصير عظيم ، ولتحمل مسؤوليات جسام .

وهي دائما تصور الرجولة والبطولة والشهامة والجرأة والتضحية والوطنية في أنبل مظاهرها وبواطنها ، الى جانب ما تميز به الحسين العظيم من تسامح وتسامي وعفو عند المقدرة .

ويتبين القارئ من خلال جميع سطور الكتاب الملكي السامي ، مدى حب الحسين لشعبه وايمانه بمستقبله واستعداده للتضحية بكل شيء في سبيل اسعاده وحمايته .

ان المرء ليستشعر عظمة الحسين الملك والاب والاخ في أقصى

مهنتي كملك

وأنبل مظاهرها عندما يروي لنا كيف كان يخرج في الليل متنكرا ليتعرف على أحوال شعبه ويطمئن على شؤون أولئك الذين محضوه ثقتهم وحبهم وولاءهم فيعيد بذلك سيرة السلف الصالح من أبطال العروبة والاسلام الذين قادوا أمتنا الى المجد وضربوا أروع الامثلة في العمل على اسعاد الرعية والمتفاني في خدمتها والسهر على راحتها وتحقيق رخائها وازدهارها واشاعة الامن والاستقرار في ديارها .

وهل يستطيع أحد أن يجد قصيدة في حب الوطن وأهله ، أبلغ وأروع تعبيرا وأوقع تأثيرا في النفس مما كتبه الحسين عن الاردن وأبناء الاردن في كتابه الجميل ؟

لقد تجلى الملك في هذا الكتاب كالعهد به ، كاتب مجيدا وأديبا كبيرا ومحللا ماهرا لاعمق أغوار النفس الانسانية وفنانا بارعا في تصوير المواقف والعواطف بريشة ساحرة خبيرة بمختلف أساليب التعبير الفني الجميل .

والكتاب ينطوي على الاحداث التي مرت بالاردن الخالد منذ اللحظة السعيدة التي نودي فيها بالحسين المفدى ملكا للمملكة الاردنية الهاشمية في آب من عام ١٩٥٢ ، هذه الاحداث المصيرية التي لعب فيها الحسين الدور الاول ، قائدا لمسيرة شعبه على دروب المجد والخلود وذائدا عن حياضه ، ومدافعا عن حقوقه ، ورافعا صوته عاليا مدويا في المحافل الدولية وقامعا للفتن التي تهدده ومشجعا لكل ما يحقق له التقدم والازدهار .

ويتناول الكتاب تحليلا للقضية الفلسطينية الفلسطينية بأسلوب يجذب القارئ الاوروبي وبموضوعية ومسئولية المؤرخ ، وعمق وجدية العالم الباحث .

ويتطرق جلالة الحسين في معرض تحليله لمراحل هذه القضية الى كفاح الملك الشهيد عبد الله بن الحسين في سبيل الدفاع عن

مهنتي كملك

عروبة فلسطين والى النظرة البعيدة الثاقبة التي كان يحاول من خلالها معالجة محنة شعبه يوم أن كان الوعي السياسي في المنطقة بأسرها ، ولا سيما بين زعماء فلسطين أنفسهم ، قاصرا ، متخلفا ، عاجزا عن تبين الحقائق من خلال ضباب الاحداث .

ويروي العامل العظيم ما قاله جده الشهيد عن الصهيونية ضمن ما كتبه في حزيران من عام ١٩٣٨ ، ردا على الذين كانوا ينتقدون مشروعه لانقاذ فلسطين :

« تقوم الصهيونية على دعائم ثلاث : تصريح بلفور ، والشعوب الاوروبية التي تحاول التخلص من اليهود ، والمتطرفين العرب الذين يرفضون كل حل ولا يكفون عن الشكوى والاستغاثة باولئك الذين لن ينجدوهم أبدا » .

نعم ان المتطرفين العرب هم الذين قاوموا مشروع الملك الشهيد الذي تقدم به الى الحكومة البريطانية لانهاء الانتداب وضم فلسطين الى شرقي الاردن ، انقاذا لارض فلسطين وشعب فلسطين من الطوفان الصهيوني الهادر .

ولو قدر لمشروع الملك عبد الله بن الحسين أن يرى النور لما قامت اسرائيل ولاقتصر الوجود اليهودي في فلسطين على تجمع سكاني محدود في بعض المناطق القليلة ، ولتأسست دولة عربية مستقلة قوية على أنقاض حلم صهيون ، جنببت الجيلين القديم والحديث والاجيال الصاعدة ، الكوارث المتلاحقة التي عرقلت وتعرقل مسيرة الامة العربية ، وحفظت وحدة أراضي الوطن العربي من المحيط الى الخليج ، بعيدة عن الجسم الصهيوني الغريب الذي يقف اليوم حائلا دون تلاقي المشرق العربي بالمغرب العربي .

وما الكتاب في الحقيقة الا رواية واقعية شيقة لاحداث فترة مجيدة من تاريخ شعب خالد من خلال قصة حياة ملك شجاع بطل .
وتتميز هذه الرواية الفريدة بالاسلوب السهل الممتنع مع الامانة

مهنتي كملك

في السرد والدقة في الوصف والحرارة في التعبير والجرأة في بيان الحقيقة .

فما أن يبدأ المرء في قراءتها حتى يشغف بها ، فيلتهمها التهاما ولا يتركها حتى يأتي على آخرها ويطوي الكتاب وقد ازداد حبا للحسين واعجابا به ، واجلالا لشخصه الملكي السامي .

والكتاب الملكي موجه في الاصل للقارئ الاوروبي لكي يكسب تأييده للقضية الفلسطينية ، فيشرح له أبعادها وعدالتها وانسانيتها ويطلعه على تعنت العدو الصهيوني وغطرسته وتصميمه على عدم الجنوح الى السلام مع جيرانه .
وهو دفاع يتلاءم مع العقلية الاوروبية عن القومية العربية والوحدة العربية ومراميها الحضارية وأهدافها السلمية الانشائية الخيرة ، وابرار لتاريخ الامة العربية المجيدة ومدى مساهمتها في تقدم الانسانية جمعاء على مدى العصور والاجيال ، وما تكنه من نوايا طيبة لسائر الامم والشعوب .

وهو الى ذلك تصوير يجذب القارئ الاوروبي لوجه الاردن العربي ومقدار ما حققه من انجازات في مختلف جوانب التقدم الحضاري ، ولصموده في وجه الحركات الهدامة التي كانت تبغي القضاء على كيانه ، وتصميمه على التعاون مع أشقائه في سبيل بناء حياة أفضل لهم ولسائر البشرية .

ويتضمن كتاب « مهنتي كملك » سردا أميناً لهذه الاحداث التاريخية التي مرت بها البلاد منذ مطلع الخمسينيات وحتى منتصف السبعينيات ، وهي أحداث هامة وقعت في ربع القرن الماضي وأثرت تأثيرا كبيرا على مجرى الامور في هذه المنطقة الحساسة من العالم وهي لاهميتها لا يستطيع أي عالم يتصدى للتأريخ لهذه المنطقة ، الا أن يتناولها بالبحث المستفيض والدراسة العميقة والعناية التامة حتى جزئياتها ، ليستخلص منها العبر والدروس فيما يجب أن تكون عليه العلاقات بين

مهنتي كملك

الاقطار الشقيقة •

فهي لذلك لا غنى عنها لفهم التطورات التي طرأت على مختلف مظاهر التعاون بين الاقطار العربية وما بلغته العلاقات بينها اليوم من تحسن ملحوظ ، على الرغم من الغيوم المؤسفة الموقتة التي تلقي بظلالها القاتمة الان على هذه العلاقات ، والتي لن تلبث ان تنقشع ، بزوال اسبابها قريبا ، بفضل الجهود التي يبذلها جلالة الملك الحسين المعظم واخوانه الملوك والرؤساء العرب ، مما يبشر بمستقبل افضل للامة العربية وبنجاح اشمل لقضاياها القومية المشتركة •

ان هذه الفترة من التاريخ التي يتناولها الحسين بالعرض والشرح والتحليل تمثل الصراع الذي كان قائما بين الاراء والمعتقدات وبين الشخصيات والقيادات عبر النزاعات التي كانت ثائرة وقتئذ • وان اطلاق القارىء العربي اليوم عليها يعتبر ضرورة حتمية وحاجة حيوية صحية لتستبين له الاخطاء التي ارتكبت ومقدار الطاقات التي هدرت ، فتتضح له أهمية توحيد الصفوف والجهود وتحقيق من الدور الكبير الذي يلعبه الاردن في خدمة القضايا العربية وتظهر مشرقة نيرة ، مواقف الحسين القومية ، وسلامة السياسة التي انتهجها وصواب الرأي الذي صمد ببطولته المعهودة في الدفاع عنه غير هيب ولا وجل •

ويتجلى الاردن ، في هذا الكتاب الشيق ، بقيادة العاهل العظيم ، قلعة صامدة للعروبة في الماضي والحاضر والمستقبل ومنطلقا لتحرير أرض فلسطين العزيزة ، وتبدو المملكة الاردنية الهاشمية فيه ، كيف أنها قد التزمت بالخط القومي العربي منذ تأسيسها ، وكيف أن الحملات والهجمات والافتراءات والمؤامرات والاغتيالات التي تعرض لها هذا البلد العربي الابي ، على مدى سنوات كانت محض هدرًا للطاقات وخطأ فظيعا في النظرات والاجتهادات ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تعرقل مسيرة الاردن على طريق العمل

مهنتي كملك

العربي القومي والوحدوي والازدهار الاقتصادي والتقدم العلمي •
ويقيني أن نشر الكتاب باللغة العربية كانت تلبية لحاجة ملحة الى دروس واقعية في الوطنية والقومية والحزم والعزم والتصميم ليتمثل بها جيلنا الصاعد ويسير على هداها في كفاحه من أجل حياة أفضل لأمته العربية العظيمة •

أما السيد فريدون صاحب جم ، فانه يستحق منا كل تقدير على أمانته في النقل وحصافته في الفهم وطول باعه في الترجمة الفرنسية •

وأما الترجمة العربية فقد روعي فيها التقيد الدقيق بالنص الفرنسي مع العناية التامة بمقتضيات الاسلوب العربي وقواعد البلاغة العربية بحيث جاءت كالصورة وخيالها في المرأة •

المحامي

٣٠ تموز ١٩٧٨

غالب عارف طوقان



مقدمة

الطبعة الفرنسية

كانت السيارة ذات اللون المعدني الاسمر من طراز (نينكولن كونتinentال) تمر متريئة في شوارع عمان المزدحمة ، وعلى الطريق البالغ خمسة كيلومترات الذي يفصل قصر بسمان الملكي عن مقر القيادة العامة للقوات المسلحة ، كانت السيارة الملكية تتوقف مرات عدة أمام الانوار الحمراء ، وكان الحسين بكل ديمقراطية يكبح جماح السيارة ويتوقف . كنت وقتئذ الى جانبه ، وكان مرافقه العسكري الرائد بدر الدين ظاها يجلس على المقعد الخلفي ، بلا أي حرس ولا أية دراجة نارية تتقدمها ولا أي شرطي .

عرف بعض المارة مليكهم فجعلوا يصفقون . واتخذ رجال الشرطة الذين كانوا يتولون تنظيم حركة السير ، موقف التهيوء ، رافعين أياديهم بالتحية العسكرية ، كان الملك بادي السعادة . انه يحب أن يتجول متنكرا بين أبناء شعبه ، ليتحسس نبضات قلب الامة . ومن بعيد ، انطلق صفير أبواق سيارات الحرس منذرا باقترابها ، فتبسم الحسين ، ومال علي قائلا : « ما رأيك في أن نسبقهم ؟ » ثم زاد من سرعة السيارة . ان بعض لحظات من الاسترخاء والراحة والسكينة لهي بالنسبة للملك ، نادرة وقيمة .

في مدخل الثكنة العسكرية ، وأمام رجال هيئة أركان حربه بكاملهم ، وعلى رأسهم المشير حابس المجالي والفريق زيد بن شاكر ، برزت سيارتا الحرس من طراز شيفروليه ، فوجه الي الملك غمزة عين ذات معنى .

طوال هذه الايام التي أمضيتها في معية العاهل الهاشمي والتي

مهنتي كملك

تمكنت خلالها من التحدث اليه طويلا ، ومن مشاهدته كيف يعيش ، ومن مرافقته في جولاته ، رأيت الحسين يتمتع الى أقصى الحدود ببعض لحظات من الحرية ، سواء وهو يقود بنفسه سيارته ، بمعزل عن حرسه الخاص ، أو وهو يقود طائرته الهليكوبتر ، أو وهو يتجول في البادية لامعان الفكر والتأمل في مستقبل بلاده أو للتحدث الى البدو « الأكثر اخلاصا بين المخلصين » ، أولئك الذين لم يخونوه أبدا والذين وقفوا دوما الى جانبه في أخرج وأصعب لحظات حياته .

على احدى تلال عمان السبعة ، يعيش الملك الحسين وأسرته في قصر غاية في البساطة ، حيث يندر أن تجد الاثاث الثمين ، وحيث ينعدم وجود الاواني الذهبية . لقد تعمّد الهاشميون هذا التقشف منذ أربعين جيلا ، أي منذ أن بعث جدهم الاعظم الرسول صلى الله عليه وسلم . لقد كانوا فقراء وسبقون كذلك . لقد تغيّر الزمن بلا شك في يومنا هذا ، وأصبح الحسين يمتلك سيارتين شخصيتين ، وبعض الدراجات النارية وطائرة هليكوبتر . ولكن هل هكذا حقا يتصور الغربيون المقتنيات الملكية ؟

عندما يجتاز المرء السور الحديدي الاسود لقصر الملك ، يشاهد جماهير عمان الغفيرة التي تنشط الى أعمالها ، ويقع بصره على مخيم للاجئين الفلسطينيين ، يستطيع الحسين أن يراه من على سطح قصره .

لقد قال لي الحسين : « انني أحب هذا الشعب حبا جما ، وعميقا وانني لولاه لما كنت شيئا مذكورا » .

ويتأجج عندئذ في نفسه ، الحنين الى الماضي ، ويعود بذاكرته القهقري عبر الزمن ، فيرى نفسه فتى صغيرا ، ينمو ويتزعزع مع الشعب ، وبين أبناء الشعب .

« ان حياتي ملك لشعبي ... » .

مهنتي كملك

لقد استقرت هذه العبارة في ذهن الحسين منذ تموز (يوليو) من عام ١٩٥١ ، حين قالها جده المغفور له الملك عبد الله وهو في طريقه الى القدس ، ليقوم برحلة لن يعود منها ، اذ أنه اغتيل على مرأى من حفيده في المسجد الأقصى .

وبعد مضي سنة ، يعتلي الحسين عرش الاردن وهو لما يبلغ السابعة عشرة من العمر . انه لن ينسى أبدا الجسد الدامي لهذا الشيخ الذي كان يجله ويوقره ، انه لن ينسى أبدا الحركة التي صدرت عنه لتغطية جثة الملك الشهيد بردائه الملطخ بالدماء . وهو لن ينسى أيضا هذه الرصاصة التي أطلقها القاتل والتي ارتدت عن بزته العسكرية .

منذ ذلك اليوم ، هذا الرجل الذي كان العالم أجمع يسميه الملك الشاب الشجاع ، قد تغلب على عشرات الاعتداءات والمؤامرات والتمرد والفتن والازمات . وقد كان في الوقت ذاته موضع تقدير واعزاز وتكريم واحترام كل أولئك الذين عرفوه معرفة جيدة . منذ ما ينوف على العشرين عاما والحسين قد كرّس حياته برمتها ، وحياة أسرته لقضية شعبه وللسلم في الشرق الاوسط ، رافضا دوما التدخلات التي لا مبرر لها ، ومعارضاً للارهاب والاعتقالات ، وداعيا الى الاعتدال والاتزان ، الى الحوار والتشاور والتداول .

لقد أتيت لي ، طوال العشرين عاما الاخيرة ، مقابلة ومحادثة عدد كبير من رؤساء الدول ورجال السياسة ذوي المواقف والآفاق والأراء والمعتقدات المتباينة ، من رأسماليين ، واشتراكيين ، وملكين ، وأحرار ، ومسلمين ، ويهود ، ومسيحيين .

وقد كان الحسين ، ملك المملكة الاردنية الهاشمية ، أكثرهم جاذبية ، وأعظمهم سحرا ، وأشدهم تأثيرا على النفس والعقل . فذكاءه ، وحماسه الدافقة وصفاء سريرته ، وطهارة قلبه وخلوص نيته ، وصراحته ، وتواضعه الجم ، كل ذلك جعل منه شخصية فذة . فشدة تدينه وعمق ايمانه ، جعلاه يرجو لكل شخص

مهنتي كملك

أن يعبد ربه بخشوع وتقوى حسب الشعائر الدينية التي ينتمي إليها • وشدة تسامحه ، جعله يعفو عن الأخطاء ، حتى الخطيرة منها ، بحيث أعاد إلى رفاق صباه الذين تأمروا عليه في الخمسينيات ، كرامتهم ، ومنحهم ثقته من جديد • وتعطشه إلى الحرية ، جعله لا يدير ظهره لشعوب أوروبا الشرقية وللاقطار التي اختارت طريقا أكثر ميلا إلى اليسار ، كما أن صداقته المخلصة لرجال مختلفين ، في نظرهم إلى الأمور ، كشاه إيران والرئيس السادات أو الملك الحسن الثاني ملك المغرب ، جعلته يحاول الاحتفاظ بعلاقات جيدة ، رغم مختلف الصعاب والمعوقات ، مع بعض الدول العربية التقدمية وزعمائها ، مع أنهم لما يهادنوه أو يسايروه منذ اعتلائه العرش •

لقد عرف جلالته تشرتشل ، وأيزنهاور ، وكندي ، وجونسون ، ودي غول ، وخوروتشوف ، وعبد الناصر ، ونهرو • وهؤلاء جميعهم قد انتقلوا إلى العالم الآخر • واجتمع مرات عدة مع أيدن ، وماكميلان ، وهيث ، ونيكسون • وهؤلاء قد انسحبوا من الحياة العامة ، يقول الحسين بأن : « اتصالي بكل فرد من هؤلاء قد زادني ثراء وغنى معنويا • لقد تعلمت من كل شخص منهم ، شيئا ما • وهذا في نظري أمر جوهري » انه شتان بين همرشولد ، وفيصل ، بين أوثانت وبومبيدو ، ومع ذلك ، فإن كلا منهم قد سحرني ، وملك علي نفسي » •

إن حياة الحسين وحياة الهاشميين ، جزء من كفاح الإسلام من أجل الحرية • كفاح ضد الامبراطورية العثمانية ، كفاح ضد الامبراطورية البريطانية الجبارة ، وأخيرا كفاح ضد الغزاة الصهاينة •

يقول الحسين : « لقد دفن جدي الأكبر في القدس ، ومات جدي على مرأى مني في القدس أيضا • وانني أنتسب إلى الجيل الرابع من أولئك الذين ناضلوا في سبيل الحرية والاسترداد الكامل

مهنتي كملك

اترابنا الوطني • وسأواصل النضال لهذه الغاية حتى آخر قطرة من دمّي » •

لقد تغيرت بشكل مأساوي حياة جلالته كمسئول عن سلامة التراب الوطني لبلاده ، في هذه الأشهر القليلة الماضية ، منذ مؤتمر القمة المعقود في الرباط في تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٧٤ ، لقد أصيب بطعنة في الظهر من قبل أولئك الذين يسميهم اصدقاءه • فقد حملوه على التخلي عن المطالبة بالاراضي الواقعة غربي نهر الأردن ، بما في ذلك القدس • فنزل عند ارادتهم • ويقول الحسين : « لقد قبلت بذلك لان العالم العربي وعشرين دولة عربية قد طلبت مني ذلك » •

ولسوف يحكم التاريخ فيما بعد حول ما اذا كان هذا الحل هو الحل الأمثل ، الحل الوحيد • لقد عمل أفراد أسرته بأخلاص وباستمرار لخير الشعب الفلسطيني وحماية حقوقه القومية المشروعة • واليوم كما يقول الحسين : « لا فائدة ترجى من التشبث بماض انتهى أمره • ولا أهمية لمشاعري الشخصية ، لان ما أصبأ إليه كان وسيبقى ، مساعدة اخواني على استرداد وطنهم المفقود » بعد أن انفصل عضو حي من جسم المملكة الاردنية الهاشمية ، وهو الضفة الغربية ، انطلق الحسين من الصفر ، وعلى أسس جديدة ، فقرر مساندة منظمة التحرير الفلسطينية بدون تحفظ • بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني •

يقول الحسين : « ان مهنتي كملك ، ليست سهلة هيئنة • وانني لارجو أن تؤمن بذلك » • فهو ينهض منذ الساعة السادسة صباحا • ويعتكف في مكتبه في قصر بسمان • ثم يستقبل كل يوم مساعديه الاقربين ، والوزراء وقواد الجيش والسفراء • والحسين ليس له ساعة محددة لتناول الطعام ، حتى أنه أحيانا لا يجد الوقت لتناول أي شيء ، ويختتم يومه في الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلا • وهو لا يكاد يجد متسعا من الوقت يخصصه للحياة

مهنتي كملك

العائلية • فاذا غادر جلالته مكتبه الخاص ، يكون قد ذهب الى أحد المعسكرات ، أو إحدى الثكنات العسكرية أو زار أحد الميادين الخاصة بالمدرعات والدبابات أو أحد المדרجات للاجتماع برجاله من الطيارين • ومن النادر أن يقاسم رجاله المخلصين من سكان البادية طعامهم ، وهو أمر يحسن من جرائته بالأسف الشديد •

عندما هوجم الحسن الثاني ملك المغرب بالرشاشات وهو على متن طائرته البوينغ ، بعد مضي سنة على مؤامرة الصخيبرات وبينما كان العالم بأسره يتساءل عن مصير الملكية الشريفة ، كان هناك رجل واحد فقط قد طار لنجدة صديقه ، وجاء الى الرباط لمساعدته على التغلب على هذه المحنة • أما هذا الرجل فقد كان الحسين • ان هذا الموقف منبثق من طبيعة الملك الشاب الذي تسرب النشيب الى رأس جلالته بمرور السنين •

سيبلغ الحسين الأربعين من العمر في الخريف القادم (1) • ترى هل يخشى الموت ؟ يقول جلالته الحسين : « انني لا أخشاه إطلاقاً ، لانني رأيته وجها لوجه مرات عدة • انني لا أخشى الا الله وحده • » ولعله يخشى أيضا ألا يستطيع انجاز مهمته التي ما زالت بعيدة المنال ، ألا وهي أن يجعل من الاردن في عام ١٩٨٥ ، دولة تتيح لها مواردها المستخرجة من باطن الارض ، كالبوتاس والفوسفات ، وربما البترول ، ألوفاء بحاجاتها بنفسها •

ان حياة الحسين ماهي الا مرحلة • انها فترة انتقال في تاريخ الاردن • يقول جلالته : « انني أبذل كل ما في وسعي لكي تجدد الاجيال القادمة ظروفًا حياتية أفضل من ظروفنا • » • انه يفكر بلا انقطاع بالغد ، وبالغد الذي يليه انه يفكر بأردن أعوام الثمانين يقول الحسين : « أرجو أن نغدو قدوة لسائر الاقطار الاخرى في هذه المنطقة • » •

(1) ظهر الكتاب الملكي في صيف عام ١٩٧٥

مهنتي كملك

طوال هذه السنين من حكمه الملكي ، حاول الحسين ازالة الحواجز التي تفصله عن شعبه ، ليتسنى له مساعدته خير مساعدة على التقدم • ولقد قطعت مراحل مختلفة في هذا السبيل • بعضها تم بصعوبة فائقة ، وبعضها الاخر بصورة مأساوية • يقول الحسين : « ولكن ما زال أمامنا طريق طويل واجب الاجتياز • طريق مليء بالعقبات • ولسوف أكون الى جانب شعبي لمساعدته على تذليلها •

والحسين مؤمن بالقضاء والقدر ، ككل مسلم • فهو في كل لحظة يسأل الله أمره الى الله ، أملاً بفضل الله العلي القدير ، أن يتمكن من مواصلة مسيرته على طريق التقدم والحرية ، « قبل أن يدعوني الله الى جواره • » • وفي هذا اليوم فقط أكون قد ربحت رهائي •

فريدون صاحب جم

مهنتي كملك

يا صاحب الجلالة ، الناس لا يعرفون الا القليل عن أسرتكم
وطفولتكم ويقال بأنكم كنتم من الفقراء ، وأن مورد رزق والدكم
كان محدودا .

كانت طفولتي بسيطة وجد سعيدة . وكنت دوما شديدا التعلق
بوالدي . أما والدتي الملكة زين التي بقيت دوما الى جانبي والتي
تعيش في الوقت الحاضر ، في عمان . فامرأة تثير الإعجاب . انها
ليست جميلة فحسب ، بل هي أيضا موفورة الذكاء . وكانت
حكمتها وشجاعتها ونصائحها ذات تأثير حاسم بالنسبة الي .

لم تكن أسرتنا في الواقع تعيش في بحبوحة ، وهذا أقل ما يمكن
قوله ، ولا نبالغ اذا قلنا بأننا كنا فقراء . في عام ١٩٥٠ ، عندما
كان والدي وليا للعهد ، كان يتقاضى من الدولة راتبا مقداره ألف
دينار ، وقبل ذلك ، في الأربعينات ، كان الراتب أقل بكثير .
وبالطبع لم نكن نملك ثروة شخصية .

واليك قصة تصف لك مدى فقرنا . بعد سنة من مجيئي الى
هذه الدنيا ، ولدت للأسرة طفلة صغيرة ، الا أنها ماتت بعد شهرين
من ولادتها ، من جراء البرد القارس في عمان . فقد قضى عليها
مرض ذات الرئة ، لاننا كنا لا نملك من الموارد ما يسمح بتدفئة
بيتنا الصغير .

واني لاذكر رحلة قمنا بها بعد بضع سنين لزيارة ابن عمي
فيصل في بغداد ، فتعلقت نفسي بدب ضخم من القطيفة ، ولم
أكن أرغب في الانفصال عنه بأي ثمن ، ولكن في لحظة العودة الى
عمان ، اضطررت مع ذلك الى التسليم بتركه لابن عمي . ولقد
تمزق قلبي من جراء ذلك ، وفي اليوم التالي ، اشترت لي أمي دبا
مماثلا بعد أن باعت آخر حلية كانت لها .

مهنتي كمالك

لقد كان تشجيعها طوال عمري ، يشد من عزيمتي من خلال الازمات والفترات العصيبة . ومن المؤكد أنه لولا تشجيع أمي وأخلاصها وصبرها لما كان في مقدور أبي أن يحكم بلادنا حتى خلال الفترة القصيرة التي دام فيها حكمه . ولو أن أبي الذي كان يعرف أمي الى جانبه ، لم يتدخل بعزم وتصميم بعد اغتيال جدي في تموز (يوليو) من عام ١٩٥١ ، لكان من المحتمل أن يكون تاريخ الاردن اليوم مختلفا عما هو عليه الان .

عندما كنت صبيا صغيرا ، كنا نقيم جميعا في دار متواضعة تتألف من خمس حجرات مع غرفة استحمام واحدة تحيط بها قطعة أرض صغيرة في جبل عمان ، أحد تلال العاصمة السبعة ، لقد كان ابن عمي فيصل ملك العراق يوحى الي بانطباع أنه يعيش في عالم غني ثري . وانني لأذكر زيارة أخرى قمت بها الى بغداد عندما كان لي من العمر عشر سنين . فقدم لي فيصل ، بمثابة هدية الوداع ، دراجة متألقة متلألئة ، وقد كان لدي شعور بأنني لن أمتلك أبدا في حياتي شيئا أجمل منها . وطوال سنة كاملة بقيت الدراجة محتفظة بالجمال واللمعان اللذين كانت عليهما في اليوم الاول . وكنت في الصباح والمساء ، أدلكها وألمعها وأجعلها تضيء وتشع .

وفي أحد الايام جاءتني أمي وقالت لي بلطف : « انني أعرف بأنني سوف أشق عليك ، ولكن وضعنا المالي يبعث على الهم والقلق ، فلكي نستطيع الخلاص من هذه الحال ، لا بد لنا من بيع بعض المتاع الذي لدينا ، فهل يضايقك يا بني العزيز أن نبيع دراجتك ؟ »

ولقد جاهدت نفسي لاحتباس دموعي . انهم يستطيعون بيع كل شيء ولكن ليس دراجتي !
« وقالت لي أمي من باب التسرية عني وتعزيتي ، انك تعرف بأن عليك أن تواجه وتتغلب على الكثير من خيبة الامل ، كن قويا ،

مهنتي كمالك

فسيأتي يوم تنسى فيه الدراجة ، وتقود أجمل السيارات » .
لقد قدت أجمل السيارات فيما بعد ، ولكنني لم أنس أبدا هذه الدراجة فقد بيعت في اليوم التالي بخمسة دنانير .

ليس الفقر عيبا . ولقد أثبت لي مستوى معيشتنا المتواضع ، انني أستطيع أن أحيا حياة أبسط من الحياة التي عشتها فيما بعد ، وعلمني أيضا أن أقدر قيمة المال الى الحد الذي أصبحت فيه لأن أشعر بمتعة كبرى في منح العطايا للمعوزين .

وعلى الرغم من فقرنا ، فقد كانت حياتنا سعيدة نسبيا . فقد اختلفت الى سبع مدارس متباينة سواء في عمان أو في الاسكندرية وقد كنت دواما أشعر بفرح شديد في مصادقة الصبيان الآخرين ، وأن أعامل تماما مثل الآخرين . ولكن لئن صادقت عددا كبيرا من هؤلاء فان القليل منهم قد أصبحوا من الخلان الاوفياء الحقيقيين .

ولعل ذلك يعود الى انني أغير مدرستي باستمرار . وكان قوى متعارضة تتجابه فيما بينها بالنسبة لتعليمي . فما أكاد أسجل في مدرسة حتى يجيء جدي صاحب السلطة التي نعلمها ونعترف بها جميعا ، فيقرر أنني أحتاج الى دروس خاصة في التربية الدينية ، الامر الذي يعيدني الى البيت لكي أتلقى هذه الدروس على انفراد . وعندئذ يأتي دور أبي ليقرر تغيير المؤسسة . . . وأخيرا نجحت في أن أسجل نفسي في كلية فيكتوريا بالاسكندرية ، وهي مؤسسة تمزج التعليم باللغتين العربية والانكليزية ، وبذلك فتح أمامي عالم جديد ، عالم لم أكن أعرفه قط ، مع ما فيه من رياضة ككرة القدم والكريكت ، ومن قراءة ، ومن مصاحبة حقيقية للرفاق . وما زلت أذكر تماما حتى اليوم ، المجمع الكبير الذي كنت أتقاسمه مع ثلاثين من الفتيان الآخرين ورذاذ الماء المثلج الذي كنت أستحم به كل صباح ، واللباس المدرسي المصنوع من نسيج الصوف الخفيف . وقميص الرياضة الخاص بالكلية . وانني لأرى نفسي أيضا كيف كنت جالسا على حافة سريرتي ، بعد ظهر أحد الايام ، أحاول

مهنتي كملك

جهدي ادخال خيط في ثقب ابرة لترقيع قميص الرياضة الذي كنت قد مزقته . وأخيرا نجحت في ذلك لانني كنت أعرف أن والدي كانا لا يملكان ما يتيح لي شراء قميص آخر .

كان جدي يساعدنا ماليا لتسديد الاقساط المدرسية لان أبوي ما كانا ليستطيعان ذلك لوحدهما . وربما يبدو هذا غريبا ، ولكن لا تنسوا أن والدي كان يتلقى راتبا سنويا متواضعا . ولما كان عددنا في البيت كبيرا ، وكان يحمل لقب ولي العهد ، فلم تكن الحياة هينة بالنسبة اليه .

لقد كان جدي بصفته ملكا ، يتلقى تعويضا من الدولة يكاد لا يفي بالضرورات التي كان يستوجبها مركزه ، ومع ذلك فقد كان يتوصل الى تدبير أموره ، مع تقديم مساعدة لنا ودفع اقساطي المدرسية . فيما يتعلق بالنقود السائلة ، فقد كنا غالبا في ضيق ، الامر الذي كان يضعني في موقف غريب . فقد كنت أختلف الى مدرسة ممتازة في حين أن نقود الجيب التي تردني كانت مضحكة حقا .

كل هذا عاد علي بخير كثير وذلك بلا شك من جراء العادة التي اكتسبتها في وقت مبكر وهي أن أكون مقترا جدا ، مما جعلني فيما بعد أراقب مالية بلادي بعين نقادة .

ان السنتين اللتين أمضيتهما في كلية فيكتوريا تحسب بين أجمل سني عمري . فقد كنت ألقى تعليما طبيعيا تاما ، وأمارس الألعاب الرياضية في الوقت نفسه . وكنت أتابع دروسا بالعربية وبالتعليم الديني . وأصبحت من أمهر اللاعبين بالسيف مما أثار فرح جدي الذي كان يتابع علاماتي المدرسية باهتمام . وخلال الفصل الاخير في الاسكندرية ، فزت بمداوية في لعب السيف ، وكان سجل علاماتي جيدا تماما ، فبلغ سرور جدي بذلك حدا كبيرا حمله على رفع درجتي العسكرية الفخرية الى رتبة رئيس .

مهنتي كملك

في نهاية هاتين السنتين ، عندما بلغت من العمر بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، ازداد جدي تعلقا بي ، فأصبحت أكثر قربا اليه ولا سيما خلال الاجازات الكبرى : وقد كان يعتبر أن الاجازات هي المناسبة المنشودة لمضاعفة الجهود .

لقد كان رجلا شديدا وعادلا . ولقد وصفه السير ألك كيركبرايد ، الوزير الانكليزي في شرقي الاردن بأنه « عاهل ذو عينين تشعان فطنة ، وعقل يتوقد ذكاء » . فقد كان رجلا من البادية ، ربي بين القبائل البدوية المحاربة . وكان يشعر حتى اخر يوم من حياته بأنه طبيعة النضال من أجل الاستقلال العربي طوال عشر سنين ولكن النصر الكامل قد سلب منه بما يخالف الحق والعدل ، فهو لم يكن جنديا فحسب ، بل كان ديبلوماسيا عليما خبيرا الى أقصى الحدود ، وكان أدبيا كبيرا ينشد القصائد الشعرية طوال ساعات ، وكان الى هذا شاعرا هو نفسه كما كان لاعبا ماهرا في الشطرنج . كان شيخا ذا مناقب مذهلة تثير الاعجاب . وكان حاد الطبع اوتوقراطيا في الغالب . أحال شرقي الاردن الى بلاد سعيدة يحلو العيش فيها .

أما والدي المأسوف عليه الذي أضحي الملك طلال فيما بعد ، فقد كان مختلفا تماما عنه . اذ كان أكثر الناس لطفا وأخلقهم بالمحبة والوداد . كان طيبا كريما كثير السحر والجاذبية . عندما كنا أطفالا ، كنا نجلس في مقابله ونصغي اليه وهو يبتكر لنا القصص المدهشة . وهكذا كانت أسرتنا الصغيرة متحدة القلب الى أقصى حد . وكان الحب الذي ينبعث منها ذا أهمية بالغة بالنسبة إلينا .

كان والدي بالغ الاستقامة . فلم أصادف في حياتي رجلا واحدا لا بحبه . ولكن المرض الذي كان يعاني منه قد أعاقه لسوء الحظ عن الاستمرار في ادارة شئون الملك بحكمة . ومع ذلك فقد نجح ، على الرغم من قصر فترة حكمه ، في تحسين العلاقات التي كانت متوترة بين الاردن والعربية السعودية ، ومصر . لقد كان الواضع الرئيسي

مهنتي كملك

أدستورنا ومع ذلك فلا بد لي من القول بأن العلاقة بين والدي وجدي لم تكن جيدة . فقد كان الرجلان متباعدين من حيث النظرة الى الحياة والسن . والواقع أن جدي لم يتبين على الوجه الصحيح الى أي مدى كان والدي مريضاً : كان يرفض هذا المرض ، فقد كان الملك الشيخ من وفرة الصحة ومتانة البنيان الى الحد الذي جعله لا يتمكن من تفهم معنى المرض والمكابدة والمعاناة . أما نحن فقد كنا نعرف ذلك ونحيط والدنا بالكثير من العناية والرعاية والحب . في حين أن جدي كان يعيش الى حد ما ، في بطولات الماضي ، وكان يرى الاشياء على وجه آخر . وهذا ما أصابه بأشد خيبة أمل مرارة في حياته .

واني لأذكر حادثة ترددت طويلاً في روايتها لأنها كانت شخصية واليكها فهي بليغة الدلالة :

في أحد الايام ، اغتيل رياض الصلح ، وهو شخصية سياسية لبنانية كانت في زيارة الاردن . وقد وقع الحادث في يوم الاثنين الذي سبق مقتل جدي . قتل ضيفنا في سيارة جدي وكان المرافق العسكري لجدي في صحبته . وعلمت النبأ بعد الظهر ، فأسرعت الى القصر . فوجدت الملك عبد الله غاضباً غصباً لم أعرف له مثيلاً من قبل . لقد كان يرى أن من غير المعقول أن يقتل ضيف في الاردن . وكان غضبه يزداد كلما اتضحت التفاصيل . ثم دخل الحجرة مرافقه العسكري الذي كان قد نجا من الموت ، فألقى عليه جدي نظرة احتقار وخاطبه قائلاً : « كيف تجرؤ أن تبقى حياً ؟ » وقد كان على عمي الامير نايف ، وهو أخ لاب لوالدي ، كان عليه أن يكون الى جانب الملك ، ولكنه كان غائباً في هذه اللحظة العصبية . وصرخ بي جدي قائلاً : « أين عمك ؟ اذهب وابحث عنه وأحضره ! » .

فاندفعت الى الخارج . ومضت لحظات لم يكن عمي خلالها قد عثر بعد عليه . وكان الناس يقبلون مسرعين في أعداد متزايدة . التفت جدي فجأة وقال : « لقد اختفى ! أين ذهب ؟ » فذهبت

مهنتي كملك

من جديد لبحث عنه . وأخيراً هدأت العاصفة وبقيت وحدي مع الملك . فنظر الي بوجه يعلوه الاصفرار من الحزن والالم . ثم وضع يده على جبينني قائلاً في حشجة ، وكأنه يتوجه بالحديث الى الالهة : « هذا اليوم هو أكثر أيام حياتي أيلاماً وشدة ! ابن مريض أنحمل عباه ، والآخر في أوج الازمة يجد الوسيلة للاختفاء ! » .

وبقليل من الرجوع بالفكر الى الوراء لتبين الامور بوضوح فهمت الان لماذا وكيف أصبح جدي كلما تقدمت به السن وأصبح أكثر تسامحاً ، فاضت نفسه محبة لي وعطفا علي . ربما لانني قد غدت في نظره الابن الذي كان يتوق أن يكون له .

وعندما تولى بنفسه أمر تثقيفي لا سيما خلال العطل الصيفية الاخيرة أصبح صلباً لا يلين . فقد كان ينهض دوماً عند مطلع الفجر ، وهي عادة غدت بالنسبة الي فيما بعد مفيدة جداً بحيث أنني كنت أجد نفسي ناهضاً في غالب الاحيان في حوالي الساعة السادسة صباحاً فأعمد الى الاغتسال بسرعة في بيتنا الصغير ، وما أن تحين الساعة السادسة والنصف حتى أكون في الطريق الى القصر . وهناك كان كل شيء جاهزاً . فقد كان ثمة غرفة تستخدم كقاعة تدريس . أما استاذي فقد كان دوماً ينحس عن مهمته لان جدي نفسه هو الذي كان يبدأ في القاء الدروس . فقد كان يفتح كتاباً في اللغة العربية ، أو مجموعة من النصوص الدينية ويقول : « يا بني سنبدأ اليوم بهذه الصفحة » . ثم ينقي الى الاستاذ بنظرة تعوزها حرارة المودة ويقول له : « تأكد من أن الامير قد حفظ دروسه جيداً » .

بعد ساعتين من الدراسة يأتي جدي بنفسه ليأخذني أو أذهب للالتحاق به في مكتبه . فيكون قد سبق له انجاز الجزء الاساسي من عمله والامل يداعب خياله في أن أكون قد فعلت مثله . كان جيد الاطلاع على برنامجي الدراسي الى الحد الذي لم أحاول أبداً أن أخدعه .

مهنتي كملك

و ذات يوم ، بينما كنت أتابع درسا في اللغة العربية مع أستاذ كان قد اختاره بنفسه ، دخل فجأة الى حجرة الدراسة وبدأ يلقي علي أسئلة • ولقد خيبت أجوبتي أملة الى الحد الذي جعله يفحص الأستاذ نفسه •••

كنا أحيانا نتقاسم فطورا متواضعا في الساعة الثامنة والنصف • أما قائمة الطعام فكانت تتألف من القهوة البدوية المعطرة بقليل من حب الهال أو من الشاي بالنعناع مع الخبز المرقوق ، بلا زبدة ولا مربى • وكان جدي يقول بأن المرء يعمل بصورة أفضل عندما تكون معدته شبه خاوية •

وغالبا ما كان يشرفني بالقيام بعمل مترجم له في مكتبه في القصر لانه كان يفهم الانكليزية ولكنه لم يكن يتكلمها • لقد كنت أحب هذا العمل ، ولكن كان علي أن أكون محترسا حذرا ، فهو لا يتكلم الانكليزية حقا ، ولكن خلال اللقاءات الدبلوماسية كان أكثر من مرة ينحي باللائمة على المترجمين لتغييرهم لمعنى كلمة واحدة • وكان يتمتع بحاسة ادراك غريبة للكلمة الوحيدة التي جرى تشويه معناها • وغالبا جدا ما كنت مترجمه فلم يوجه الي ملاحظة اطلاقا • وفي معظم الاوقات كنت أعود الى القصر قبل صلاة المغرب ثم نتعشى معا • وكنت أصغي اليه أثناء تناول الطعام وهو يتكلم عن مهام الملك التي تنطوي على المخاطر ، أو أنني كنت أشهد مجالسه مع الوجهاء • وكنت أنظر اليه وهو يملئ مذكراته ورسائله أو وهو يلعب الشطرنج حتى ساعة متأخرة من الليل ، وعندئذ كان يقول لي وهو يرى عيني نصف مغلقتين من النعاس : « عد الى البيت واسترح حتى الصباح » •

كان يأذن لي بمرافقته أينما ذهب • وهو الذي علمني أن أفهم أفكار شعبي وتعتقد العالم العربي • كما أنه هو الذي علمني التزامات المنصب الملكي وكيف يمكن مواجهة الخصم بنجاح ••• ولقد علمني بشكل خاص أن أعظم واجبات الملك ، هو أن يخدم دوما • وأذكر أيضا أساليبه غير المألوفة في افهام من يثيرون

مهنتي كملك

عضبه • واليك مثلا بين أمثال عديدة :

بينما كان يتناول طعام العشاء مع أحد الوبلوماسيين ، دار الحديث حول العربية السعودية التي كان ملكها غالبا على خلاف مع جدي • فسأله الدبلوماسي عما اذا كان لا يعتقد بأن من المستحسن لمصاحبة القضية العربية أن تجري تسوية لما بينهما من خصومة • فسأله جدي : « ماذا بلغت من العمر ؟

فأجابه : خمسا وأربعين سنة يا مولاي •

فقال له : هل أستطيع أن أسألك عن عمرك عندما قامت الثورة العربية الكبرى ؟

فرد عليه : أعتقد بأن عمري كان آنذاك تسع سنين تقريبا يا مولاي • واصفر وجه الدبلوماسي اصفرارا ملحوظا ••• « انك لم تبلغ من العمر تسع سنين عندما كنت أقود جيش الشرق الذي حرر العرب • واليوم تطمع في أن تلقي علي درسا في الاخلاص للقضية العربية ! » •

لقد كان رجلا مدهشا فقد كان يتمتع بكثير من المواهب الخفية • ففي صباح أحد الايام كنت أنوي استشارته في أحد الامور ، فذهبت الى قصره في موعد أبكر من المعتاد ، في نحو الساعة السابعة • وكان ما يزال في سريره ، الا أنه كان مستيقظا • فأدهشني أن أرى أدوات علمية معدة لتجاربه في الفيزياء والكيمياء • وكان على الحائط مكتبة مدهشة ملأى بالكتب العلمية •

كان لديه احساس عجيب بالدعابة والفكاهة والظرف • وكان يتعاطى السعوط دائما ، وفي أحد الايام نسي علبة السعوط • وعند ما جئته بها جعلت أتفحصها بالفضول الطبيعي الذي يتصف به الاولاد ، فنظر الي وقال : كأ ذلك يهكم • فلم أجبه • فقال لي : « عليك بالتجربة » ، وقدم لي قليلا منه • ولما كنت لا أعرف أن

مهنتي كملك

المسحوق كان قويا جدا ، فقد استنشقت كل محتويات العلبة • عندها جعلت أعطس دون توقف مدة ساعة بينما كان جدي يقهقه ضاحكا • وهذا كان كافيا بالنسبة لي فلم أتذوق قط هذا النوع من الاشياء •

ومن المؤكد أنني لم أكن أخشاه ، لأنني كنت احبه وأحترمه • ولكن علي أن أعترف بأنني كنت أفعل بعض الاشياء خفية عنه • غمغمني لم أبلغ سوى الخامسة عشرة ، فقد كنت أتدبر أمري لتعلم قيادة السيارات بأخذ بعض الدروس فيها أثناء ساعات فراغي • وما كنت لأعرف اذا كان جدي على علم بذلك أم لا ، الا أنني أميل الى الاعتقاد بأنه كان يتجاهل الامر تجاهلا • • وكنت أخشى أن أطلع على ذلك مخافة معارضته • وهو لم يكتشف سري رسميا الا قبل وقت قصير من وفاته • فقد جئته مرة في السياره لتناول طعام العشاء ، وكنت أتهيا للاستئذان بالانصراف بأن أوجه اليه دوما تحية المساء في القصر دون أن يرافقني قط الى سطح الدرج • وخرجت وقفرت الى داخل السيارة • وما كدت أدير المحرك حتى أقبل الملك • فتصلبت في مكاني قليلا ، ثم نزلت من السيارة لملاقاته • فقال لي : « أرى أنك تعود الى البيت » فأجبتته متلعثما نعم يا مولاي •

فقال : حسن اذهب على مهل وكن حذرا •

وكان هذا كل شيء • ثم عدت الى البيت • وما كدت أصل حتى كان جرس الهاتف يقرع • وكان جدي على الخط • فقال لي : « لقد كنت أرغب فقط في أن أتأكد من وصولك سالما • ليلة سعيدة » •

هذا هو اذن الرجل الذي علمني الشيء الكثير والذي كان يحبني حبا شديدا والذي أدين له بأكثر مما أستطيع أن أقوله • انه هو الذي قال لي في أحد الايام :

« تذكر يا بني : ان أهم شيء في الحياة هو أن يكون لدى المرء العزم والتصميم على العمل وأن يكون مستعدا لان يعطي خير ما

مهنتي كملك

في نفسه على الرغم من العوائق ومهما كانت الصعوبات • وعندها فقط تستطيع أن تعيش مطمئن النفس مع الله ومع ضميرك » •

لقد كان عمري ستة عشر عاما ، وكنت على عتبة حياة جديدة • وكان علي أن أتخذ أن أضع موضع التنفيذ جميع المبادئ التي لقني اياها ، ولكن اذا كان صحيحا أنه قد أثر في تأثيرا عميقا فقد علمني موته في الواقع ما هو أساسي وجوهري •

فالقطار العربية تختلف عن البلاد الاخرى والحياة فيها لا قيمة لها كما أن الموت فيها قليل الاهمية • وبمقتل جدي أصابني القهر والالام شخصيا لأول مرة • وكان هذا اليوم الرهيب مليئا بالدروس والعبر حتى ولو لم أفهمها في الحال • فقد تعلمت أولا أن الموت قدر لا مرد له • فعندما يموت المرء فانه يموت لان ذلك هي ارادة الله • وبذلك اكتسبت هذه الراحة النفسية التي لا ينالها الا الذين لا يخشون الموت • وفي الوقت نفسه ، فان الذي يؤمن بالقضاء والقدر عليه أن يعطي خير ما في نفسه خلال الفترة التي تدوم فيها حياته لا سيما وأن هذه الحياة يمكن أن تسلب منه بنفس السرعة التي سببت فيها حياة جدي • أي خلال لحظة وهي اللحظة التي استغرقتها رؤية دخان مسدس القاتل وهي تتلاشى في الحرارة الالفة لصيف في القدس •

وهذه المعتقدات قد ساعدتني مساعدة كبيرة على احتمال فقدان جدي ، كما أنها أسدت الي خدمة جلي في التغلب على الازمات والمخاطر •

ومما لا شك فيه أن موته قد أتاح لي أن أوضح مفهومي للحياة • وهنالك شيء آخر تعلمته • فاذا كانت الحياة لا قيمة لها تقريبا فان نصيب الانسان من هذه القيمة أقل • ولسوف ان أنسى الخداع الانساني كما بدا لي في هذا اليوم ، فان موقف ونذالة اولئك الذين كانوا يزعمون أنهم أصدقاء جدي ، قد أثرا في نفسي تأثيرا عميقا

مهنتي كملك

الى الحد الذي لم يكن لدي سوى رغبة واحدة : أن لا أغدو ملكا للاردن ، لذلك تلقيت بارتياح نبأ أن والدي الذي كان يعيش في سويسرا ، قد بدا عليه التحسن . وعند عودته كنت أرجو أن أتمكن من الرجوع الى كلية فيكتوريا بعيدا عن التعطش الى السلطة والطمع اللذين انطلقا من عقاليهما بعد وفاة الملك عبد الله . فالسياسيون ، كالطيور الجارحة ، كانوا يتقاتلون لاحراز بعض الفتات من السلطة ، وبعض الطامعين من الاقارب ، لم يكونوا ينتظرون سوى قراءة الوصية . وكان بعض الناس يشكّون في أن والدي قد تعافى بمقدار كاف ليرتقي العرش . وبعضهم كان يأمل أن لا يستطيع تولي الملك لانهم كانوا يشتهون الملك لانفسهم ، وكنت أنظر بحزن وأنا عاجز عن اتيان أي فعل ، كيف كان « أصدقاء » جدي العجيبون يتناسون اخلاصهم دون أي تفكير في مصلحة البلاد . لقد رأيت البنيان الذي أنشأه الملك تتزعزع أركانه لان أقرباءه كانوا عاجزين ، ولان ضعفهم سهل تدخل الانتهازيين . وهذا كان يعني انهيار الاردن الصغير .



مهنتي كملك

لقد أثر اغتيال جدكم تأثيرا كبيرا على تطور شخصيتكم . ولقد كان أيضا حدثا تاريخيا هاما في تاريخ الاردن . في أية ظروف وقع هذا الاغتيال ؟

كان ذلك في يوم الجمعة العشرين من تموز (يوليو) عام ١٩٥١ . كان الحر شديدا وكان هذا هو اليوم الثاني من اقامتنا في القدس . في هذا اليوم وفي المسجد الأقصى بالقرب من قبّة الصخرة ، أحالت هذه المأساة القاسية المريعة الفتى ذا الستة عشر ربيعا الذي كنته الى رجل .

كان الجو ثقيلًا طوال سائر أيام الاسبوع ، وكانت نهاية الحرب الاولى العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٨ ، بين أمور أخرى ، قد تركت العالم العربي متلاشي النفس ، ساخطا ، غاضبا .

كان التوتر يتعاظم ويتسرب الى كل مكان كالغيوم المسمومة .

في يوم الاثنين السابق ، كان اغتيال السياسي اللبناني الكبير رياض الصلح قد ألهب العواطف والاهواء . لم يكن لمصرعه حقا أية علاقة بجريمة القتل التي تلتها . ولكن اغتياله حدث في الاردن ، فتأثرت له البلاد تأثرا عميقا ، حتى أن الوجوه في الشوارع كانت مقطبة . وما كان الناس يكفون عن الصمت ، الا ليندفعوا الى الصراخ والمناقشات الحادة التي كانت تنذر بقرب حدوث أزمة .

كانت هذه هي المرة الاولى التي عرف فيها الاردن اهانة كهذه ، وبديهي أنها كانت أمرا تافها بالقياس الى الازمات التي ذللتها وسيطرت عليها منذ ذلك الحين ، ولكنها كانت أولى هذه الازمات . لم يكن غضب الشعب موجها ضد رجل أو حزب ، وانما ضد هذه القوة الخفية التي حطمت المجرى الهاديء للحياة .

مهنتي كملك

كان السكون والهدوء يخيمان على الاردن عندما كنت صبيا ، وكانت الحياة فيه ناعمة رخية . أما شعبه فكان يكدح بعزيمة لا تعرف الكلل . كان يعبد الله ويمثل لاحكام القوانين ولا يبتغي الا انعيش بسلام وضمان مكان له في الجنة ، عندما اغتيل فجأة زائر رفيع الشأن ، ، عندنا ، زائر كان يتمتع بضيافتنا . وبعد ذلك ببضعة أيام ، ، قتل الملك نفسه .

لقد فكرت دوما بأن مصر كان لها نصيب من المسؤولية في اغتياله ، لان جدي كان له فيها كثير من الاعداء . لم يمض الا وقت قصير على مغادرتي المدرسة في الاسكندرية ، عندما بدأت الحملة ضد جدي . لقد كانت مؤامرة ترمي الى تفكيك أجزاء الاردن أما المصريون أنفسهم فلا شأن لهم بذلك . فقد عشت بينهم وأنا أعرفهم . في ذلك الحين كانت الفروقات بين الطبقات عظيمة . وكان الهدوء الغريب للشعب ، ينبىء بالانفجار . كان يبدو أن المصريين راضين بحكم أي كان . ولكن ذلك لم يكن الا من قبيل المظاهر . لقد كانوا سريعي التأثر بما كان يوحى اليهم ، وقليلي الاطلاع على أحوال العالم العربي . ولكن المعارضة الداخلية كانت تتزايد . فقد كان من غير الممكن الإبقاء على هذا الشعب تحت رحمة الجوع وسياسة التجهيل ، كما كان يفعل الحكام المصريون المتسلطون القساة ازاء الفلاحين قبل ثورة عام ١٩٥٢ ، فأدرك أصحاب السلطة دلائل الخطر ، فلجأوا الى الاسلوب القديم في تقديم كبش الفداء ، فكان الاردن أنسب ما يحقق هذه الغاية . لقد تلقت بلادي ، أثناء الحرب ضد اسرائيل ، أكبر الضربات . اذ كانت محل الانتقادات من كل نوع ، على الرغم من أن جدي قد نبه شعبه الى كل ما سوف يحدث قبل ذلك بوقت طويل . لم يكن وعيه السياسي غير عادي ، ولكن قدرته على التنبؤ وكلفه بالحقيقة اجتذبا اليه طائفة لا بأس بها من الاعداء .

في الوقت الذي كنا نتكلم فيه عن الرحلة الى القدس ، كان احساسنا الداخلي بما سوف يحدث قويا الى الحد الذي جعل جدي

مهنتي كملك

نفسه يبدو كأنه يتنبأ بالكارثة وهو الرجل الذي لا يفزع ولا يقلق بسهولة . وانني لاذكر كيف تناقشت معه طويلا قبل ثلاثة أيام من ذهابنا الى المدينة المقدسة . ودون أن أفهم السبب ، قال لي جدي فجأة بصوته العذب :

« أرجو أن تعرف يا ولدي ، أن عليك في يوم ما ، أن تتحمل مسئوليات جسام . وانني لاعتمد عليك أن تصنع المستحيل لكي لا تضيع جهودي سدى . انني اعتمد عليك في الاستمرار في خدمة شعبي » .

انني أذكر جيدا هذه اللحظة . فجدي الذي كان بدويا بقلبه كان شديد الحب للبادية الى الحد الذي كان ينصب الخيام في حدائق قصره ، ويقضي فيها جزءا كبيرا من وقته . وكان في الامسيات المعتدلة الطقس يجلس متكئا على الوسائد الحريرية يحيط به أصدقاؤه الذين يفدون لزيارته . وفي احدى الخيام ، وأنا جالس بالقرب منه كما كان يحدث لي غالبا ، وعدته وعدا رسميا بتحقيق أمنيته . لقد بذلت له هذا الوعد وأنا أعرف تمام المعرفة ما أقدمت عليه ، وأتوق الى الوفاء بوعدتي واحترامه . ولكني لم أكن أتخيل لحظة واحدة أن الامور سوف تتسارع بهذا الشكل .

كان الملك عبد الله ، وهو في التاسعة والستين ، يتمتع بصحة جيدة . وكان والذي أيضا يظهر دلائل مشجعة على قرب شفائه . فكان لا بد من انتظار وقت طويل قبل أن يرتقي والدي العرش . أما بالنسبة الي ، فقد كان الامر أبعد منالا .

وما كادت تمضي أيام ثلاثة على ذلك حتى كنت أجتو أمام جثة جدي في الوقت الذي كان أصدقاؤه يهربون في كل اتجاه . وبعد مضي سنة أصبحت ملك الاردن . وانني اليوم لاتمنى أن يكون الوعد الذي قطعه له قد أنعش فؤاده بالقدر الذي شدد من تصميمي على الرضاء بارادة الله وخدمة شعب الاردن ما وسعني ذلك .

مهنتي كملك

لقد وقعت أحداث عديدة خلال هذا الأسبوع الفاجع . ففي صباح الأربعاء ، عشية رحيلنا الى القدس ، التمس سفير الولايات المتحدة مقابلة الملك .

« قال يا صاحب الجلالة ، هل أستطيع أن أتوسل اليكم بأن لا تذهبوا الى القدس . اذيدوا أن هنالك مؤامرة للاعتداء على حياتكم انني لارجوكم يا مولاي أن تعدلوا من برامجكم » .
فنظر اليه جدي وهو مستغرق في التفكير . ثم قال له :

« أشكركم لتحذيري . حتى ولو صح ما ذكرتموه ، فلسوف أذهب على كل حال لان حياتي ملك لشعبي ومكاني هو بالقرب منه .
ولسوف أموت اذا كانت هذه هي مشيئة الله » .

في يوم الأربعاء أنهينا استعدادات السفر . ولم يكن مفترضا أن أقوم بالرحلة الى القدس . ولكن في المساء بعث الي الملك يطلبني وخطبني قائلا : « انك تعلم بأنني طلبت الى الكثير من الناس مرافقتي غدا الى القدس ، ولكن الغريب أن معظمهم لا يرغبون في الذهاب ، فكأنهم يخشون شيئا . انني لم أسمع في حياتي أعدارا بهذه التفاهة » . ونظر الي لحظة ثم أضاف « هل تريد أن تأتي معي يا ولدي ؟ » فقلت له : سأكون سعيدا بذلك فحياتي ليست شيئا يا مولاي ، بالقياس الى حياتك .

ربما كانت اللهجة مسرحية ، ولكن الكلمات كانت تصدر من أعماق أعماق قلبي . فنظر الي بوقار ، ولكنه لم يصف شيئا . كانت الدموع تتفرق في عينيه ذهبنا اذن الى القدس معا . وقد بدأ نهار الجمعة باكرا جدا ، لانه كان قد وعد بزيارة بعض الاصدقاء في نابلس ، قبل أن يتوجه الى القدس للصلاة . فتناولنا فطورا صباحيا نسبيا ، لان النهار سيكون طويلا . ونظر الي جدي لحظة ، ثم طرح علي سؤالا لم يكن على الاقل متوقعا :

« لماذا لم تلبس البزة العسكرية ؟ » .

مهنتي كملك

لم يكن لدي أي داع لارتداء الزي العسكري . فالملك الذي كان ذوقه بسيطا جدا لم يسبق له أبدا أن طلب مني تغيير ملابسي (كان لا يحب ارتداء لباس المراسم والاحتفالات في يوم مخصص للصلاة) يضاف الى ذلك أنني لم أكن أملك سوى بذلة عسكرية واحدة . وقد ارتديتها في اليوم السابق بمناسبة تقديم سرب الطيارين الاول في القوات الجوية الاردنية . ولما كنت أريد تنظيفها ، فقد بعثت بها الى عمان مع ملابس أخرى شخصية قبل تناول طعام الفطور .

وأمرني جدي قائلا : « عليك بارتداء البزة العسكرية » .

فأسرعت اذن بارسال ساع لاستعادة الرداء بأسرع وقت ممكن . وغيّرت ملابسي بعد قليل من أجل زيارة نابلس التي لم تستغرق وقتا طويلا . ولما كنا متقدمين في الوقت على البرنامج المحدد ، فقد استقبل جدي بعض الوجهاء المحليين .

كان بين الزوار الجنرال كوك الذي كان يسمى وقتئذ كوك باشا ، وهو قائد الفرقة الجديد في الجيش العربي . لم يكن قد مضى على وصوله الى الاردن الا وقت قليل . ولقد قبلت بسرور طاب الملك أن أقوم بدور المترجم بينهما ، لا سيما عندما قال له :

« انني فخور بحفيدي وغدا سوف أقلده شعار المرافق العسكري »

قليل اولئك الذين كانوا يعرفون أن غدا بالنسبة الى جدي سوف لن يأتي أبدا . كان هناك رجل يعرف ذلك . ولقد كنت الى جانب جدي عندما وصل خاضعا متواضعا يلتبس بالمقابلة . كان اسمه الدكتور موسى عبد الله الحسيني . كان من أقرباء المفتي ومن خريجي جامعات المانيا الغربية . لقد خرّ راكم أمام الملك ثم أعرب له ، وعيناه تحدقان في عينيه ، عن ولائه ، متمنيا له طول العمر والسعادة .

وبعد ساعتين كان الملك قد قتل . أما الحسيني ، فقد كان تورطه في هذا الاغتيال من الخطورة بحيث تم اعدامه .

مهنتي كملك

كانت حياتي دوما مرادفة للعزلة . وقد ساءلت نفسي مرارا منذ يوم الجمعة الدموية هذه ، عما كانت تخفي هذه الابتسامات المعسولة ، وهذه الانحناءات ، وهذه المجاهرة الحارة بالولاء . واني لاتساعل اليوم عما اذا كان جدي لم يتحسس باقتراب الخطر منه . كان الناس جميعا على الرحب والسعة في بيته في القدس . وقبل قليل من انطلاقنا نحو المسجد وصل جماعة من الاصحاب فكلهم جدي عن اولئك الذين رفضوا مرافقته بعبارات كان فيها من معاني التنؤ بالغيب ما كان سيجعلني لا أنقلها أبدا لو لم يكن يوجد الكثير من الشهود عليها .

قال : « لقد خافوا » . وأضاف : « ان الحياة والموت بالنسبة الي » ليس لهما الا أهمية قليلة . واذا كان لا بد من أن أموت ، فاني أفضل أن أقتل برصاصة في الرأس . فهو أسرع أنواع الموت » .

وعندها نظر أحدهم الى الساعة ، فنهض جدي لان وقت الانطلاق كان قد حان .

جلس أحدها بجانب الآخر . وانطلقنا باتجاه المسجد . كانت كل التدابير الامنية قد اتخذت . وكانت تحرس الطريق قوات مجهزة بكامل أسلحتها . كان القلق باديا على الوجوه . وما أن دخلنا المدينة القديمة ، حتى ترجلنا متجهين الى المسجد . كان الحرس العسكري من كثرة العدد الى الحد الذي جعلني أسأل ضابطا : « ما الذي يجري ؟ هل يتعلق الامر بمسيرة جنازية ؟ » .

كنت أسير وراء جدي باتجاه خفيف نحو اليمين . لقد تبادل بعض الكلمات في الطريق . ثم انتصب باب المسجد أمامنا تماما

قدم حرس الشرف التحية العسكرية .

وعندما دخل جدي المسجد استدار نحو قائد الحرس وسأله عما اذا كان لا يعتقد بأن المراسم العسكرية غير مناسبة في مكان مقدس .

مهنتي كملك

وتقدم نحو المسجد ، وما كاد يخطو بضع خطوات ، حتى ظهر رجل وراء الباب الكبير الى اليمين : لم يكن في حالة طبيعية . وكان يمسك بسلاح . وقبل أن يستطيع أحد أن يبدي أية مقاومة ، أطلق النار . لم يره جدي أبدا . وكان على بعد مترين من القاتل . فأصيب برأسه ، فانهار وقد انتشرت عمامته على الارض . لم أتبين فورا ما قد حدث خلال لحظة كانت تبدو دهرا كاملا ، بقي الاقاتل جامدا غير قادر على الحركة .

الى جانب قدمي ، كان شكل أبيض مسجى على الارض . وبقيت لا أفهم أبدا . وفجأة استدار الرجل وفر هاربا . فانطلقت في أثره في داخل المسجد . وفي الوقت الذي انطلق مسرعا ، رأيت من طرف عيني كل أصدقاء جدي يهربون في كل اتجاه . انني ما زلت أراهم ، هؤلاء الكبراء وأعيان الدولة وهم يخفون وجوههم ويفرون كأنهم العجائز المذعورات . ان هذه الصورة سوف تبقى محفورة الى الابد في ذاكرتي أكثر من صورة القاتل ، لانها الى حد كبير البرهان الاكيد الدائم على ضعف الولاء السياسي وسرعة زواله .

كل ذلك حدث في جزء من الثانية . وكان القاتل يجري في خط متعرج دون أن يعرف في أي اتجاه يفر . وكانت طلقات الرصاص تلعلع في كل مكان داخل المسجد . وفجأة التفت ، بعد أن حوصر في زاوية ، فاستشففت وجهه وفمه الأدرد الخالي من الاسنان وكانت عيناه تلمعان والسلاح ما زال في يده اليمنى عندما رأيته يسدده نحوي وقد أصبت بما يشبه مفعول التنويم المغناطيسي ، لقد حدثت الامور بسرعة : رأيت الدخان وانطلقت الرصاصة فترنحت وقد تزعزعت أركانني من جراء صدمة كبرى أصابت صدري . فتساءلت عما « اذا كان ذلك هو الموت » . وانتظرت ولكن لم يحدث شيء لقد حدثت معجزة . فقد ضربت الرصاصة أحد أوسمتي ثم ارتدت . لقد سلمت من الاذى بفضل جدي ولا شك ، لان البزة العسكرية قد أنقذت حياتي .

عندما سقط القاتل بدوره كان مستمرا في اطلاق النار . . .

مهنتي كملك

فاستدريت عندها نحو جثة الملك • لقد كنت مصابا بدوار في الرأس عندما جثوت الى جانبها ولكن كنت بشكل خاص غاضبا مغتاظا • فلم أفكر الا بشيء واحد وهو أن هؤلاء الرجال الذين أحبهم جدي ورفع مقاماتهم أو ساعدتهم ، قد هربوا • وفككت أزرار ثوبه بينما كان الطبيب يفحصه • وكنت أرجو من صميم القلب أن يكون ما زال ثمة أمل • ولكن كان كل شيء قد انتهى • فأعدنا تغطيته بثوبه واستعملنا أحد البسط كمحفة لنقله الى المستشفى • وكنت أرغب في البقاء بالقرب منه ولكن الطبيب أقنعني بلطف بالعدول عن ذلك ، ثم حقنني بآبرة لتجديد نشاطي كما قال • وبقيت لا أفهم أبدا ماذا حدث الى أن حانت لحظة الذهاب الى المطار • عندها فجأة أحسست بنفسني وحيدا ، وحيدا تماما !

انتحيت طوال الرحلة مكانا منعزلا بعض الشيء • في هذه اللحظة التي اتصفت بالارتباك والتشوش اللذين لا حد لهما ، لم يكن ليستطيع أحد أن يسرني عني أو يشدد من عزيمة أو يقوي من معنوياتي • أبدا لا أحد كان في مقدوره أن يفعل ذلك • ولقد عمد بعضهم من باب اللياقة المحضة الى الاعراب لي عن تعاطفهم ومشاركتهم لي في مشاعري •

وقفت وحيدا على مدرج المطار أتحسر بشدة على غياب والدي انذي كان يتلقى العلاج في سويسرا • لقد كان ذلك أول درس لي في الشعور بالعزلة •

وقد كنت أحس أيضا بانحطاط شديد في القوى • وعندما أفكر في الحياة التي عشتها منذ هذا اليوم أدرك أن الثمن الذي كان علي أن أدفعه لم يكن العمل الدائب الموصول الذي أحبه ولا متاعب الصحة التي لاحقتني ، ولكنه ثمن أشد فداحة وأشق احتمالا • لقد كنت طوال مدة حياتي محاطا بطائفة لا حصر لها من الناس ، كنا نتكلم معا ونضحك معا ، ولكن على مدار هذه السنين وفي قرابة نفسي كنت وحيدا كالغريق •

مهنتي كملك

لقد وقفت على مدرج المطار وأنا ما أزال تائه الفكر من جراء سرعة تتابع الاحداث ، عندما اقترب مني رجل يرتدي الزي العسكري لسلاح الطيران • كان وجهه صارما تكسوه الغضون والتجاعيد وكان ذا أسنان قوية وشعر أحمر • قال لي باستحياء ، وبلهجة اسكتلندية ظاهرة :

« هل تريدون أن تأتوا معي يا مولاي ، فلسوف نقوم بالرحلة معا ؟ » وقادني أمام طائرة ذات محركين من طراز دوف ، ودعاني لأن آخذ مكانا الى جانبه • ثم أدار المحرك وأقلعنا الى عمان •

هذا الرجل هو في الواقع الرائد جوك دالجليش من ضباط السلاح الجوي الملكي البريطاني • ولم أتصور في هذا اليوم الذي طويت فيه إحدى صفحات التاريخ ، أن دالجليش سوف يعلمني قيادة الطائرات بعد سنتين ، وأنه بعد ذلك بسبع سنين كان علينا جوك وأنا وفي نفس الطائرة ، أن نقاتل دفاعا عن حياتنا ، طائرات الميج السورية التابعة لعبد الناصر التي كانت تهاجمنا •

وفي اليوم التالي حملت سلاحا لأول مرة في حياتي •

لقد مات جدي في مدينته العزيزة القدس • « أجمل مدن الدنيا » كما كان يحلو له أن يقول • لقد كان حبه الأول للحجاز الذي ولد فيه وهو مساحة صحراوية تقع في شمالي اليمن تتوسطها مكة المكرمة : مهد الاسلام ، ومن الحجاز بدأ جدي مسيرته نحو الشمال في عهد الثورة العربية الكبرى •

ثم مرت الايام واستقر في الشمال ، وحمل حكمه السلام والاستقلال لما يسمى في يومنا هذا الاردن • ونما حبه للقدس إذ كان رجلا متدينا شديدا السورع والتقوى • فهو لا يدخل أبدا أية مدينة قبل أن يستعلم عن معناها الروحي • ولكن القدس كانت شيئا آخر : فالاماكن المقدسة فيها والاسوار القديمة والمآذن المتعالية وأشجار الزيتون في الجسمانية ، والاسواق الضيقة التي

مهنتي كملك

تحيط بدرب الالام كانت هي أيضا مهد الامل والايمان • فعندما تشرق الشمس ، وبيترد الهواء فيها ، تغدو مدينة فريدة في نوعها •

والاردن أيضا بلاد جميلة تمتد فيها الصحاري الى ما لا نهاية ، ويسرح فيها البدو • ولكن الجبال الواقعة في شمالها مغطاة بالغابات الخضراء حيث يجري نهر الاردن ، فهي أراضي خصبة صيفا وشتاء • ان بلادي ذات جمال يستحوذ على العقل ، وتشع فيها بصمات قوية من معاني الخلود • انها آخر ما تبقى من عالم الالامس بما وسمت به من آثار تمثل ما كان قديما يشكل احدي الامبراطوريات العظمى • انني أعبد كل شبر من الارض فيها • وأحب عمان حيث ولدت في ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٣٥ ؛ عمان التي شاهدها تنمو بمضي السنين • وانني لأشعر دوما بنفسني تفيض بالاعجاب والافتتان كلما عاودت مشاهدة مدينة البتراء القديمة ذات المعبر الضيق الذي كان يمكن اثني عشر رجلا من النبطيين ، من مقاومة جيش بأكمله كما انني أحس بمشاعر الارتياح والدعة كلما وجدت نفسي تحت الخيام الرمادية لقبائل البادية •



مهنتي كملك

لقد ارتقى العرش جلالة والدكم الملك طلال ، وأصبحتم تبعا لذلك وليا للعهد •••••

لقد رغب جدي في أن ألتحق بكلية هارو ، ولكنني أقنعتة قبل وفاته بوقت قليل بأن كلية فيكتوريا أكثر ملائمة لي • فقد كنت أشعر بطيب الإقامة في الاسكندرية التي أمضيت سنتين فيها • ولقد قبل جدي بوجهة نظري • ولكن استشهاده غير الكثير من الامور • غدا سفري الى مصر غير ذي موضوع بعد أن أصبحت وليا للعهد ، نظرا لموقفها العدائي وللتوتر المتزايد الذي كان قائما آنئذ بين بلدينا • وهكذا كنت مضطرا أن أعدّل من مشروعاتي •

استمر والدي في الإقامة في أوروبا ، وما لم يعد الى الاردن لتفقد مسؤولياته الجديدة كملك ، فقد كان من غير المستطاع بالنسبة اني أن أغادر البلاد • كانت التعليقات لا تتوقف والدسائس تحاك وقد عاد خالي الشريف ناصر من العراق حيث كان يقيم ، ومع ابن عمي الشريف زيد ، شكلنا نحن الثلاثة فريقا صغيرا • وقمنا بزيارة كافة أرجاء البلاد • وتحدثنا مع الآلاف من الناس • وكنا نقضي الليل غالبا في البادية • فكان ما أقدمنا عليه تجربة تستحق الاهتمام •

وأخيرا عاد والدي الى عمان وأصبح لزاما علي أن أسافر الى انكلترا للالتحاق بالمدرسة الجديدة التي كنت لا أعرف فيها أحدا باستثناء ابن عمي فيصل • كان الطلاب يمارسون فيها لعبة الرجبي بدل كرة القدم • وقد بدت لي اللغة الانكليزية فيها صعبة الاستيعاب •

كانت هارو المؤسسة العلمية المختارة • ولا بد لي من الاعتراف بأنني كنت فيها غير سعيد في البداية • ولم يكن ذلك عائدا تماما

مهنتي كملك

الى خطأ شخصي مني فقد كان نطقي اللغة الانكليزية أسوأ مما كنت أعتقد . اذ بعد سنتين قضيتهما في المدرسة الانكليزية في مصر وجدت هذه اللغة في هارو مختلفة تماما . كان التحدث بالانكليزية في الاسكندرية غنائيا وبطيئا ، أما في هارو فقد كان التحدث يجري بسرعة فائقة . وفي المرة الاولى التي رغب فيها الطلاب في توجيه الكلام الي لم أفهم نصف الكلمات التي قيلت .

وفي الصف كان الوضع أسوأ . فالصعوبات كانت من الشدة الى الحد الذي لم أتمكن فيه من حفظ دروسي على الوجه الصحيح . كانت اللغة العربية في الاسكندرية هي المادة الرئيسية ، أما الان فقد كان علي أن أركز جهدي على اللغة الانكليزية . في هارو كان التاريخ والادب الانكليزي المادتين الأكثر أهمية . ولقد استنفدت كل ما لدي من طاقة لأتمكن من الفهم والحفظ . اذ كان لا بد لي من بلوغ الغاية .

ولقد وجدت مشقة كبيرة من الناحية النفسية في التكيف مع هذا النوع من الحياة . اذ انفتح أمامي عالم جديد بتقاليده وعاداته وأنظمته . ما أعظم الفارق بين هارو وكلية فيكتوريا ! لقد كان علي أن أعيد تعلم كل شيء . فقد كنت كالحديث العهد بالجندية . ولكن هل يستطيع المرء أن يكون جنديا في السادسة عشرة من العمر ؟ ومن الغريب أنني كنت أنصح وأرشد من رفاقي . والتربية التي نشأت عليها ، والعالم الذي تدرجت حياتي فيه قد جعلاني رجلا بين أولاد . وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله لم أقبل فورا بين أصدقائي الجدد . على الأقل هذا ما أحسست به ويخيل الي أنهم اعتبروني تلميذا مثيرا للفضول والاستغراب فقد كنت دوما قابعا في زاويتي مع ابن عمي ، في حالة من انقباض الصدر بعض الشيء . كنا نحن الاثنان الوحيدين الذين لم يطلق عليهما ألقاب . ذلك لان فتيان المدارس الخاصة في بريطانيا يراعون منتهى الدقة فيما يختص بشئون البروتوكول ، أكثر منا نحن نزل القصر في عمان . وبدلا أن ينادوني باسمي ، حسين

مهنتي كملك

فقط ، كانوا يفضاون غالبا ألا يكلموني على الاطلاق .

حاولت أن أندمج بهم ، أن أقيم علاقات شخصية معهم ، أن أكون مستريح النفس منشرح الصدر حقا . أثناء تناول الطعام كنت أبحث عن ابتسامة ودية بين العديد من الوجوه التي كانت تحيط بي . وحاولت أن أفهم ما يمكن أن يباعد بيننا . كانت علائق الثقة بالنفس تفيض بها وجوههم وكان لكل منهم حلقة من الاصدقاء خاصة به ، وقد وجدتهم في الواقع يتكلمون التباهي ومجارة الافانين الشائعة بعض الشيء . اقتصرت أحاديثي معهم طوال أسابيع طويلة على كلمتي (صباح الخير) و (مساء الخير) وقد كنت أستشعر بسعادة بالغة عندما كانوا يرتضون الرد علي .

حتى الطعام كان مختلفا ، ومع ذلك فقد كان أفضل مما يقدم في المدارس الأخرى . ولكنني افتقدت الاطعمة الاردنية وكذلك الشاي الاصلي والقهوة الاصلية . فقد كانت بريطانيا العظمى آنئذ خاضعة لنظام التقنين ، وكان لا بد من البطاقات للحصول على الحلوى ، ولم يكن من حقا أن ننال الا بيضة واحدة في الاسبوع . وقد اعتدت على ذلك شيئا فشيئا ، وأصبحت أتذوق الطريقة الانكليزية في طهو الطعام ، مهما بدا ذلك غريبا . وكنت أقدر المواعيد الدقيقة المنتظمة في تقديم الوجبات ، بداء بالفطور ، ثم بالوجبة الخفيفة في الساعة الحادية عشرة ، ثم بطعام الغداء ، فالشاي ، وطعام العشاء . وجاء يوم لم يعد الدراق مقننا ، فتراكض عليه الناس جميعا . ومنذ ذلك الوقت أصبحت كلما أكل الدراق ، أتذكر اللعب المحفوظة منه التي كنت أخذها الى غرفتي لأكلها في المساء .

ورويدا رويدا بدأت الامور تتطور دون أن أشعر بها . فتارة كنت أخلو الى نفسي ، وتارة كنت أجد نفسي بين طائفة من الاصدقاء . وجعلت أمارس الالعاب الرياضية بازدياد مستمر وكذلك لعبة الرجبي التي اكتشفتها بعد بضعة أسابيع .

مهنتي كملك

وانني لأذكر الفرع الذي غمرني في اليوم الذي قام فيه فتي بقذف الكرة الي وهو يصيح : « هيا يا حسين لقد حان دورك » .

لقد كان لي غرفة صغيرة أسوة بجميع الطلاب . وعلى الحائط حفرات الاحرف الاولى من اسمي . كانت حجرة غربية ذات أغرب سرير عرفته فهو مصنوع من الحبال والقماش لكي يدمج في الحائط ، الامر الذي كان يمكنني من التصرف بكامل الغرفة خصيصا للعمل فحسب . وكان عندي كبقية رفاقي ، مقعد وخزانة للثياب وطاولة صغيرة . كان هنالك فارق واحد : وهو بساط صغير جئت به من الاردن .

كنت أنهض كل صباح في الساعة السابعة فأستحم برذاذ من الماء البارد ، الذي لا أستحسنه بنوع خاص ، ثم أرتب غرفتي وأصبغ حذائي وأتأكد من أن بنطالي مكوي (كنت أضعه كل مساء تحت الفراش) . وكنت أحب النظام دون أن أكون ذا ميل مفرط في أي شيء . فألمع حذائي وأجد متعة في إنجاز عملي باتقان مطلق . وانني أعتقد بأنني كنت هنالك أعيش بصورة لاشعورية حياة كنت دوما أصبو اليها كرجل مستقل يقود سفينته على طريقته الخاصة . انني أحب المنافسة حبا شديدا لا سيما عندما تكون النتيجة متعلقة بي . وبالإضافة الى البرنامج المدرسي فقد تسجلت في الصف الخاص باللغة العربية وكنت أيضا أمارس رياضة المبارزة بالسيف لان جدي قد شجعني على المضي في ممارسة هذه الرياضة .

ولكن الذي كنت أستحسنه فوق كل شيء في هارو ، فهو الحياة خارج المدرسة . فقد أهداني صديق لوالدي سيارة من طراز روفر ذات لون أزرق سماوي . لقد تعلمت قيادة السيارات في عمان كما سبق لي أن ذكرت لك ، ولكنني كنت أقود سيارات الآخرين . أما الآن على الأقل فلي سيارتي الخاصة . وكان أول شيء فعلته هو التقدم للفحص للحصول على اجازة قيادة . قد يكون هذا مضحكا

مهنتي كملك

ولكنني لا أستطيع اجراء الفحص في عمان لعدم وجود من يستطيع تحمل مسئولية ذلك . لهذا كان لا بد من أن أذهب الى انكلترا لتقديم فحص الاجازة التي تمكنني من قيادة سيارة في عمان . وعندما عدت الى الاردن فيما بعد بصفتي ملكا كان لدي اجازة قيادة بريطانية .

لم أحصل على اذن بايواء سيارتي في المدرسة . وكان النظام يقضي بذلك ، فقام سفير الاردن بايجاد مأوى لسيارتي بالقرب من هارو في سدبوري على مسافة كيلو متر ونصف من المدرسة .

وهناك التقيت بموريس رينور الذي يعمل في الاردن منذ ذلك الحين . كانت السيارة غرام حياته الاكبر . فقام بيننا تعاطف فوري . وبالطبع لم تكن الحياة في هارو مجرد قيادة سيارات جميلة ، أو أكل الدراق المحفوظ في علب ! فقد كنا نشق على أنفسنا في العمل . أما ما كنت أستحسنه فوق كل شيء ، فقد كان النظام . فعلى الرغم من صرامته ، كان الفتى ابن الستة عشر عاما يتمتع بحرية واسعة وببعض الامتيازات ، ولكن لا أحد كان يسيء استخدام ذلك . انني جد ميال الى هذا النمط من التربية الذي يمكن الطلاب من أن يفرضوا على أنفسهم نظامهم الخاص والذي يتيح لهم الفرصة لسلوك مسلك الكبار البالغين . فالطالب الذي يعمل بشكل جدي في هارو والذي يسجل نجاحا ملحوظا ، يستطيع أن يتمتع بأوقات فراغه كما يرغب ويشتهي . وانني لأرجو أن تؤمن بأنني كنت أعرف كيف أستعمل الاوقات التي أكون فيها حرا .

وعلى مدار الاشهر ، كنت أستقبل عددا متزايدا من الزوار . وكان معظمهم من الدبلوماسيين . فقد كنت الوارث للعرش . كما أن جمعا كبيرا من أعضاء الحكومة الاردنية قد جاء لزيارتي كلما كان أي منهم في رحلة الى انكلترا . فكنت بذلك مطلعا على أبسط التطورات التي كانت تطرأ على حالة والدي الصحية . وكنت في

مهنتي كملك

البداية كبير الامل في تحسن صحته .

ولكن كان علي بسرعة أن أقلص من أمني الطموحة . فقد كانت التحسنات الطفيفة في صحته تتلوها نكسات خطيرة . وكان هناك انطباع مبهم يحملني على الشعور بأن مهاما جساما سوف تدعوني الى بلادي في وقت أبكر مما هو متوقع . وانتهت (مهنتي كطالب) لتفسح المكان لمهنة أخرى تتناسب بصعوبة مع واقع كوني ما زلت قاصرا : ألا وهي مهنتي كملك للاردن . لأنه ، كما سبق لي أن ذكرت لك ، ليس ثمة مشكلة بالنسبة الي من هذه الناحية . فلأن أكون ملكا هو مهنة كغيرها شريطة أن يحب المرء عمله وأن يكرس نفسه بكليتها له ويقفها عليه مع سائر التضحيات التي يمكن أن يتطلبها هذا المنصب .



مهنتي كملك

لقد فكرتم آنئذ بأن حكم جلالة والدكم سيطول . . .

في سن الحادية والاربعين ، كان والدي قد منح بلاده كل ما يملك . فقد ولد في مكة المكرمة ، واكمل علومه في ساند هيرست ثم التحق بالجيش العربي الاردني كضابط احتياط . تقلد منصب قاض في محكمة العشائر بعض الوقت ، وتولى مرة أعمال نائب الملك أثناء غياب جدي . ما أعظم سعادتنا لو كانت حالة والدي الصحية قد أتاحت له أن يحكم مدة أطول . ولكن علامات خفية كانت تقلقني قلقا شديدا . ولقد استدعيتني أسرتي في أحد الايام للانضمام اليها ، ولم يكن الامر يتعلق سوى بصحة والدي ، وكنت أعرف أنه اذا ما وقع له أي مكروه ، فلسوف أضطر الى العودة . وكنت أخشى هذه اللحظة . لقد كنت أحب أسرتي وأحب بلادي ، ولكن كان لدي انطباع بأنني ما زلت غير قادر على تحمل مسئوليات حكم الاردن وخدمة شعبي .

يضاف الى ذلك أن تصرفات عدد كبير من الاشخاص الذين شاهدتهم يوم وفاة جدي قد أصابتني بخيبة أمل شديدة . فقد كنت أرغب في حياة طبيعية قبل فوات الاوان .

انتهت السنة الدراسية في هارو ، وعلى الرغم من أنني استمتعت بها كثيرا فقد كنت في حاجة ماسة الى الاجازة .

فذهبت فورا الى لوزان وأقمت في فندق بوريفاج على ضفاف بحيرة ليمان حيث وجدت والدتي التي كانت تتعالج وكذلك أخوي وشقيقتي . كانت الايام الاولى بهيجة رغيدة ، وكان صيف عام ١٩٥٢ جميلا لطيفا وهادئا في هذا الركن الصغير من سويسرا التي يخضع فيها كل شيء لنظام دقيق والتي كنت فيها على أحسن حال من الراحة والدعة .

مهنتي كملك

وفي صباح الثاني عشر من آب (أغسطس) ، ذهبت والدتي وجميع أفراد الأسرة للقيام ببعض المشتريات في ساحة القديس فرانسوا . كنت وحدي في غرفتي أمتع ناظري بمشاهدة الاوز الطائر على البحيرة وكانت تسعى نحو الميناء سفينة بيضاء اللون . قرع الباب ، فاذا بخادم فتى يقدم لي مظروفا موضوعا على صينية من الفضة . لم أكن في حاجة لفتحها لكي أفهم أن (هارو) لم تعد بعد الان بالنسبة اليّ الا ذكرى . لقد كان يكفي أن ألقى نظرة على المظروف . فقد كان موجها الى « حضرة صاحب الجلالة الملك حسين » . للمرة الاولى في حياتي أنادى « بصاحب الجلالة » كجدي ... ولم أكن قد بلغت السابعة عشر عاما .



مهنتي كملك

ماذا كان أول رد فعل لكم ؟

لا شيء . لقد بقيت هادئا جدا .

كانت الساعة قد بلغت التاسعة . ولم يكن الحر قد غلف المدينة بعد . فضضت الغلاف وأنا أتنهّد . كانت الرسالة صادرة من رئيس الوزراء . وبأسلوب دبلوماسي نموذجي ، وبلهجة تتسم بالفتور والادب ، أبلغني أنه يأسف لاعلامي أن والدي قد تنازل عن العرش وأنني قد غدوت منذ ذلك الحين ملكا للاردن . وأن القرار الذي أنبأني به قد أقره مجلسا النواب والاعيان وأن عودتي قد غدت مرجوة وفي أقرب فرصة . كانت هذه هي اللحظة التي كنت أخشاها لن أصبح أبدا طالبا بعد الآن . فهل أتمكن يوما من أن أعيش حياة طبيعية وأن أكون لنفسي حياتي الخاصة ؟

لقد كافح والدي بشجاعة للتغلب على مرضه ليس لمصلحته فحسب ، ولكن بشكل خاص لانه يعرف أن بلاده في حاجة اليه . ولقد انتقل خيالي في بضع لحظات الى آلاف الكيلومترات نحو الشرق حيث كان والدي يناضل بعزيمة اليائس لاتمام مهمته على خير وجه في عمان ، العاصمة التي تختلف كثيرا عن سويسرا التي أقيم فيها ، العاصمة السمراء بدلا من أن تكون خضراء ، العاصمة الثاوية على الجبال مع غبار شوارعها ، وجموعها ذوي الازياء المتباينة الالوان . لقد تخيلات بسهولة الاضطراب الذي كان سائدا في قصر بسمان . وفجأة فهمت بأنه لا حق لي بأن أتحسر على نفسي في الوقت الذي كان والدي يعاني من العذاب . ومن الصعب على المرء أن يتفهم من بعيد الوقائع المحزنة وكآبة الاحداث التي مرت بالامس . ولم أعرف ما جرى فعلا في الحادي عشر من آب ، الا فيما بعد . لقد كنت مقتنعا ، وكنا نعرف ذلك جميعا ، بأن حالة والدي الصحية لا تمكنه من الحكم مدة أطول . فالمرض عنده قد

مهنتي كملك

اشتد طوال السنة الماضية ، ولكن والدتي وأنا ، على الرغم من ذلك ، كنا نأمل في شفاء يتحقق بأعجوبة . كانت شعبيته عظيمة جدا . ولكنه قبل أن يعتلي العرش ، حينما كان يعلم أن مستقبله غامض الملامح . بعث ببرقية مؤثرة الى رئيس الوزراء قال له فيها بشكل خاص :

« انني أعود الى بلادي لأضع نفسي باخلاص تحت تصرفكم » .

في صباح الحادي عشر من آب (أغسطس) عقد مجلسا النواب والاعيان جلسة سرية استغرقت عشر ساعات . وكان الملك في القصر . وقد أعلن رئيس الوزراء السيد توفيق أبو الهدى في هذه الجلسة ، بوقار الرجل الذي يشعر بخطورة الموقف ، أن والدي لم يعد في مقدوره ممارسة سلطاته الدستورية .

« بالطبع انه ليشق على نفسي كثيرا أن أقول ذلك ، ولكنني أخشى أن لا يشفى جلالته من مرضه في موعد قريب » .

ثم عرض على أعضاء المجلس تقريرا طبيا عن حالة والدي الصحية ، أعده قبل شهرين طبيبان أجنيان ثم تقارير أخرى كتبها ثلاثة أطباء أردنيون .

يتضمن دستورنا مادة تنص على أنه في حالة عدم تمكن الملك من الحكم لأسباب مرضية ، يحق لمجلس الوزراء دعوة البرلمان الى الاجتماع . فإذا ثبت المرض وعدم الأهلية للبرلمان الحق في أن يخلع الملك وأن ينقل امتيازاته الملكية الى وريثه . وهذا ما حدث . فقد اتخذ القرار ، اذ قضى تصويت أقرته الاكثرية بوضع حد لحكم والدي . وهكذا بعد اقامة قصيرة دامت بضعة أشهر في هارو . غدوت ملكا للاردن .

ولما كانت حادثة سني لا تمكنني من ممارسة سلطاتي الدستورية فقد شكل مجلس وصاية من ثلاثة أشخاص خلال فترة غيابي .

مهنتي كملك

كان علي اذن أن أعود الى عمان على جناح السرعة . وضعت المظروف في جيبتي ، وبعد بضع دقائق ، كنت في ساحة القديس فرانسوا في قلب المدينة . فوجدت والدتي بعد بضع لحظات .

قلت لها : « لقد استلمت هذه البرقية » . وسلمتها اليها . فوضعت ذراعها على كتفي دون أن تتفوه بشيء ، وعدنا الى الفندق . جلست وراء مكتب من طراز لويس السادس عشر ، أخط رسالة لرئيس الوزراء أعلمه فيها بأنني سوف أعود فورا الى الاردن ، وأنني سوف يسعدني ويشرفني أن أخدم بلادي والقضية العربية . وبعد بضعة أيام كنا قد أعددنا حقائبنا ورجعنا الى عمان .

كانت عودتي الى الاردن بالطائرة . وكان الجو حارا بعد ظهر هذا اليوم . قدم لاستقبالني جمع غفير من الشخصيات . استعرضت حرس الشرف ثم صافحت حوالي العشرين من أعيان البلاد وكبرائها . وكان بينهم كلوب باشا . قائد الجيش العربي الاردني . لقد أحدث لي هذا الاستقبال الرسمي الودي الحار صدمة نفسية بمراسيمه الاحتفالية « لقد فكرت بأنني الان وقد أصبحت ملكا ، فلسوف لن يقترب الناس مني أبدا بدون هذه المراسم » . وغادرنا المطار الذي كان تحت المراقبة الشديدة . واتخذت السيارة وجهتها نحو عمان . ومنذ أن اجتزنا الضواحي ، صدمت أيضا وأنا أدخل المدينة . فقد شكلت قوات الجيش العربي حاجزا على طول الشوارع . وفجأة وجدت نفسي وسط جمهور يتأجج حماسة وهو يصيح ويغني ويصرخ : « عاش الحسين » « مرحبا بالحسين » . دون أن يكثر الا قليلا بالمراسم وبالمقتضيات الدبلوماسية . حتى أن بعضهم حاول ايقاف السيارة بالصعود على مراقبيها الجانبية . ولما عجزت قوات الجيش عن احتواء الجمهور ، انضمت الى هذه الجموع الحاشدة المبتهجة : كان الاستقبال خياليا بضخامته وحرارته . لقد كانت أوروبا وسويسرا الهائلة بعيدتين جدا عن

هذه البيوت الحجرية وعن هذه البوادي التي لا نهاية لها • لقد كنت في الطائفة أشعر بأنني وحيد مكدود القوى منخفض المعنويات • ولكن مخاوفي جميعها قد تلاشت وأنا في طريقي الى القصر • لقد سحرني هذا الجمهور وشدد من عزمي استقباليه المؤثر • وفي هذا اليوم أدركت أن الشعب لم يكن يعرب عن حماسه وفرحته فحسب • وإنما كان يرغب بشكل خاص أن يفصح عن مشاعر الود والتعاطف • وأن يجزل مظاهر التشجيع ملك شاب في السابعة عشرة من العمر • لقد كانت تجربة تلفت النظر بغرابتها وطرافتها • تجربة ممزوجة بالفرح والانفعال النفسي البهيج •

كان رئيس الوزراء الى جانبي هادئا غير منفعل • ولقد قلت له قبل أن نبليغ القصر :

« لا يستطيع المرء أن يحظى بهذا الاستقبال دون أن يعاهد نفسه ويعاهد الله على أن يبذل خير ما في نفسه لكي يستأهل هذه الثقة وهذا الايمان • وانني لأمل أن يدرك هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء انني سوف أنجز ما تعهدت به » •

لقد أرهقتني رحلتي جسميا ونفسيا • في هذه الليلة استسلمت للنوم كرجل غمرته السعادة • وفي صباح اليوم التالي نهضت موفور النشاط والقوة ومصمما على مواجهة أي عائق بحزم وعزم وفعالية •

لم أكن أعرف المهام التي ستوكل الي لانها كان علي أن أبلغ الثامنة عشرة من العمر ليتسنى لي ممارسة سلطاتي الدستورية • والى أن يحين ذلك الوقت كان مجلس الوصاية ينوب عني في هذا الامر • فقررت أن أنتهز هذه الفرصة لأستزيد من الاطلاع على أمور شعبي وأستكمل السيطرة على الصعوبات الفنية لحياتي الجديدة •

فقممت برحلة استغرقت ثلاثة أسابيع لأستوفي التعرف على

رعايائي • فزرت أهم المدن والقرى وقابلت آلاف الاردنيين • وذهبت سواء بالطائرة أو بالسيارة • الى أقصى أنحاء البلاد • لقد كان أمرا يبعث على الفرح والابتهاج أن أرى مدى الاخلاص الذي كان يكنه الشعب لي • ولقد حضرت مرة حفلة غداء قدم فيه المنسف في أحد مضارب البدو • كان هنالك مئات من الرجال والنساء يرقصون ويغنون ويطلقون الرصاص في الهواء ابتهاجا • وقد حملوني على مشاركتهم في احتفالهم • وقفت أمام بيوت الشعر السمراء التي كانت تبرز من الصحراء • وقلت في نفسي عندها بأن البلاد سوف تكون بخير ما وجد في الاردن أمثال هؤلاء الرجال •

انتهت هذه الرحلة الممتازة وبالإلحاح • ماذا أصنع ؟ انني رجل يشعر بالتعب ولا يتأثر به • انني لا أستطيع تحمل البطالة والتفرغ • وهكذا سنحت لي فرصة لتحقيق حلم قديم •

في صباح أحد الايام زارني خالي الشريف ناصر ورئيس الوزراء بدأنا نتحدث عن العادي من الامور • وأحسست أنهما يرغبان في مفاتحتي بأمر جدي • قدم لنا الخدم الشاي بالنعناع والتفت خالي عندئذ • وهو رجل محبوب لطيف المعشر نبه ذو فطنة وقال لي :

« هل تعتقدون يا صاحب الجلالة أنكم اذا ما بقيتم في القصر • سنستفيدون من وقتكم فائدة أكثر ؟ » •

فأجبته : هل لديك اقتراح تعرضه علي •

فرد قائلا : بالتأكيد • وانني أعرف بأن والدكم سوف يقدر اقتراحي حق قدره وكذلك جدكم نفسه فقد كان سيتمناه لو بقي على قيد الحياة •

وأدركت فجأة اقتراح خالي وقلبي يثب طربا • فقلت له : انك تريد أن تتحدث عن ساند هيرست •

فقال لي مؤكدا : نعم ان أباكم قد دخل هذه الاكاديمية وانني

مهنتي كملك

أذكر قوله بأن ساند هيرست أحسن مدرسة حربية في العالم وخير مكان يختاره الرجل ليتعلم مهنته كملك » .

وتذكرت عندها الكلمات التي قالها لي والدي قبل ذلك ببضع سنين ، عندما كنت ألعب بجنود من الرصاص أمامه .

« لا يستطيع المرء القيادة وإدارة الأمور إلا بالنظام . ولا يوجد مكان في العالم يحسن تعليم ذلك أفضل من ساند هيرست » .

وهكذا سنحت لي فرصة فريدة استثنائية ! انني أود أن أعطي خير ما في نفسي وأرغب في أن أتقدم أمام شعبي وأنا واثق تمام الثقة بنفسني وأن أرتقي العرش مستوفيا لأفضل الصفات والشروط الممكنة . لقد كنت ملكا حقا ولكنني كنت أبغي أيضا تمديد فترة شباب ، يفر مني ، بضع سنين أخرى . ان هذه الشهور القليلة في ساند هيرست ستكون بمثابة فسحة من الوقت أو راحة وقتية قبل عقد العمل الطويل الأمد الذي سوف أوقعه مع الأردن عندما أبلغ الثامنة عشرة من العمر .

اتصل كل من رئيس الوزراء والجنرال كلوب بوزير الدفاع البريطاني للتصريح لي بمتابعة تدريب خاص عاجل لمدة ستة أشهر . وهكذا بعد شهر من استلامي برقية فندق بوريفاج استبدلت لقبني كملك بآخر ، هو التلميذ الضابط حسين بالاكاديمية الملكية العسكرية في ساند هيرست . كان ذلك في ١٩ أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٥٢ ، وقد ألحقت بسرية انكيرمان أولد كوليذج غرفة رقم ١٠٩ .

مهنتي كملك

بماذا عادت عليكم اقامتكم في أشهر أكاديمية عسكرية بريطانية ؟ .

كانت ساند هيرست بلا أدنى شك تجربة غير عادية لأسباب شتى فقد ساهم هذا الفصل الدراسي القصير الأمد الى حد كبير مساهمة فعالة في تكويني الفكري واعدادي الشخصي كرجل . لقد كانت هارو وساند هيرست تجربتين متباينتين تماما . كنت في الاولى أعتبر فتى . أما في الثانية فقد عوملت كرجل . لقد عهد الي بمسؤوليات . وكانوا يستطيعون الاعتماد علي . صحيح أنه كان لا بد من العمل الدائب الموصول وكان على المرء أن يبذل من نفسه ما استطاع بدون حساب ولكن دروسي كانت تستهوي النفس . فنحن العرب من جنس يحب الاحتكاك بواقع الحياة القاسي ، ويحب بذل الجهد واستنفاد ما في الوسع . لذلك كنت كعربي أحب هذه الحياة كتلميذ ضابط ، وكان يستهويني هذا النظام العسكري والجو الدراسي في ساند هيرست .

في اليوم الاول ، رحب بي القائد وقدم لي بيانا سريعا بتقاليد المدرسة ، وتمنى لي أن أتمكن من استخلاص خير نفع وأحسنه ، ثم أهد النظر في عيني وقال لي :

« أود أن أمنحكم امكانية الاختيار . ان ساند هيرست مكان شاق قاس جدا فالرجال الذين يفدون اليها مجبرون على أن يشهدوا في العمل وأن يبذلوا ما في وسعهم من جهد ، أكثر من أي مكان آخر . فالحياة فيها شاقة متعبة . فهي تتطلب احتياطيا هائلا من القوة وكثيرا من ضبط النفس . فهل تعتقدون أنكم قادرون على احتمال هذه الشروط أم أنكم تفضلون اختيار معاملة تفضيلية ؟ » .

وأضاف :

مهنتي كملك

« انكم اذا ما اخترتم البرنامج الذي يتطلب المزيد من المشقة والتعب ، فلسوف تعاملون مثل التلاميذ الاخرين » .

وبديهي أنني اخترت الحل الاصعب لانني كنت مصمما على أن أستخلص منه أعظم الفوائد . ان مهنتي سوف أتعلمها هكذا ، عن أشق طريق وأقساه .

ان برنامجي العاجل قد جعلني أقوم بمناورات ومسيرات تزيد عما هو مقرر عادة . وقد اشتركت في حملات ليلية ، وفي تدريبات على استعمال الاسلحة الحديثة . وبذلت كل ما في وسعي لفهم الاساسي من العلم العسكري .

بعد شهرين من دخولي الاكاديمية ، استدعاني القائد من جديد فأقلقني هذا الاستدعاء لانني كنت راضيا عن عملي وعن النتائج التي حققتها والتي أعتقد أنها كانت على الاقل مرضية . وتساءلت عما يمكن أن أكون قد فعلته لكي أقابله للمرة الثانية ، وهو حدث نادر جدا في حياة طالب في ساند هيرست .

فتقدمت اذن اليه وأنا متوتر الاعصاب بعض الشيء . وهذا طبيعي . وحييته باحترام . فنظر الي بضع لحظات دون أن يتفوه بكلمة ، ثم قال لي فجأة :

« يا حسين ، انني جد راض عن عملك ، ولقد تتبعت تطورك الدراسي . وانا أعتقد أن الوقت قد حان لترقية درجتك ، فاذا ما وازبت بهذا الشكل فلسوف تجري ترقيةك الى رتبة ضابط بعد شهرين . استمر » .

ضاعفت من جهودي ، لانني لم أنس أن رفاقي اذا كان عليهم أن يصبحوا ضباطا أو حتى جنرالات ، فان قدرتي قد هيأني لأن أصبح بعد قليل قائدا أعلى لسائر القوات المسلحة في بلادي . لذلك فان من واجبي أن أطلع على كل الموضوعات العسكرية لكي أحول

مهنتي كملك

دون . (تأثير) ضباط الجيش العربي الاردني علي بسهولة .

لقد كنت أعرف أيضا أن النظام العسكري في ساند هيرست لم يكن شيئا بالقياس الى النظام الذاتي الذي يتوجب علي اكتسابه اذا ما أردت فيما بعد أن أستقر فوق عرشي .

ولعل المظهر الذي تجدر ملاحظته في أكاديمية كساند هيرست ، هو أنه اذا كان النظام فيها دقيقا وصارما والعمل شاقا ، فان الخدمة فيها عندما تنتهي ، تتلاشى معها الهموم والمشاكل جميعا .

عندما يعرف موعد الاجازات ، يكون لدينا فترة فراغ لعدة ساعات وكانت بعض اجازاتي محض وهمية ، لانهم كانوا يعرضون علي خلالها امكانية التخصص في موضوعات أخرى . ومن حين الى آخر ، كانت النتيجة غير متوقعة . مثلا اتصالي الاول بمحكمة جنايات .

كان الكثير من الوقار يخيم على هذه الجلسة التي تابعتها باهتمام بالغ على يسار قاض صارم عابس ، في أولد بيلى . كان يلتفت الي بلطف من وقت الى آخر ، ليشرح لي النقطة التي كانت تبدو معقدة . وكانت الامور تسير بصورة عادية ، ثم اشتد الجو في الجلسة حدة ، خاصة لان القضية التي كنا نبحثها كانت مؤثرة بشكل خاص . وساد صمت عميق . وكان جميع الحضور ينتظرون قرار المحكمة . وفجأة رن في القاعة صوت مخنوق لجرس ساعة ذات منبّه .

انني ما زلت أتصور وجه القاضي . كان أحمر من الارتباك تحت شعره المستعار ، وقد رفع المحامون أعينا تنم عن استهوال ما حدث ثم رشقوني بنظرة باردة ، فقلت متلعثما بعض كلمات الاعتذار للقاضي وأنا أحاول ايقاف ساعتني التي كانت احدى أجمل ما أملك من متاع . ثم بعد عودة الهدوء ، نظرت خلسة الى ساعتني

مهنتي كملك

التي كنت أضبطها على موعد النهوض من النوم • كانت تشير الى الحادية عشرة والنصف • وما من شك في أن بعض الطلاب الذين كانوا يعرفون بأن علي أن أذهب الى محكمة الجنايات ، قد لعبوا معي هذه اللعبة الماكرة ، بينما كنت أستحم • وطافت في ذهني باستمرار فكرة الاخذ بالثأر • وحانت الفرصة بعد فترة وجيزة •

يملك كل تلميذ في ساند هيرست دراجة لتسهيل تنقلاته من مكان دراسته الى آخر • وكان علي يومئذ أن أشهد محاضرة حول العلوم العسكرية ، عندما لاحظت أن اطار دراجتي مفرغ الهواء • لا ريب أن أحدا قد فعل ذلك ، الامر الذي حملني على الذهاب الى المدرج راكضا • فبلغته متأخرا •

حاولت بعد انتهاء المحاضرة أن أكتشف المذنب ولكن دون جدوى فانتظرت حتى أقبل الليل ، ثم خرجت من غرفتي سرا على أطراف أصابع رجلي ، وتحت جناح الظلام ، أفرغت اطارات عشر دراجات من هوائها ، بعد أن احتطت لدراجتي ، فأودعتها وراء غرفة الحراسة • ولعلمهم شكوا في أمري • ولكن أحدا منهم لا يملك أي برهان •

لقد وقع علي قصاص الحجز مرة واحدة ، فاستطعت أن اتدبر الامر لرفع القصاص ، بأن اعترفت بخطيئة لم أرتكبها !

وقعت الحادثة في يوم جمعة ليلا • كنت غائبا عن ساند هيرست لأنني كنت أحتفل بعيد ميلادي ، وأمضيت الليلة في لندن • كان ذلك في نهاية الدورة ، وكان الطلاب يحتفلون بهذا الحدث ، بالتظاهر بخوض معركة • حرك طالب ، اما عرضا ، أو متعمدا ، جهاز انذار الحرائق ، فأثار ذلك فوضى لا توصف • فقد وصل رجال الاطفاء خلال بضع دقائق الى مكان الحادث • كانوا على استعداد للعمل وهم يعتمرون الخوذات ويلبسون الجزمات • ولم ينقص سوى النار ! كان ذلك أكبر فضيحة عرفتھا ساند هيرست

مهنتي كملك

منذ مدة طويلة • وكان القائد صاحب اللون من الغضب • عدت اذن في ساعة متأخرة من الليل بعد أن وقعت على ورقة الوصول • كان رجال الاطفاء قد انصرفوا وكانت ساند هيرست مستسلمة للرقاد • كل شيء كان يبدو طبيعيا • لم يكن لدي أي شعور مسبق بما كان ينتظرنا •

بدأ العرض العسكري الصباحي ، تلاه طعام الافطار ، ثم الدروس الاولى • كل ذلك حدث على التوالي • وكان الجو متوترا في يوم السبت هذا • كان على غالبيتنا أن تذهب في اجازة • وقد أعد كل فرد منا مشروعاته الخاصة • عند الظهر فسدت الامور • فقد أنبئنا بأن القائد سوف يستعرض طلاب المدرسة في الساعة الواحدة بعد الظهر • كان وجهه صارما • وعندها وجه الينا هذا السؤال :

« على من حرك جهاز الانذار أن يتقدم خطوة الى الامام » •

ولكن كلماته استقبلت بالصمت • لم يتحرك أحد • فانتظر قليلا كان يبدو أن الغضب قد استبد به ، ولكنه كان يحاول أن يتمالك نفسه ، ثم عاود القول :

« على من حرك جهاز الانذار أن يتقدم خطوة الى الامام » • ولكن الجواب لم يأت • عندئذ قال :

« حسن • تلغى جميع الاجازات • انكم محتجزون في المبنى هذا المساء الى أن يكشف المذنب نفسه • انصرفوا أيها السادة » •

لم يعرف المذنب أبدا • ولم يدل أحد على نفسه • فكرت بأن هذا الموقف ظالم بالنسبة لامثالي من الطلاب الذين كانوا غائبين عن الكلية أثناء وقوع الحادث • ولا يمكن في أية حال أن يعتبروا مسئولين •

في صباح الاحد كنا مازلنا ننتظر • وعندما أقبلت فترة بعد

مهنتي كملك

الظهر كان من البديهي أن أحدا سوف لن يكشف عن نفسه .
فقررت . أنه لابد من العمل . فالتمست مقابلة من القائد . ولبست
أجمل بزاتي العسكرية . واستقبلني القائد بعد فترة قصيرة .
دخلت الغرفة وأغلقت الباب وحييته أجمل تحية وقلت :

« طاب يومكم يا سيدي القائد »

فأجابني : « طاب يومك . ماذا حدث يا حسين ؟ »

فأطلقت من فمي عبارة : هو أنا .

— هو أنت ماذا ، عم تتكلم ؟

— لقد قرعت جرس الانذار يا سيدي القائد .

— ماذا تريد أن تقول ؟

— فكررت بالحاح ، بأنني أنا المذنب ، أنا الذي حرك جهاز الانذار .

— هل أستطيع أن أسألك يا حسين كيف استطعت تحريك جهاز
الانذار بينما كنت غائبا عن ساند هيرست ؟

— فأجبت « هذا ما كنت أبغي ايضاحه يا سيدي . هناك عدد
آخر من الطلاب الذين كانوا غائبين مثلي أثناء وقوع الحادث » .

ولقد خشيت برهة أن يحمل ما فعلته على محمل سيء ، ولكنه
تبين لحسن الحظ ، الجانب الهزلي المزاحي من الامر .

لقد أتى (اعترافي) ثماره . كان ذلك نصرا لكل الطلاب الذين
كانوا غائبين والذين ألغيت عقوبتهم .

كانت لي أسبابي الخاصة لمغادرة الكلية . فقد كان علي يومئذ
أن أجرب سيارة جديدة من طراز (أوستن مارتين) على طريق
السباق في جودوود . لقد غدت سيارتي الجديدة شعبية جدا في
ساند هيرست لا سيما عند الذهاب في اجازة آخر الاسبوع حيث
كانت تستخدم بمثابة سيارة ركوب لزملائي الطلاب .

مهنتي كملك

كيف أمضيتكم شهوركم الاخيرة في ساند هيرست ؟

طوال اسابيع ، كنت أخشى اللحظة التي اعين فيها عريف خفر
وهذا يعني أنه خلال فترة اسبوعين كان علي أن أنهض من فراشي
في الخامسة صباحا وأن أعد قائمة المرضى ، وأن أجمع البريد
وأوزعه ، وأفتح المكاتب الخ . . . ولا سيما أن أكون جاهزا في أية
لحظة خلال النهار لمجابهة أية مشكلة .

ولعل من يمن الطالع أن الخدمة لم تدم طويلا . فقد نبئت في

مساء أول يوم من مصدر غير رسمي أن العرض الصباحي قد
ألغي بالنسبة لليوم التالي . وبذلك يستطيع الطلاب اذن أن
يتصرفوا بساعة اضافية ، جميعهم ، ما عدا الحسين ، اذ كان
علي أن أنهض فعلا في الساعة الخامسة صباحا .

لم يخبرني أحد رسميا بهذا التغيير ، وكجندي صالح مثالي ،
لا يجوز لي أن أطيع الا التعليمات الرسمية . في الساعة السادسة
وأربعين دقيقة ، أنهيت عملي المكتبي . وكان علي أن أوقف
سريتي . فذهبت اذن الى المهجع . وجعلت أذرع الاروكة وأنا
أصيح وأدق الارض برجلي : « الساعة السادسة وخمس وأربعون
دقيقة ، انهضوا يا أفراد سرية انكرمان . لقد حان الوقت . دعوا
الاسرة جميعا » .

استقبلتني موجة من الشتائم ، ولكنني تجاهلتها بوقار وريانة
وواصلت اصدار تعليماتي بصوت عال ، حتى الساعة السابعة
وعشر دقائق ، الا أن موجة الشتائم تحولت الى طوفان من
التجاديف والكفر ، تلاه زخات من المقذوفات المختلفة . طأطأت
رأسي لتفاديها وتراجعت نحو الباب . لم يوقظ صوتي الضخم
القوي سريتي فحسب ، بل السرية المقيمة في الطابق الاسفل

مهنتي كملك

والنقيب خفر فيها الذي استدعاني بعد تناول طعام الفطور ، ورشقني بنظرة ببرودة الثلج ثم قال لي بلهجة ساخرة : « يا حسين ، من الواضح أنك قد أوفيت على الغاية في قيامك بالواجبات التي عهدت اليك ، فلم تعد في حاجة الى تعلم أي شيء كعريف خفر بعد من الآن الى نشاطاتك العادية » .

لم أعد أحتاج الى النهوض في الساعة الخامسة صباحا . لقد أفادتني إقامتي في ساند هيرست فائدة كبرى ، فتعلمت خلال هذه الاشهر القليلة طائفة من الامور ، لا سيما استخدام الدراجة النارية التي كانت منذ عهد بعيد شائعة في انكلترا . ومع ذلك فقد قادت دراجة نارية في أحوال جوية سيئة قبل انتهاء الدورة وقبيل العرض العسكري ببضعة أيام . اذ كنت أحاول القيام باجتياز منعطف بسرعة فائقة . فزلقت الدراجة ومرت فوق جسمي . حاولت النهوض وأنا أشعر بالألم شديد في ذراعي الايسر . ولم أجروء على البوح بذلك خشية أن أسجل في قائمة المرضى فأحرم من امكانية المشاركة في العرض العسكري الختامي . في نهاية الفصل الدراسي تفاقم الألم . وفي صباح اليوم المحدد للعرض العسكري اتضححت حالتي للنقيب خفر فقال لي :

« يا حسين انك لن تستطيع الصمود وانت في هذه الحالة . سأحمل اليك شيئا يعيد اليك نشاطك . انه مزيج خاص سوف لن أقول لك ما هو ، ولكنني كفيل بأنه سيجعلك تتحمل المشقة أثناء العرض العسكري » .

ولقد احتملتها حقا ، ولكن ذراعي ساءت حالها أكثر مما كنت أعتقد .

بعد أن غادرت ساند هيرست ، قمت بجولة في انكلترا وويلز واسكتلندا بصحبة خالي الشريف ناصر ، ولكن الألم أصبح لا يطاق كلما أوغلنا في الطريق فاستدعيت طبيبا . وتبين أنني كنت

مهنتي كملك

مصابا بأنفجار في الاوعية الدموية . فوضع ذراعي في الجص فورا . « قال لي الطبيب : سوف تبقى ذراعك في الجص مدة شهر كامل » . كانت ذراعي تضايقني جدا وهي معصوبة هكذا . لقد عملت بهمة لا تعرف الكلل طوال ستة أشهر . وكنت تواقا الى الانتفاع باجازتي الى أقصى الحدود . لذلك ، بعد ساعة ، أمسكت بمقص وساعدني خالي على خلع ضماد الجص .

وهكذا انتهت « مرحلة ساند هيرست من حياتي » .



مهنتي كهلك

عندئذ بدأت فعلاً حياتكم كهلك ***

نعم كان لي من العمر سبعة عشر عاماً ونصف في الثاني من أيار عام ١٩٥٣ عندما بدأت ممارسة سلطاتي الدستورية . وفي اليوم نفسه في بغداد، باشر ابن عمي فيصل ولايته الملكية أيضاً . عندما أقسمت اليمين أمام مجلس الأمة ، كان قد انقضى عام على تنازل والدي عن العرش .

كانت يومئذ تتدلى الاعلام من النوافذ في أهم شوارع عمان حيث أقيمت أقواس النصر ، من القصر حتى مجلس الأمة . في الصباح الباكر من هذا اليوم ، كان آلاف الناس يملأون الطرقات بانتظار مروري .

استيقظت في وقت مبكر . ومكنت بضع لحظات في السرير . كانت تراودني رغبة في أن أبقى وحيداً مع أفكاري . كان هذا أهم يوم في حياتي : كان سيعهد اليّ بمسئولية قيادة بلادي وخدمتها . لقد ساءلت نفسي عما اذا كنت أختلف اليوم عني بالأمس . « فكرت أنني بالأمس كنت لا أستطيع أن أقرر في أي شيء مهما كان . وأصبح عليّ منذ الآن ، أن أتخذ أخطر المقررات وأوثقها صلة بحياة الاردن ومصيره » .

لم أتناول الا القليل من الطعام لشدة توتر أعصابي . كان لديّ لباس عسكري جديد خيط بقماش ثقيل أبيض اللون للصيف ، وأزرق مائل الى السواد للشتاء . وعلى كتفي ثبتت حاملات رتب ذهبية . في الساعة التاسعة كنت مستعداً . بعد نصف ساعة غادرت قصر بسمان متوجها الى مجلس الأمة . كان الحرس يتألف من كوكبة من فرسان الحرس الملكي ومن مجموعة من راكبي الدراجات النارية المسلحين .

مهنتي كهلك

كانت السيارة تسير ببطء وهي محاطة بالجماهير المبتهجة . وكان الجيش يحتوي بصعوبة هذه الامواج البشرية . وكنت أعرف أن عليّ أن أبدي الكثير من ضبط النفس . ولكن لا بد لي من الاعتراف بأن الانفعال والتأثر كانا يعتصران حنجرتي . وأخيراً بلغنا مجلس الأمة .

كان الجميع هناك : رئيس الوزراء ومجلس الوصاية وأعضاء الوزارة كانوا جالسين على يساري . وأخي الذي يليني في العمر ، وخالي وكبار الضباط كانوا جالسين على يميني . أعرب رئيس الوزراء ورئيس مجلس الاعيان عن تمنياتهما لي بولاية ملكية سعيدة مزدهرة . ونهضت بعدئذ لأقسم اليمين التالية : « أقسم بالله بأن أحافظ على الدستور وأن أخلص للأمة » . وانني أعتقد بأنني لم أحنث أبدا بهذا اليمين .

بعد أن أقسمت بيمين الولاء ، أطلقت المدافع مائة طلقة وطلقة . ايذاناً للشعب بارتقائي العرش . ثم ذهبت الى المسجد للصلاة ، وتوجهت الى ضريح جدي فأنصت أمامه وقرأت الفاتحة على روحه ، وقمت بعدئذ بزيارة والدتي ، فقبلتني وأعربت لي عن شديد اعتزازها وبالفخرها بولدها . وأسرت لي بما تعلقه علي من آمال ، ثم أضافت :

« لا تنس أبدا هذا اليوم يا ولدي . تذكر عند مجابهة الصعوبات التي سوف لن تتأخر عن الظهور ، كيف أن الشعب الاردني قد كشف لك عن مدى ولائه وحيه وثقته . فعليك أن لا تسمح بأن تدبر رأسك المسئوليات والسلطة . سدد الله خطاك يا ولدي » .

وما كان ذلك سوى أول مظاهر تعلق شعبي بشخصي . بعد مرور بضعة أيام استقبلت من جديد في ميدان الطيران بعمان ، بالتشجيع الحار . كان حوالي مائة الف شخص قد اجتمعوا في هذا اليوم لمشاهدة العرض العسكري لأكثر من خمسة آلاف جندي من الجيش

مهنتي كملك

العربي • وبينما كنت أستعرض الجنود ، لم أستطع أن أتمالك نفسي ، من ملاحظة التفاوت بين ما يجري هنا ، وما عرفت في ساند هيرست ، ومن التنبيه الى التناقض المؤثر بين القديم والحديث : مدافع الميدان والمدرعات كانت تسير في تشكيلة متقنة وهي تتبع كتيبة حرس البادية التي تمتطي الجمال • وفي نهاية الاحتفال ، صرحت معلنا على الملأ لأول مرة ما سيكون عليه الخط الموجه لحكمي : « ان الاردن لعلى قناعة تامة بالاخوة التي تربط بين شعوب الامة العربية العظيمة • وان الاردن ليس الا جزءا من الامة العربية والجيش العربي الاردني ما هو الا أحد الجيوش العربية » •



مهنتي كملك

كيف تكيّفتم مع مسئولياتكم الجديدة ؟

يتدخل الروتين كثيرا في عمل الملك • فمنذ مطلع حكمي ، كنت أذهب في كل صباح الى مكتبي في قصر بسمان ، كأني عامل آخر ، فلا أغادر القصر الا بعد اتمام عملي •

أما نشاطاتي فمتنوعة للغاية • اذ أخصص جزءا كبيرا من وقتي لاستقبال الناس من جميع الطبقات • وفي فترات منتظمة يزورني رؤساء العشائر • الجميع يلاقون مني كل ترحيب • أما الاعمال الروتينية فمن اختصاص رئيس الديوان الذي يقوم بدور الوسيط بيني وبين الحكومة •

أما بالنسبة لطلبات المقابلة فان رئيس التشريفات يتولى عملية الاختيار بينها • ولكن منذ أن أصبح مكتبه مجاورا لمكتبي ، غدا بإمكان أي كان أن يدخل الى القصر لالتماس المقابلة ، أو الاتصال هاتفيا لهذه الغاية •

على كل حال عندما ترفض المقابلة ، يكون السبب الوحيد في ذلك ، هو أن برنامجي اليومي يكون مثقلا بأعباء العمل ، الى الحد الذي لا أعرف فيه من أين أبدا •

يبدأ نهاري عموما في الساعة الثامنة والنصف صباحا ، وينتهي نادرا قبل الثامنة مساء • أستقبل بانتظام رئيس الوزراء ورئيس التشريفات واثنين أو ثلاثة من الوزراء • والسفراء المعتمدين وكبار قواد الجيش والطيران وأساتذة الجامعة وأعضاء مجلس الامة • وغالبا ما أتحدث بايجاز مع عدة زوار • وعليّ أن أوشح الكتب بتوقيعي أو أن أدرس الوثائق المعروضة عليّ • وعندما أغادر مكتبي يكون الوقت متأخرا •

لقد كتب الكثير من السخافات حول البذخ والترف المزعومين في قصور العالم العربي ولا سيما حول قصري بالذات ، ولا بد من تصحيح هذا الخطأ ، ورد الأمور الى نصابها ، ذلك لان معظمنا من سلالات بدوية معروفة بالفقر ، اننا نعيش عيشة جد بسيطة ، وانني لا أملك ثروة شخصية ولسوف لن أمتلك هذه الثروة أبداً .

ان القصر الملكي ليس ملكاً شخصياً لي بالطبع ، أنه من ممتلكات الحكومة ، وهذا ما يفسر كون طرازه مجرداً من الطابع الشخصي ، وتقيم الاسرة المالكة في ثلاثة قصور ، شيد القصر الاول جدي عندما وفد الى الاردن للمرة الاولى ، ويسمى رغدان ، كما أن جدي هو الذي بدأ في انشاء قصر بسمان الذي أعيش فيه الآن ، ولكنه لم يسكنه أبداً ، أما بقية أفراد أسرتي ، فيقيمون في قصر زهران ، وهذه المساكن صغيرة وبسيطة ، ولا تقارن في أية حال بالقصور الموجودة في أوروبا .



كيف يستطيع ملك أن يكون قريباً من شعبه ؟

خلال السنين الاولى من ولايتي احتملت الكثير من المتاعب والمصاعب في سبيل التقرب من شعبي وفهمه ، لقد كنت شاباً صغير السن ، وكان مستشاري راغبين في تنظيم أسلوب حياتي ، وكان ذلك عكس ما كنت أبغي وأتمنى .

كيف أستطيع أن أكون ملكاً صالحاً خيراً مثالياً ، اذا كنت لا أعرف رعاياي جيداً ، لقد كنت من أجل مقابلتهم والاجتماع بهم في عجلة من أمري ، لا سيما الرعايا الذين اتخذوا من البادية مسكناً ومقاماً ، فحياتهم كانت مختلفة تماماً ، لقد كنت ملكهم ، وبالقرب منهم كنت أشعر بأنني لست وحيداً لانهم يعتبرونني كأني واحد منهم ، ما كنت في نظرهم سوى « الحسين » ، بلا مراسم ولا تشريفات ، ولكن تقاليد بدوية صميمة تقوم على ثلاثة مبادئ هي معاني الشرف والشجاعة والضيافة ، فرجل الشرف هو الذي يتمسك بشدة بقوانين الضيافة ، فكل ما تملك ملك لضيوفك ، وحتى عدوك الذي يبلغ مضارب عشيرتك يغدو من حقه أن يحتصل على الماء والخبز .

لقد كانوا أثناء زياراتي لهم ، يشرفونني بالرقص والغناء من أجلي ، وكلما ورد اسمي في أغنية ، كانوا يحيونني باطلاق الرصاص في الهواء ، ثم أجلس فتقدم اليّ القهوة ، ويرتجل زعيم العشيرة خطبة الترحيب التقليدية ، وهذا ما كان يعتبر من مظاهر الادب ، وعندما تبسط موائد الطعام ما كان يحق لأي فرد في العشيرة وحتى لزعيمة أن يتناول الطعام ، ما دام الضيوف لم يفرغوا من طعامهم ، انني أحب هذه الحياة التي تغاير وقار البلاط وانني لأتعاطف تعاطفاً شديداً مع حاجات العشائر البدوية ، فعلى الرغم من أنها تعيش في العوز والاملاق ، فان على المرء أن يبذل

مهنتي كملك

أقصى ما في وسعه ليتمكن من اكتشاف ما هم في حاجة إليه ، لان كبرياءهم وعزة أنفسهم تمنعهم من طلب العون . ومن الطبيعي وهم يرونني بينهم أن يعرض علي أفراد العشيرة شكواهم . ولكن رغباتهم ومطالبهم هي من التواضع والبساطة والقناعة الى احد الذي يجعلني أستجيب اليها حالا . أحدهم في حاجة الى العمل ، وآخر الى المعالجة الطبية ، وهم جميعا يفتقرون الى المدراس والمستشفيات والى تزويدهم بالماء . انني أحب هذه البساطة التي يتوجهون بها اليّ ، فهي تعني انهم يعتبرونني زعيمهم ورئيسهم وقائدهم .

لقد حاولت بنجاح أن أوطن القبائل البدوية ، وأن أضع حداً لحياة الارتحال والانتقال التي يحيونها ، وهم يبحثون عن الماء والكسأ . وقد قمت من تلقاء نفسي باعداد وتنفيذ برنامج مساعدة ومعونة يؤمن لهم مساكن عصرية حديثة ومياه جارية طوال السنة ، وهذا هو أساسى في بلادنا .

هذه الاشهر الاولى من الحكم لم تكن هيئة ليّنة . فقد كنت أتعلم مهنتي كملك بممارسة العملية شخصيا . من أي وجه يجب أن تؤخذ الامور ، وبأية طريقة تنبغي معالجتها . في الثامنة عشرة من العمر ، تنقصك الخبرة عموما ، يضاف الى ذلك أن المرء عندما يكون ملكاً ، فان من النادر أن يكون رأي الآخرين فيه موضوعياً .

ولكن أحيانا ، حتى بالنسبة لملك ، فان مصدر التشجيع قد يكون غير متوقع . فقد زرت يوما قرية صغيرة هوجمت من قبل اسرائيل . وأمضيت الليل فيها . كان القمر في قبة السماء وكنت أقوم بنزهة قصيرة بمعزل عن الآخرين لاستنشيق هواء الليل البارد المنعش ، فسمعت أصواتا هامسة تنبعث من خيمة . عندها بلغت مسامعي جملة واضحة ، فاستولى عليّ شعور قوي بالاعتزاز والامتنان عندما قال بدوي لا أعرفه :

« لو كان الملك عبد الله حيا لكان فخورا بحفيده » .

مهنتي كملك

ومع ذلك كنت أعرف أن أبناء البادية لا يشكلون سوى جزء من شعبي . وكنت أود معرفة رأي أبناء الحضر . انني لم أدع فرصة تفوتني للاختلاط بسكان المدن وكنت في المدرسة أشعر بأن الطبقات المتوسطة تجتذبني . وكنت أرغب في مزيد من المعرفة بأحوالها وسأروي لك هذه القصة التي سوف تستمتع بها بالتأكيد ولكنها تشير الى مقدار حبي للاستطلاع وميلي الى استكناه الامور في ذلك الوقت .

بينما كنت في احدى الليالي وحيدا في القصر ، انتويت أن أتذكر لكي أتجول بحرية بين السكان . ولكن كيف السبيل الى تحقيق خطتي ؟ وبديهي أنني ما كنت لأستطيع اطلاع حاشيتي على نيتي ، خشية أن أثير قلقا في غير محله . فخطر لي أن أتكر بلباس سائق سيارة تكسي . وكان الحي الاكثر دلالة ، يقع بين عمان والزرقاء ، وهي منطقة عسكرية على بعد حوالي ثلاثين كيلو مترا من العاصمة ، ولكن بالنظر الى أن الليالي باردة في الصيف من جراء ارتفاع المكان ، فقد تدرت بمعطف وأخفيت رأسي ووجهي بلثام (شماغ) فبدوت في شكل لا يمكن أحداً اطلاقا من التعرف عليّ وعلى كل حال ، كل امرئ يستطيع أن يجعل من نفسه سائق سيارة أجرة . طوال ليلتين متتاليتين كنت أغادر القصر في الساعة الثامنة مساء وأنا أقود سيارة فورد قديمة خضراء اللون وذات رقم عمومي . وكنت أعود في حوالي منتصف الليل متجنباً رقابة الحرس الذين كانوا يعتقدون بأنني كنت أطلع في مكتبي . طوال ليلتين كنت أقود سيارتي التاكسي على طريق الزرقاء فتعلمت أمورا لا حد لها . انه لعجيب حقا مدى ما يستطيع الناس أن يقولوه في سيارة تاكسي ، الامر الذي يحمل على الاعتقاد بأنهم لا يعيرون انتباهها لوجود السائق .

لقد كنت دوما أحب التحدث الى الناس الذين ينتسبون الى مختلف الطبقات الاجتماعية والذين لا يعرفونني . وانني لأذكر مرة كيف أنني كنت متجها نحو مدينة جرش فصادفت بدويا يحمل

مهنتي كملك

كيسا ثقيلًا من الخضار فأومأ اليّ • فتوقفت وهو يتصور أنني سائق تكسي • بعد أن وافق على الاجرة ، صعد الى السيارة فسألته عندئذ عما اذا كان الموسم جيدا في هذه السنة وبماذا يبشر المحصول ؟

فأجاب : « بفضل الله والملك الموسم رائع » •

وسألته : ما رأيك في الملك حسين ؟ لقد سمعت الناس كثيرا ما تتحدث عنه ، أي نوع من الرجال ؟ هل هو ملك صالح ؟

فأجاب : انه بعد الله رائدنا ومرشدنا الاكبر • أنه يحمينا

ويمنحنا كل معونة نحتاجها • اننا نحبه كثيرا •
قلت : انني لست متأكدا تماما مما تقول •

فغضب البدوي وصاح فيّ : « اذا ما تجرأت أن تتفوه بمثل هذه الأكاذيب على مليكي ، فأسوف أضربك ... حتى يسيل دمك » •

لحسن الطالع ، في هذه اللحظة كان الحرس الذين كنت قد تعمدت التناهي عنهم ، والذين كانوا يجدون في أثري منذ نصف ساعة ، قد أدركوا سيارتي • وهكذا نجوت من مأزق حرج !

خلال السنين الاولى من ولايتي قمت برحلات عديدة الى الخارج • وبذلت المستحيل لاقامة احسن العلاقات الممكنة مع الشعوب العربية الشقيقة • فزرت بشكل خاص المملكة العربية السعودية لمقابلة الملك بن سعود • كان ذلك قبل وفاته بقليل • ولما كان مريضا لا يستطيع المشي • فلکسي يتمشى في أروقة قصره التي لا نهاية لها ، كان لا بد له من مقعد متحرك •

جاء يوما لزيارتي في أحد القصور التي كنت أقيم فيها ، في مقعده المتحرك ، وبرز فجأة خادم يدفع أمامه مقعدا متحركا آخر • ثم يتفوه أحد بكلمة • كان يدفع المقعد المتحرك نحوي بلباقة وأدب

مهنتي كملك

فقلت « هل أستطيع أن أعرف ماذا يجري اذا سمحتم ؟ » • فقال أحدهم : « هذا لجلالتكم » •

قلت : « أشكرکم بالغ الشكر • ولكنني أفضل أن ألث واقفا وأن أسير قليلا • ثم أدركت فجأة المقصود من ذلك • فالبروتوكول يستلزم من الملك أن لا يمكث واقفا بينما يكون محدثه جالسا •

كان علي أن أجلس على المقعد • فجلست اذن وسرت بجانب الملك • وكنت وقتئذ أفضل ألا تقع عيناى على النظرات الباسمة لمراقبي العسكريين •

مضت الاشهر والسنون هادئة ، ملأى بالجهد والكد والعناء • تعلمت خلالها الكثير من الاتصال بشعبي ومخاطبته • أما التوتر مع اسرائيل فلم يتوقف بل غدت الصدامات وحوادث العنف أكثر خطورة منذ عام ١٩٥٥ •

وأما ما تعلق بحياتي الخاصة ، فقد جرى حدث هام : في التاسع عشر من نيسان (ابريل) ١٩٥٥ تزوجت الشريفة دينا عبد الحميد وهي ابنة عم لي بعيدة القرابة ، من السلالة الهاشمية المقيمة في القاهرة • كانت جدّ ذكية ومتخرجة من جامعة كامبردج وتكبرني ببضع سنين • في البداية كنت شديد التفاؤل لفكرة انشاء أسرة • وفي السنة التالية عندما ولدت ابنتي عالية ، كنت أسعد الناس في بلادي •

ولسوء الحظ مني هذا الزواج بالفشل الذريع • وعلى الرغم مما بذلته من جهود ، وعلى الرغم مما استنفدناه معا من وسع ، فقد اتخذنا القرار بانفصالنا • كان الوضع غير قابل للاستمرار • فأصبح من المرغوب فيه أن نضع حدا له • لقد كانت لحظة صعبة الاجتياز • وقد أثار طلاقي الكثير من النقد • وهكذا بعد ثمانية عشر شهرا من زواجنا ، رحلت عني وذهبت للاقامة في القاهرة •

مهنتي كملك

هل في هذه الفترة بدأت هوايتكم للطيران ؟

لقد كنت دوما مولعا بالطيران ، عندما كنت صغيرا ومقيما في عمان ، كنت مشغولا بهوايتين : التصوير الفوتوغرافي والطائرات كان لديّ منها جميع النماذج المصغرة : أحدث أنواع الطائرات المطاردة ، والقاذفات ، وسائر نماذج طائرات الركاب . وعندما كان يحل المساء في بيتنا في جبل عمان ، كنت ألصقها في مجموعة (ألبوم) . ومع ذلك فأنني اذا ما كنت مولعا بالطيران ، فليس ذلك يعود بالطبع الى حبي للسرعة او الى أن الميكانيك يثير اهتمامي ، بل لأن للطيران بالنسبة اليّ معنى أكثر عمقا .

كنت عندما أصعد الى الطائرة ، تتلشى سائر همومي . فاذا ما حلقت في الجو تبددت من ذهني مشاغل العرش ومشقات العمل التي تلازمه . لانني أكون عندئذ وحدي .

عندما أقلع بالطائرة ، أتنفّس الصعداء شكرانا وعرفانا وأشعر بأنني سيّد مصيري . ان جمال الطيران عالياً في السماء ، يرمز دائما بالنسبة الي الى صورة الحرية .

على الارض تكون مهامي عديدة . انني باخلاص وصدق أجد بعضها شديدة الرتابة مملة . لقد كنت دوما أتولى أشق المسئوليات والمهام وأثقلها عبئا . وفي أوقات الازمات كنت أعمل حتى أثناء الليل . منذ بلوغي الثامنة عشرة وأنا أستشعر الحاجة الملحة الى الانفلات من حقائق العالم الواقعية ولو لفترة ساعة . فكان الطيران وسيلة الخلاص والسلامة .

كنت أبغي أن أمارس مهنتي على طريقتي الخاصة وأن أعيش الحياة التي أرغبها . لقد دقّت الساعة مبكّرة بالنسبة الي . فقد أصبت بخيبة أمل عميقة عندما اضطررت لأن أتحمل مسئولياتي

مهنتي كملك

كملك وأنا حديث السن معدوم الخبرة . لقد حاولت أن أثقّف نفسي الى أقصى الحدود ، بالتعلّم يوما بعد يوم وسنة بعد سنة ، أسس المهنة وقواعدها . عندما تقع على عاتق المرء مسئوليات جسام ، فليس أخطر عليه من الاعتقاد بأنه قد أصبح في غير حاجة الى التعلّم . ويوم أن كنت حديث السن ، كنت دائما أرغب في أن أنفرد بتدبير أموري بنفسني . فالانغماس في العمل لاكتساب التجارب هو دوما مصدر للقوة . هذا ما عاد عليّ من ممارسة قيادة الطائرات لان الذي يهم الطيار ، بالتحليل النهائي ، هو مهارته في الخروج منها . وكلما قدت طائرة شعرت بأنني أنجزت عملا مهما .

ان لشغفي بالطيران سببا آخر . فقد كنت مقتنعا بأن عجز الاردن عن الدفاع عن نفسه ناتج عن السياسة التي كانت سائدة آنذاك . كان لدينا جيش ممتاز ، أفضل جيش في العالم العربي . ولكن كنا لا نملك أي غطاء جوي . كان الجيش العربي الاردني يحميننا على الارض في حين أنه في حالة هجوم جوي ، كنا مرغمين على اللجوء الى مساعدة القوات الجوية الملكية البريطانية . لم أكن راغبا في أن يضطر الاردن الى الاعتماد على أية معونة خارجية لا يمكن ضمان استمرارها . كانت اسرائيل تشكل تهديدا دائما مستمرا . فلم يكن من الحكمة بالنسبة اليّنا اذن أن نكون تحت رحمة معونة تأتي من بلد آخر حتى ولو كان البلد صديقا لنا . وهي حكمة يعزز الاسس التي تقوم عليها ، معرفتنا بأن سياسة أي بلد تتغيّر في الغالب دون أن نطلع على الاسباب التي حملت على ذلك .

لقد حاول جدي الملك عبد الله ، أن يبدل من هذا الوضع الشاذ بانشاء أول نواة لقوة جوية صغيرة . ولقد باعت بالفشل كل محاولاته لتعزيز هذه القوة . فالطائرات القديمة التي اشتريناها لم تعد صالحة للخدمة . وعندما اعتليت العرش كانت الحكومة قد بدأت تفكر في بيع الطائرات الهرمة التي بقيت لنا .

كنا معروفين في الاردن بامتلاكنا لأفضل جيش ، ولكن كان علينا

مهنتي كملك

أن نشجع الشباب الذين يرغبون في أن يصبحوا طيارين ، وعندما كانوا يريدون الالتحاق بالجيش كانوا يدخلونه ويستبدلون بجيادهم أو جمالهم سيارات اللاندروفر والمدافع الرشاشة ، فكنت أمل أنهم إذا ما غدوا طيارين سيتبعهم آخرون ، وكنت في ذلك محقا .

وانني لأذكر هذا اليوم من عام ١٩٥٣ الذي كان حاسما في القرار الذي اتخذته بأن أصبح طيارا ، كانت القوات الجوية الاردنية المساحة بقيادة العقيد دالجليش وهو نفس الرجل الذي قادني بطائرته الى عمان في اليوم الذي اغتيل فيه جدي ، لقد أطلعته أكثر من مرة على نيتي في تعلّم الطيران ، وكان قد سبق لي السفر الى جانبه في غرفة قيادة الطائرة ، وفي أحد الايام استدعيته وقلت له :

انه سوف ينتابني المرض لكثرة مكوثي منعزلا في مكتبي يجب أن تعلمني الطيران .

دهش دالجليش من أقوالي ومن الحزم الذي أبديته .
- قال لي : ولكن يا صاحب الجلالة سيكون الناس جميعا ضدكم فيما تريدون .

- فأجبتة : أعرف ذلك ولكن هذا لن يضايقني . سوف نرد على كل اعتراض وسوف أصبح طيارا .

طوال عشرة أو خمسة عشر يوما حاولت أسرتي وحاول أصدقائي أنفسهم والوزراء أن يحملوني على العدول عن قراري ، فكنت أشرح لهم وأكرر الشرح بأنه لا خطر عليّ البتة من قيادة الطائرة وكنت أعاود القول بقناعة تامة وإيمان عميق بأن ساعة الموت اذا ما حانت فلا مفر منها لأن الله يكون هكذا قد أراد .

وأخيرا تغلبت على المعارضة وبدأت التدريب ، لم يوضح لي أحد بعد ، بأنه لا يحق لي أن أطيّر وحدي ، كنت أستطيع أن أطيّر برفقة طيار ولكن لا أحد كان يجيز لي أن أطيّر وحيدا .

مهنتي كملك

في اليوم الاول كان العقيد قد خطط لجولة فوق عمان في طائرة صغيرة من طراز اوستر ، ولست ادري اذا كان قد رمى من وراء ذلك الى حملي على التخلي عما اعتزمته ، ولكنه على كل حال قدم لي شرحا كاملا عن امكانيات طائرة الاوستر ذات الطاقة المحدودة ، وهذا لم يمنع دالجليش من أن يقوم بحركات بهلوانية عليها جعلتني اقضي ساعة من أعنف واشد ما عرفته في حياتي ، كانت الحركات الدائرية الرأسية للطائرة وحركات الالتفاف حول محورها الطولاني تتلاحق على نسق متسارع حتى أنه أوقف المحرك عدة مرات والطائرة في الجو ! ، وعندما هبطنا على الارض أحسست بالمرض فجأة ، كانت هي المرة الاولى والوحيدة التي أصبت فيها بالغثيان ، ولقد حاول عبثا من جديد ان يتسبب في اصابتي به ، فقلت له : انك لن تستطيع ذلك بعد الآن ، أيها العقيد .

ثم عدت الى القصر وانتظرت الدرس الآتي ، وفي اليوم التالي - كنت قد نسيت الام اليوم السابق ، ولما كنت مصمما على تجنب ألم الغثيان ، فقد أمضيت كل فترة بعد الظهر في البحث في عمان عن أفضل علاج لذلك ، ولقد اعتدت أن أنشط جسمي بتعاطي حبوب خاصة لاتمكن من تقدير انجازات دالجليش الجوية حق قدرها .

أمضيت شهري حزيران (يونيو) وتموز (يوليو) على مدرج المطار بمعدل خمسة أيام في الاسبوع ، وقد قال لي العقيد بأنني موهوب موهبة خاصة ، وهو رأي لم أشاركه فيه على كل حال ، يعتقد الناس أنه يمكن للمرء أن يصبح طيارا معترفا به وان ذلك في متناول الجميع ، أما أنا فلم أؤمن بذلك البتة ، بل بذلت كل ما في وسعي للاعتياد على الاجهزة الفنية للطائرة ولكن ليس بدون صعوبة اذ ليس من السهل القيام بحركات بعدد هذه الاجهزة في نفس الوقت ، وفي البداية كانت حالتي الجسميّة تقلقني كثيرا ، لأن ركوب الطائرة لم يخفف بل زاد من التهاب الجيوب الانفية المزمن الذي أصبت به منذ الحداثة .

مهنتي كملك

أمضيت عشر ساعات طيران على طائرة الاوستر الصغيرة هذه قبل أن أجرب طائرة من محركين أكبر حجما وأكثر راحة من طراز دوف . وبدأت بتحقيق بعض الهبوط الممتاز على الأرض وكان بعضه الآخر أقل جودة . فقلقت من جراء ذلك .

قال لي دالجليش : لا تبالي يا صاحب الجلالة . فان أفضل وسيلة لاتقان الهبوط هو أن تخطيء في بعض المرات .

بعد مرور شهر كنت قادرا على الطيران لوحدي . ولكنني ما كنت لأعلم أنهم يحظرون علي الطيران منفردا . ومع ذلك في الدرس الثالث على طائرة الدوف نهض دالجليش من مقعده وقال لي فجأة : حسن يا صاحب الجلالة ستتولون بأنفسكم الهبوط بالطائرة ، ثم غادر غرفة القيادة وقد أغلق الباب بشدة وراءه !

لم أكن واثقا من نفسي . ولكنني تمكنت من ايصال الطائرة أرضا . وأعتقد بأنني فعلت ذلك جيدا . وعلى الرغم من هذا الانجاز قال لي العقيد بأن لديه تعليمات محددة وأنه محظر علي أن أطيرو وحيدا . بلغ بي اضطراب النفس عندئذ حداً حال بيني وبين الغضب ، فعدت الى القصر منهوك القوى . انه أمر يبعث على السخرية . فكأنهم يحظرون علي قيادة سيارة بسرعة مائة كيلو متر في الساعة بدون سائق الى جانبي . ومن البديهي أنني لا أستطيع الالماح في هذا الشأن لانه اذا ما وقعت مصيبة ، فستعتبر القوات الجوية مسئولة عن حدوثها .

فقررت عندها بأن العمل بالنسبة الي قد حان . كانت الطائرة التي أقودها موضوعة تحت المراقبة الدائمة . يضاف الى ذلك أن الجميع ، من الميكانيكيين الى ضباط برج المراقبة ، كانوا مطلعين على الحظر الذي تفرض علي . فانتظرت بصبر وأناة اللحظة المواتية . وأخيرا سنحت الفرصة .

وصلت بعد ظهر أحد الايام الى مدرج المطار . كانت هنالك

مهنتي كملك

طائرة أخفقت في الهبوط وانقلبت . لم يكن الحادث خطيرا . ولكن الناس كانوا جد منشغلين بالامر حتى أنهم لم يلتفتوا الي ولم يكن بجانب طائرة الدوف أحد . فاندفعت الى داخلها على أطراف أصابع رجلي وأدركت المحرك . وصحت بالمهندس الذي هرع باتجاه الطائرة بأنني سوف آخذ الطيار المساعد في نهاية المدرج .

كان ذلك كافيا له . وببضع دقائق كنت قد ارتفعت في الجو . وتواجد الجميع في برج المراقبة لمتابعة تحركاتي ، وكنت في غاية الابتهاج . تجولت فوق العاصمة . وجعلت أمتّع النظر من غرفة القيادة في المدينة التي أحببتها . لم يتسرب الخوف الى قلبي . ولربما كنت أقل اضطرابا وقلقا من أولئك الذين تجمعوا في برج المراقبة . مكثت بعض الوقت أيضا في الجو ثم عدت الى الأرض بعد أن حققت هبوطا في غاية الاتقان . وهكذا حدث ما لم يكن متوقعا : لم تعد هنالك معارضة على ممارستي للطيران . ومنذئذ طرت وحدي خلال آلاف الساعات .

بدأت فيما بعد بقيادة طائرات نفثة . وفي عام ١٩٥٨ قدت أول طائرة هليكوبتر وقررت أن أهبط بها وراء القصر ، ليس من باب تأمين السهولة واليسر فحسب ولكن لانني كنت أريد في أية لحظة أن يكون في مقدوري الذهاب الى أي مكان في البلاد دون سابق ابلاغ لأحد . فالهليكوبتر هو الجهاز المثالي من أجل التنقل بسهولة وسرية . ولما كنت أود أن لا أكون مرتبطا في تنقلاتي بأحد من الطيارين فقد أخذت دروسا من جديد . وبعد ساعتين ونصف من التدريب ، كنت ، أستطيع قيادة الهليكوبتر .

لقد أغنى نفسي الى حد بعيد قيام روح الألفة بين الطيارين وغياب المراسم والكلفة بينهم انهم عالم خاص قائم بذاته لا أستطيع الاستغناء عنه . انه يسحرني ويبعث النشوة في قلبي . واليوم بعد عشرين سنة ، أشعر بنفس الانفعال كالיום الاول ، عندما أصدع الى الطائرة النفثة ، انه نفس الانفعال حقا .

مهنتي كملك

الشرق الاوسط ، السلم ، الحرب ، متى سمعتم بهذه الكلمات للمرة الاولى ؟

منذ الابد . وانني اعتقد بأن هذه الكلمات موجودة منذ أن أصبح العالم عالما . في وقت مبكر جدا ، عندما اعتليت العرش ، انغمست في دسائس الشرق الاوسط . ولما نشبت الاضطرابات في منطقتنا أدرك العالم الغربي بصعوبة أسبابها الجوهرية . عندما تطرح قضية معقدة في العالم العربي ينحي الغرب باللائمة اما على الشيوعية أو على الفلسطينيين ، أو يعتمد بكل بساطة الى تحميل (كل العرب) مسئوليتها دون تحفظ أو استقصاء ، بدلا من أن يتفهم أن قوى متعارضة متناقضة تتجابه وتتصارع في بلادنا .

ربما كنا نحن مسئولين جزئيا عن هذا الخلط والالتباس وهذا النقص في الاعلام . ولكن ما لا يقل صحة عن ذلك ، هو هذا العدد المدهش من الكتب الرديئة التي أنتجها الغرب عن البلاد العربية . ولم يتوصل سوى نفر قليل من المؤلفين الغربيين الى كتابة مؤلفات متوازنة ذكية ومعقولة . فالصحافة مغرضة ويجري تزويدها باعلام سيء وغير صحيح . فاذا ما أردنا أن نتفهم أسباب بعض الاضطرابات والضغائن والاحقاد العميقة التي تولدت ، توجب علينا أن نعرف خفايا بعض القضايا . وانني اعتزم أن أصف أسسها وأتقصى أغوارها وأشرح بإيجاز الاحداث التي قادت العالم العربي الى الحد الذي بلغه وأحاول أن ألقى ضوءا قليلا على المستقبل .

يقول مثل عربي بأن السلام وليد التفاهم وليس الاتفاق . وعلى ذلك فانه لا بد ، لمصلحة السلام ، من اقامة تفاهم بين الامم . فالعرب كشعب ، يتطلعون الى نفس الغاية ، أما كأمم فانهم يسلكون طرقا مختلفة لبلوغ أهدافهم .

مهنتي كملك

انني لا ألمح الى علاقتنا مع أقطار العالم الحر ، لأن لنا علاقات مختلفة مع العالم الشيوعي الذي لا تتوفر فيه حرية الفكر والعمل . اذ أن الحملات الحاقدة المسعورة التي يوجهها ضد الشعب تحرمة من أي حق في الطموح الفردي الا اذا كان طموحا في أن يكون عبدا للدولة . وهي تحرمة من أي حق في الطموح القومي الا اذا كان طموحا في أن يكون خاضعا لسيطرة دولة أجنبية .

هذا هو السبب الذي من أجله ينبغي علينا أن نحسن فهم بعضنا بعضا . فالشيوعية لا تصبح فتاكة الا بالتفريق بين الشعوب والامم ، وهي لا تنفذ الا من خلال الثغرات التي تحدثها الظروف الداخلية التعيسة . وهي تنمي وتشحذ التناقضات والخلافات بين الامم . وهذه الانواع من التاكثيك تعرض الامم الضعيفة للدمار . وفي فترة الازمات تكون قدرتها على مواجهة الخطر معلقة على حجمها وكذلك على بعدها عن الامم القوية الحرة . فالتفهم المسبق للمشكلة يمكن من تفادي الازمة ، في حين أن الادراك المتأخر للخطر يعوق العمل الفعال المجدي كما أثبت لنا ذلك الماضي في أغلب الاحيان .

ونحن في الاردن نعرف ذلك جيدا ، لاننا باستمرار استطعنا الافلات من الدمار في اخر لحظة . فالشعور بالعزلة وعدم تفهم الآخرين يؤثر تأثيرا عميقا على طاقة وقوة ومعنويات العديد من الامم الصغيرة التي تشكل طبيعة الحرية في العالم .

ان الدول الكبرى تفهم جيدا أهميتنا الاستراتيجية ، ولكنها لا تفهم دائما طموحاتنا القومية . في حين أن هذا التفهم جوهري ، رعاية للمصلحة المشتركة للعالم الحر .

لقد عقدت المملكة الأردنية الهاشمية العزم بصلابة على أداء واجباتها نحو العالم الحر وعلى تبرير وجودها . ان الاردن الذي عرف التفرقة لهو الآن أمة متحدة تمام الاتحاد بفضل الوطنية العربية ولا سيما القومية العربية . ان الطبيعة الحقيقية للقومية

مهنتي كملك

العربية مشوهة أحيانا من قبل العرب أنفسهم ، أو من قبل الذين تهدد مصالحهم هذه القومية ، لهذا أخطأت الدول الغربية القوية في الماضي وخاصة فرانس وبريطانيا العظمى في حق هذه القومية ولا سيما في الخمسينيات وأتت أفعالا تناقض مصالحها ذاتها .

ان القومية العربية تعمل في اتجاه رغد العيش ، وهي تقرّب العرب عندها تسودهم التفرقة ، وتقوّدهم نحو مزيد من الترابط والالتحام على الرغم من التغييرات غير المتوقعة لحكامهم أو لتنظيماتهم السياسية .

لقد ولدت القومية العربية في الوقت الذي كان فيه العالم المتمدّن غارقا في عصر الجهل والظلام فساهمت القومية العربية مساهمة كبرى في تقدم الإنسانية . لقد عاشت الحضارات العربية فترة طويلة من الزمن مفصولة عن بقية العالم في اليمن وفي مكة المكرمة وفي سورية والعراق ولكن تاريخ هذه الاقطار لم يبدأ فعلا الا في عام ٦١١ بعد الميلاد عند ظهور الاسلام . كان التأثير المعنوي للعقيدة الجديدة كبيرا ولكن نفوذها السياسي ارتكز على المبدأ الاساسي الداعي الى المساواة بين الناس دون مراعاة لاجناسهم . وهذا هو أول مبدأ للاسلام .

ونحن نعبر عن هذا المثل الاعلى بعبارة (التقوى) التي تشمل روح التسامح وحب الخالق والاعمال الخيرة الصالحة والاحساس الحاد العميق بالعدالة . وبايجاز ان اخلاق الاسلام تعتمد على المبادئ نفسها التي تحكم العالم الحر .

هذه المفاهيم الانسانية الخالدة قد أتاحت للعرب أن ينشئوا امبراطورية كانت تمتد من شبه جزيرة ايبيريا الى الصين وكانت تضم اجناسا وحضارات مختلفة في نفس الحركة الخلاقة مع احترام خير ما لها من تقاليد . فنشط العلم والطب والفن والفلسفة بفضلها . ان هذا الاسهام من جانب الاسلام قد طبع التاريخ

مهنتي كملك

المعاصر أيضا بطابعه . هذا هو ركن القومية العربية في عصرنا الحالي .

ولكن لسوء الحظ دمر المغول الغزاة ، الامبراطورية العربية بعد أن نخر أسسها التناحر والتنازع والتصارع . وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتعرّف على عهد جديد وأعني به عصر النهضة كانت الامة العربية قد غرقت في لجة الظلام والجهل . ولكن على الرغم من أربعمئة عام من السيطرة العثمانية فان شعور العزة والكرامة عندها بقي نابضا بالحياة .

بعد أن غزا نابليون الشرق الاوسط بدأ العرب يخضعون لتأثير القومية الاوروبية والنزعة الاستعمارية . وفي بداية هذا القرن شرعت حركة أثارها رجال حزب تركيا الفتاة في تحويل الامبراطورية العثمانية الى امبراطورية محض تركية ، العرب فيها ليسوا شركاء وانما شعوب مستعبدة .

ولكي يستأصل الاتراك المعارضة العربية شنقوا الزعماء العرب في كل من بيروت ودمشق عام ١٩١٦ . هذا الحدث أيقظ العالم العربي بصورة نهائية فثار العرب واستولوا على مكة واختاروا الاسرة الهاشمية لتزعم ثورتهم وقيادتها .

انها أسرتكم ...

نعم الهاشميون أحفاد الرسول ، وهم لذلك يتمتعون بالتكريم والتعظيم في العالم الاسلامي قاطبة . وعندما تحالف الاتراك مع الالمان خلال الحرب العالمية الاولى ، حث زعماء الاقطار التي تسمى اليوم العراق وسورية ولبنان والاردن ، حثوا على العمل ، والد جدي الشريف حسين الذي كان آنئذ رأس الاسرة الهاشمية . فاتصل أبناءه بالحلفاء وعقد اتفاق يعرف باسم (رسائل الحسين مكماهون) يرمي الى اشعال نار ثورة عربية عامة ضد الاتراك . اعترف الانكليز بالحسين زعيما لشعبه ، بدافع من حرصهم على مصالح الحلفاء ، ووعدوا بتأييد قيام أمة عربية حرة .

بدأت الثورة العربية في حزيران عام ١٩١٦ في ظل القيادة العليا الشريف حسين . وكان أبناءه الثلاثة علي وعبد الله وفيصل قوادها

بالاتفاق مع القوات البريطانية التي كان يقودها الجنرال اللنبي زحفت القوات العربية الى شمال مكة وبلغت حاسب عام ١٩١٨ وهكذا تحقق حلم التحرير القديم . وفي الوقت نفسه أنجز العرب ما كانوا يتوقون اليه من المساهمة في هزيمة الالمان والاتراك ، وفي النصر الذي أحرزه الحلفاء في آسيا الغربية .

ماذا حدث بعدئذ بيننا وبين الحلفاء ؟ الجواب على هذا السؤال

مهم لانه يتضمن التفسير العميق لما يشعر به العالم العربي ازاء الغرب من ارتياب وعدم ثقة . انها حقاً صفحة من التاريخ يود الغرب أن يطويها . ولكنني أعتقد بوجود العكوف على هذه الفترة التي تمتد من عام ١٩١٨ وهو تاريخ النصر الذي أحرزناه الى عام ١٩٤٨ عندما بلغت المأساة الفلسطينية أوجها .

وهذه الفترة تفسر أيضا التخلف الاقتصادي لبعض المناطق

والنجاح النسبي للشيوعية في العالم العربي والحقد الذي تلا انشاء دولة اسرائيل والاحداث المحزنة المشؤومة في الجزائر في الخمسينيات أما النتيجة المباشرة لهذا كله فهي أن العالم العربي والقومية العربية أعتبروا من قبل الرأي العام الغربي بمثابة قوى معادية سلبية وغامضة مشوشة .

كل ذلك ما كان ليحدث لو أن الحلفاء تصرفوا على خلاف ما فعلوا منذ الحرب العالمية الاولى . لقد كان يعوز زعماءهم بعد النظر ووضوح الرؤية .

بعد توقيع معاهدة الصلح عام ١٩١٩ نشرت وثيقتان كنا نجهل وجودهما - الاولى هي اتفاقيات سايكس بيكو الموقعة عام ١٩١٦ بين انكلترا وفرنسا والتي كرست تقسيم الشرق الاوسط الى منطقتي نفوذ . وبايجاز وضعت سورية ولبنان تحت الحماية الفرنسية ، وأدخل ما تبقى من الشرق الاوسط في فلك الحكم البريطاني .

أما الوثيقة الثانية فهي تصريح بلفور الذي أشار فيه الانكليز الى « أنهم يؤيدون انشاء « دولة قومية يهودية » في فلسطين . هاتان الوثيقتان تمت صياغتهما بعد انقضاء ما يقرب من بضعة أشهر على مراسلات الحسين مكماهون التي وعد فيها الحلفاء بمساندة انشاء أمة عربية متحدة كبرى .

كانت اتفاقيات سايكس بيكو وتصريح بلفور وما نتج عن ذلك من أعمال ، وصمة خزي وعار لحقت بالاقطار الغربية كما أثارت خيبة أمل عميقة عند الشعوب العربية اذ بدلا من أن تعرف آسيا العربية الاستقلال ، قسّمت الى محميات فرنسية وبريطانية ثم بغير علم من العرب ، وعد اليهود بفلسطين التي كانت عربية بنسبة (٩٤) بالمائة . وكانت النتيجة النهائية هي انشاء اسرائيل بما يخالف مخالفة صريحة مبادئ سيادة الشعوب . وقد توفي الملك حسين الاول بالقوة الجبرية مدة ستة أعوام لمعارضته

المطلقة لفكرة التنازل ولو عن شبر واحد من الارض العربية في فلسطين . وفي سورية زحف الجيش الفرنسي على دمشق وأرغم الملك فيصل الاول على مغادرة البلاد . وفي العراق كان الموقف متوترا بنفس النسبة . فقد نشبت ثورة أرغمت الانكليز على التدخل وعملت على ارتقاء الملك فيصل نفسه عرش العراق في بغداد .

أما الحسين أبو جدي فقد أرسل على عجل ولده الآخر عبد الله ، وعهد اليه بمهمة إيقاف تقدم الفرنسيين نحو دمشق . فغادر المدينة المنورة في أواخر تشرين الاول (أكتوبر) عام ١٩٢٠ . وبعد مسيرة شهر وصل الى معان في الاردن في الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٠ . لقد احتاج الى سبعة وعشرين يوما في القطار لاجتياز مئات الكيلومترات التي تفصل بين المدينتين من جراء النقص في الوقود ولان الخط الحديدي كان منسوقا في عدة مواضع . وفي الوقت الذي وصل فيه الى الاردن ، كان الجيش الفرنسي قد دمر المملكة العربية في سورية . وفي ٢٠ آذار (مارس) ١٩٢١ عقد تشرتشل الذي كان وقتئذ وزيرا للمستعمرات ، مؤتمرا في القدس مع جدي . وعلى اثر هذا الاجتماع وضعت شرقي الاردن تحت الحماية البريطانية ، ونودي بجدي الملك عبد الله أميراً عليها . وفي الحادي والعشرين من شهر نيسان (ابريل) تألقت أول حكومة في شرقي الاردن .

كيف كانت شرقي الاردن في هذه الحقبة ؟

كانت بلدا صغيرا يبلغ عدد سكانه ثلاثمائة وخمسين الف نسمة أما تضاريسها التي بعضها جبلي وبعضها الآخر صحراوي ، فلا تشتمل سوى على قطاع ضيق من التربة الخصبة تمتد على طول حدودها الغربية على ضفاف نهر الاردن . ولم يضم جدي جنوب الاردن وتحصل البلاد تبعا لذلك على منفذ بحري في العقبة الا في عام ١٩٢٤ . لم يكن في البلاد سوى قليل من المدارس . أما الشرطة فغير موجودة عمليا . ومعظم غابات البلاد قد أبادها الاستخدام لحاجات الخط الحديدي الحجازي . ولكن جاذبية جدي الملك عبد الله كانت من القوة الى الحد الذي حمل الآلاف على الانضمام اليه . كان البدو يحبونه كأبيهم . أما السوريون في الشمال الذين حطمهم ضم الفرنسيين لبلادهم ، فقد طلبوا منه المعون والمساعدة . أقام بلاطه في عمان التي كانت آنئذ قرية يبلغ تعداد سكانها ثلاثة آلاف نسمة .

عندما نشبت الحرب العالمية الثانية انضمت شرقي الاردن فورا الى بريطانيا ولعب الجيش العربي الاردني دورا هاما في الشرق الاوسط ولا سيما في تحرير دمشق من نير حكومة فيثي .

في أيار (مايو) من عام ١٩٤٦ ألغيت الحماية وأنشئت المملكة الاردنية الهاشمية المستقلة . وقد حكم جدي ، الذي أصبح الملك عبد الله ، بحكمة ، وعمل بلا انقطاع على إيجاد حل للقضية الفلسطينية .

بعد حرب فلسطين انضم الى الاردن بموافقة الشعب الفلسطيني ، الجزء من فلسطين الذي أنقذته القوات الاردنية . وفي الواقع ، عندما ارتقيت العرش ، كان عدد السكان قد ازداد

مهنتي كملك

بلغ مليوناً ونصف مليون •

وقد كان من المحتوم أن لا يؤدي انشاء اسرائيل انطلاقاً من السياسة الصهيونية التوسعية إلا الى الظلم والخطر والكارثة • فيجب ن يدرك العالم أنه لا يمكن قيام سلام حقيقي دائم في الشرق الاوسط ما لم يعمل على ايجاد حل للمأساة الفلسطينية •

فالامم التي تعتبر وجود دولة عبرية قد أصبح أمراً واقعاً تنسى أن العلاقات التي أتاحت لليهود وللعرب أن يتعايشوا خلال قرون في جو من الاخوة والتسامح ، قد دمرتها أفكار الصهيونية وأفعالها ان هذه الصداقة وهذا التفاهم لا يمكن أن يبعثا الى الوجود مرة أخرى ما دامت الصهيونية تشكل جوهر سياسة اسرائيل • أما النتيجة ، فهي انقسام العالم العربي • وأحد المظاهر التعيسة لهذا الوضع هو الصورة المشوهة الكاريكاتورية التي تعرض للعالم عن حقيقة القومية العربية •

ان هذه القومية تستوجب من الاردني أن يكون عربياً قبل أن يكون أردنياً ، وأن يكون انعراقي عربياً أولاً قبل أن يكون عراقياً الخ • ذلك أن من واجبنا كعرب أن نتفاهم على القضايا الرئيسية وأن نقضي على الخلافات القائمة بيننا • ان الذنب لا يقع على عاتق الشعب العربي ، اذا كنا اليوم مرغمين على أن نعاني من ذيول المأساة الفلسطينية ، واذا كنا قبل عشرين عاماً ، عاجزين عن مد يد العون للاشقاء الجزائريين أو اذا كنا اليوم غير قادرين على أن نتعاون ، سواء خلال العدوان الاسرائيلي في عام ١٩٦٧ أو عام ١٩٧٣ •

ولكن الذنب لا يقع بكامله على الغرب : فاذا كنا ضحايا المبدأ المشهور (فرق تسد) فان القضايا العربية قد عولجت على العموم بطريقة غير مسئولة من قبل الحكام العرب أنفسهم •

لقد جاء وقت كنا نستطيع فيه أن نتحد ولو روحياً ضد

مهنتي كملك

الامبريالية ، ولكننا لم ننجح في التكتل ضد عدوينا الاكثر خطورة وهما الشيوعية والصهيونية •

ومع ذلك فانني أعتقد بأننا سائرون على النهج الصحيح للتغلب على مصاعبنا •

ان المحاولات الوحيدة التي تستحق الاهتمام والالتفات من أجل الوحدة العربية قد جاءت من الاردن • فجدي الملك عبد الله قد اقترح في عهده ، اما انشاء (سورية الكبرى) التي كان يمكن أن تشمل سورية ولبنان والاردن وفلسطين ، أو الهلال الخصيب الذي يضم الدول الاربع نفسها بالاضافة الى العراق ، أو مجرد اتحاد بين سورية والاردن •

وقد دمر جهود جدي تكتيك الفرنسيين والانكليز الذين كانوا يرون ضمان سلامة مصالحهم في انتهاج سياسة تفرقة العرب • وأدى مصرع ابن عمي فيصل وجميع أسرته ، أثناء ثورة تموز (يوليو) عام ١٩٥٨ في العراق ، الى تحطيم الاتحاد بين الاردن والعراق •

أما الجامعة العربية التي ظهرت قبل أكثر من ربع قرن ، فتبدو خطوة الى الامام نحو عالم عربي تقدمي • ولكن على المستويات العليا حطّم بعض العرب الذين لا يدركون مسئوليتهم ، هذه الآمال الكبيرة ، ففقدت الجامعة العربية خلال فترة من الزمن ، دمية يسحب خيوطها الطامعون الذين لا يباليون الا بمصالحهم •

لقد شبّه جدي الجامعة العربية في مذكراته « بالكيس الذي يحتوي على سبعة رؤوس - وهي الدول العربية السبع التي كانت تتألف منها الجامعة العربية وقتئذ - مربوطة بأشرطة تمثل السيطرة الاجنبية والجهل العربي • ان مخلوقاً كهذا ، يستطيع التنفس ولكنه يختنق عندما يحاول التحرك » •

مهنتي كملك

ومع ذلك فقد كان في مقدور الجامعة العربية تحقيق أمور عظيمة لو تولى توجيهها الزعماء الحقيقيون فلقد أثبتت مؤتمرات القمة العربية أن الجامعة العربية ضرورية • فهي السندان الذي تصاغ عليه الأمة العربية •

نحو أية أهداف يجب أن تتجه اليوم هذه القومية ؟ •
أولا لا أستطيع أن أكون إلا معارضا للشيوعية ، فهي تنكر الدين وهي اذن تنكر المبادئ التي تقوم عليها القومية العربية •

ومن ناحية أخرى ، كيف يمكن الدفاع عن سياسة الحياد بين العالم الحر والاقطار الشيوعية ؟ كيف ندين النظريات الشيوعية ونقبل مساعدتها ؟ كيف نعادي العالم الحر وندافع عن القومية العربية ، في حين أن جذورها متماثلة كما سبق لي ايضاحه ؟

ان الاردن ليشجب مثل هذه الغوغائية • اننا نؤكد بأنه لكي نكون حياديين ، ينبغي أن يكون لدينا القوة الكافية التي تمكننا من عدم الاعتماد على دعم أي من الجانبين •

وهذه ليست حالنا ! •

اننا ، نحن العرب ، لنأسف لأن بعض الدول القوية في العالم الحر ، لم تكن أكثر صدقا واستقامة معنا • ولكننا لن نقابل ذلك باعتناق الشيوعية ! ان من واجبنا أن نؤصل ونعمق جذور مبادئنا وندافع عن حريتنا • أما القوة التي ينبغي أن نعتمد عليها ، فهي قوة العالم العربي • وعلى الطبقة البورجوازية عندنا أن تنظم وتؤمن التنمية والتطوير في بلادنا من خلال وحدتنا •

أما فيما يتعلق بالملكة الاردنية الهاشمية ، فهي مخلصة تمام الاخلاص للمثل العليا التي قامت عليها الثورة العربية الكبرى • نحن جدّ تواقون الى الوحدة والمساواة والقوة والتقدم • وان قوة الاردن لتستند الى ايمانه العميق الراسخ بهذه المثل العليا • ان

مهنتي كملك

هدفنا واضح : يجب أن نجعل من بلادنا ، أمة حيّة ديموقراطية : بعد أن نجت من الابداء والتدمير •

يؤوّل العالم الحر مفهوم الديموقراطية على خلاف ما نفعل فنحن مقنعون بأنه ليس من الواقعية في شيء ، ان ننقل شكلا من أشكال الحكم بحذافيره ، وأن نحاول تطبيقه على دولة ليس لها نفس التقاليد التاريخية • فالديمقراطيات القديمة نفسها قد اكتشفت بأن عليها أن تجري تعديلات مستمرة لكي تتكيف مع القضايا الجديدة لعصرنا الحاضر •

هنالك في عدد من الاقطار العربية « احزاب سياسية » مزعومة • الا أن الواقع يشير الى تغلغل الشيوعية في العالم العربي تحت قناع القومية ، اذ لجميع هذه الاحزاب تقريبا نفس شعارات الوحدة والحرية والتقدم • وهذه الشعارات بالنسبة اليها ما هي الا مجرد وسيلة تأمل عن طريقها في التوصل الى السلطة • لذلك على الرغم من كون الحكومة الاردنية ، ديموقراطية ، فاننا لا نعتقد بأننا نستطيع أن نمسك أنفسنا ترف ترك مثل هذه (الاحزاب) تتكاثر •

يوجد في الواقع أربع وحدات كبرى في العالم الناطق بالعربية ، وهي : الهلال الخصيب ، وشبه الجزيرة العربية ، ووادي النيل ، والمغرب العربي ، فلو وافقت هذه الاقطار على المشاركة فيما بينها فان خطوة كبرى تكون قد تحققت • واتكن مشاركتها منبثقة عن ارادتها ، وأن تشمل ما تقرر أن تشمل : كالثقافة والاقتصاد وقضايا الدفاع الخ • • • أما الاتحاد السياسي ، فيمكن أن يكون المرحلة الاخيرة • كل هذه الامور ممكنة الاجراء ضمن جامعة عربية نشطة ، ايجابية ، وموفرة الاحترام •

ان الاردن يضغط بكل ثقله في هذا الاتجاه ولسوف ينضم الى كل محاولة عملية ترمي الى تحقيق هذا الهدف • فنحن نرغب في عمل متفق عليه ومدرّوس • وقد اعتزم الاردن أن يلعب في هذا المجال ، دور الدولة المعتدلة •

مهنتي كملك

نحن نعتبر بلدا ناميا ، ولكننا أيضا بلد خصب في الافكار التي تتيح لنا أن نرتفع عاليا بكرامتنا وكبريائنا وتصميمنا وشجاعتنا وثقتنا بأنفسنا .

وعندما أفكر في أسرتي ، فأنني أفكر باعتزاز في جميع من هم في الاردن الى جانبي ، يجابهون معي قضايا بلادنا . وعندما أفكر في عشيرتي ، فأنني أتطلع في الواقع الى الامة العربية بأسرها . لقد نذرت حياتي . بلل أعلى عادل محتذيا في ذلك حذو الهاشميين على مدى التاريخ . وأنني أود أن أكون خليقا بثقة الشعوب العربية ودعمها .

وأرجو الله أن يهدينا سواء السبيل وأن يمددنا بسند من عنده . وأنتم في الغرب ، فلتساعدونا على بناء قوتنا لانها ستصبح قوة للحرية . وتذكروا بأننا قد ولدنا أحرارا .



مهنتي كملك

يتحدث العالم عن القضية الفلسطينية منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما ، وهذا قد أسال حبرا كثيرا ، أما فلسطين فقد أصبح يعرفها العالم أجمع ، هل تستطيعون تذكيرنا بأصل هذه القضية الأساسية ؟

عندما نستبعد الاعتبارات العاطفية التي تصيب القضية بالغموض والابهام ، فليس من شك في أن الشعب العربي في فلسطين قد جرد من حقه الاساسي في تقرير المصير الذي حدده وعرفه الرئيس ويلسون . هذا هو الخطأ الرئيسي والغلطة الاولى اللذان جاءت الاخطاء والغلطات الاخرى لتضاف اليهما فيما بعد . نحن نعرف مقدار ما عاناه اليهود من عذاب في اوروبا خلال الحرب العالمية الثانية ، ونحن نفهم تمام الفهم رغبتهم في البحث عن حياة أفضل . ان التاريخ الحديث للاحداث التي ولدت الوضع الحالي ، وهو وجود مليوني لاجئ فلسطيني ، معروف من الجميع . ولكنني أعتقد بأن مما يثير الاهتمام أن نستعيد بايجاز ، الاحداث المختلفة التي وقعت خلال عشرات السنين القليلة التي أفضت الى انشاء دولة اسرائيل .

يعتقد الناس على الغالب ، بأن هذه القضية حديثة العهد ، علينا أن نعترف بأنها لم تحظ بالاهمية الا بقدوم الجيل الجديد . ولكن الرأي العام يجهل على العموم أن اللورد بالمرستون في عام ١٨٣٨ ، عندما عين أول قنصل بريطاني في القدس ، أوصاه « بحماية اليهود » . وبعد سنتين أشار بالمرستون في كتاب موجه الى السفير البريطاني في استانبول ، الى « الاهمية الكبرى بالنسبة للسلطان في تشجيع اليهود على أن يعودوا الى الاستقرار في فلسطين ، لأن ثرواتهم من شأنها أن تزيد في موارد الاقاليم التي يحكمها » . وذكر بالمرستون أن الشعب اليهودي يعتبر أن العودة في ظل حماية السلطان ، وبدعوة منه ، تشكل ضمانا في

مهنتي كملك

مواجهة ما قد يتكشف عنه محمد علي وخلفاؤه في المستقبل من مأرب غير شريفة ، وأضاف : « أنقل الى الحكومة التركية هذه التصريحات السرية وأوصها بتشجيع سائر اليهود على العودة الى فلسطين » . كان ذلك في عام ١٨٤٠ .

في عام ١٩٠٩ كتب العالم الجغرافي الأمريكي السورث هينجتون بأن الفلاحين المقيمين في فلسطين ، يعتبرون « اليهود الد أعدائهم » . وفي عام ١٩١٢ عقدت جلسة صاخبة في مجلس النواب التركي ، احتج فيها النواب العرب على استيلاء الاسر اليهودية على مساحات واسعة من الاراضي التي تعود الى ملاك غائبين .

ولكن لم توجه الضربة الحاسمة القاصمة الا في أواخر الحرب العالمية الاولى . فقد أعلنت الحكومة البريطانية في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩١٧ في تصريح بلفور بأنها تؤيد استقرار اليهود في فلسطين . كانت الوثيقة قليلة الوضوح ، فعقرتها الثانية تشير الى أنه من المفهوم أنه سوف لن يؤت أي عمل من شأنه أن يعرض الى الخطر الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين » . ومهما كان رأي البريطانيين فان الصهاينة كانوا قد حددوا مواقفهم على كل حال . فقد صرح الدكتور وايزمن بأن فلسطين يجب أن تكون يهودية كما هي انكلترا انكليزية .

وفي رأيي أن تصريح بلفور كان ظالماً وكان السبب في المرارة وخيبة الامل اللتين يعاني منهما العالم العربي المعاصر ، وقد كان رد الفعل المباشر لهذا الامر ، من الجدية ، وكان الصهاينة من النشاط ، الى الحد الذي حمل الرئيس ويلسون في عام ١٩١٩ على ايفاد فريق دراسة الى الهلال الخصيب . وقد دعي فريق الدراسة « بلجنة كينج - كرين » . كانت مهمة هذا الفريق هي اختبار ردود فعل السكان المحليين على اقتراح بريطانيا العظمى . وقد روى أحد الكتاب بأنهم باثروا دراساتهم بأفكار مسبقة متعاطفة مع

مهنتي كملك

انصهيونية ، ولكن عند الصياغة الفعلية للتقرير ، حملتهم بعض الوقائع على تغيير رأيهم .

أعربت لجنة كينج - كرين عن تمنياتها في اجراء تعديل جدي على البرنامج الصهيوني . وبعد محادثات عديدة أجرتها مع الصهاينة ، صرح أعضاؤها بأنه قد تبين لها بوضوح بأن الصهاينة يودون التجريد الكامل للسكان غير اليهود من سائر ما يملكون . كان الصهاينة مستعدين لكل شيء رغم معارضة السكان غير اليهود في فلسطين . وقد استلمت اللجنة من سورية عريضة تشير الى أن اثنين وسبعين بالمائة من السكان كان ضد البرنامج الصهيوني . كما أن جميع الضباط البريطانيين كانوا يشددون على واقع أن السلاح وحده هو السبيل الوحيد الذي يستطيع تحقيق فوز البرنامج الصهيوني .

ان تقرير لجنة كينج - كرين ، هو احدى الوثائق المكرسة للقضية الفلسطينية . ماذا جرى لهذا التقرير ؟ . لقد أخفته الحكومة الامريكية .

كان هذا التقرير مثالا يحتذى في الموضوعية . ولم ينشر بصورة غير رسمية الا بعد رحيل ويلسون من رئاسة الولايات المتحدة ، في الوقت الذي لا يستطيع أحد أن ينحي باللائمة على أسلوبه الذي اتسم بالاستقامة والنزاهة .

بدأ الصهاينة في الاستفادة من تصريح بلفور . وجعل اليهود يتوافدون على فلسطين بأعداد متزايدة . أما جدي الملك عبد الله الذي كان في ذلك العهد أميرا على دولة شرقي الاردن الجديدة ، فقد أصبح شديد القلق من هذا الوضع . كانت فلسطين وشرقي الاردن تحت السيطرة الانكليزية ، ولكن ، كما سجل الملك عبد الله في مذكراته ، لا يمكن اعتبارهما دولتين منفصلتين . فشرقي الاردن الواقعة الى الشرق من نهر الاردن تشكل القسم الداخلي من فلسطين وكانت تنتج المواشي والحبوب والمواد الزراعية الاخرى ،

مهنتي كملك

بينما كانت فلسطين تعنى بالصفقات التجارية مع العالم الخارجي عبر موانئها على البحر الابيض المتوسط . هذا البلدان المنظمين المسالمين كانا يعملان معا بروح المودة والتآخي الى أن بدأت شرور الهجرة اليهودية تتفاقم . فقد قلب اليهود الذين كانوا يتوافدون على فلسطين ، نوع الحياة فيها ظهراً على عقب . وكانت ترتفع الاحتجاجات ضدهم من وقت الى آخر . ولم يدر البريطانيون ماذا يصنعون الى الحد الذي كانوا يتقاتلون تارة ضد اليهود وتارة ضد أصدقائهم العرب .

في عام ١٩٣١ أرسلت عصبة الأمم لجنة تحقيق فوجّه جدي الى المندوب السامي البريطاني في فلسطين رسالة مطولة أعلمه فيها بأن الحوادث والمنازعات قد « وضعت حداً لكل أمل في قيام المودة والصداقة بين القادمين الجدد وبين العرب الذين كانوا يسكنون فلسطين منذ أربعة عشر قرناً » .

ولقد حذر جدي مراراً وتكراراً في أعوام ١٩٣٣ و ١٩٣٤ و ١٩٣٥ السلطات البريطانية من أن الهجرة اليهودية من شأنها أن تتسبب في عواقب وخيمة ، وطالب بانتهاج سياسة جديدة أكثر عدالة في فلسطين .

في التاسع من تشرين الاول ١٩٣٦ (أكتوبر) من عام ١٩٣٦ ، عشية إرسال لجنة بيل الى فلسطين ، أصدر الملك بن سعود ملك السعودية والملك غازي والامير عبد الله ، تصريحاً مشتركاً ناشدوا فيه عرب فلسطين بالكف عن أعمال العنف (وبوضع ثقتهم في النوايا الحسنة لأصدقائنا البريطانيين وفي رغبتهم في مراعاة جانب العدالة ورفع شأنها) .

لكن آمالهم قد خابت . فقد أعلنت لجنة بيل عن تأييدها التقسيم . فقامت مظاهرات في عمان والمدن الأردنية الأخرى واشتدت حدة المعارك ضد اليهود في فلسطين .

مهنتي كملك

كان جدي يأمل في قرارة نفسه في أن يجري التوصل أخيراً الى حل يمنع الكفاح الناشب من أجل البقاء ، بين العرب واليهود ، من أن يتحول الى كارثة .

كان السياسي الوحيد بين رجال الدولة العرب في الثلاثينيات ، الذي أدرك أنه إذا لم يتم التوصل الى حل للقضية الفلسطينية فإن الوضع سوف ينقلب الى كارثة تصيب العرب ، وأن التقسيم إذا ما عدا أمراً واقعاً فإن النكبة سيكون لها نتائج غير متوقعة بالنسبة للمستقبل . لذلك اقترح على الحكومة البريطانية إنشاء دولة تشمل فلسطين وشرقي الأردن . أما جوهر ما ورد في مذكرته فيمكن ايجازه فيمايلي :

١ - يتمتع اليهود في اتحاد كهذا بالاستقلال الداخلي في بعض المناطق .

٢ - يكون لهم سلطات إدارية مطلقة في هذه المناطق .

٣ - يمثل اليهود في البرلمان بمقتضى القاعدة النسبية كما أن على الحكومة أن تشتمل على وزراء من اليهود .

٤ - يجب تخفيض الهجرة اليهودية الى العدد المعقول .

هوجم هذا المشروع من قبل الدول العربية الأخرى . ولكن كما كتب في الخامس من حزيران ١٩٣٨ جواباً على الذين كانوا ينتقدونه:

« لم يكن يتجاوز عدد السكان اليهود مائة ألف عام ١٩٢١ . أما اليوم فقد بلغوا خمسمائة ألف . وهم يملكون أخصب الأراضي كما أنهم تغلغلوا في كل مكان . تقوم الصهيونية على ثلاث دعائم : تصريح بلفور والشعوب الأوروبية التي تحاول التخلص من اليهود والمتطرفون العرب الذين يرفضون كل حل ولا يكفون عن الشكوى والاستغاثة بالذين لن ينجدوهم أبداً . لقد بلغني أن اليهود قد طلبوا الإبقاء على الانتداب البريطاني ليتسنى لهم امتلاك مزيد

مهنتي كملك

من الاراضي وزيادة الهجرة • وهكذا تقع فلسطين في يد الآخرين • أما العلاج الوحيد فهو العمل بسرعة لوضع حد لهذا الخطر وذلك بحصر الهجوم وتقييد حدوده ثم بمواجهة ودراسة كيفية القضاء النهائي على هذه التهديدات • فإذا ما أضعنا الوقت ، كفلنا بذلك ضياع فلسطين • اعتقد بأنه لا فائدة من الشكوى وأن علينا أن نبادر الى العمل • وان توحيد فلسطين وشرقي الاردن سوف يضع حدا للكارثة • اذ نستطيع أن نتولى تصريف الشئون الادارية بفعالية وننشئ جيشا للدفاع عن أنفسنا • وستغلق أبواب الهجرة غير الشرعية • واني أود مع ذلك أن أعرف اذا ما كان لديكم اقتراح آخر »

بهذه العبارات كان يتحدث أمير شرقي الاردن • وقد أكد التاريخ فيما بعد صحة نظرة جدي للامور • ولكن لسوء الحظ لم يقبل أحد الاستماع الى رأي الرجل الوحيد الذي تنبأ بالخطر • في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٩ اجتمع كبار زعماء العرب في لندن لمناقشة القضية الفلسطينية • وبعد بضعة أشهر أذاعت بريطانيا العظمى بلاغا أعلنت فيه أن دولة فلسطينية مستقلة سوف يجري إنشاؤها خلال السنوات العشر القادمة • قرأ الملك عبد الله هذا البلاغ وكتب فيما بعد الى بريطانيا العظمى : « اذا كنتم تعتبرون أن للشرق الاسلامي من بورما الى طنجة قيمة ما ، فان المستر أتلي والمستر بيفين ملزمان بتعديل هذا الوضع » •

وفي الوقت الذي كانت هذه القصة المشؤومة القذرة تسير في مجراها وتتقدم في طريقها المحتوم نحو خاتمتها المحزنة ، اجتمع ملوك ورؤساء الجامعة العربية في أنشاص بمصر عام ١٩٤٦ ، وعلنوا في بلاغ مشترك أن « القضية الفلسطينية تهم سائر العرب وليس الفلسطينيين العرب فحسب » • ومنذ ذلك الحين أصبحت القضية الفلسطينية ملزمة للعرب في سائر أنحاء العالم • هذا التنبيه من قبل زعماء العرب لم يلق أذنا صاغية • وبعد أقل من سنة قررت بريطانيا العظمى انهاء انتدابها •

مهنتي كملك

أوفدت منظمة الامم المتحدة فورا لجنة خاصة لدراسة قضية التقسيم ، وقدمت تقريرها في آب (أغسطس) • ولكن أعضائها لم يجمعوا على رأي موحد • فقد أوصى سبعة منهم بالتقسيم وأيد ثلاثة منهم اقتراح الملك عبد الله وهو الاتحاد الفدرالي بين الكانتونات اليهودية والعربية • أما العضو الاخير في اللجنة فقد صوت ضد أية توصية مهما كانت • ومن المفيد أن نعرف ماذا حدث بعدئذ •

شكلت منظمة الامم المتحدة لجنة « مختصة » اوكل اليها دراسة التقرير فرفضت هذه اللجنة بأكثرية خمسة وعشرين صوتا ضد تسعة عشر صوتا مؤيدا وأحد عشر صوتا مستنكفا ، الاقتراح العربي باحالة تصريح بلفور الى محكمة العدل الدولية • وهكذا رفض أكثر من نصف أعضاء اللجنة التصويت ضد مشروع القرار العربي •

لم تتوقف الامور عند هذا الحد • فعندما صوتت اللجنة الى جانب أو ضد تبني تقرير اللجنة الخاصة المؤيد للتقسيم ، أقر الاقتراح بأكثرية (٢٥) صوتا مؤيدا ضد (١٣) صوتا معارضا و (١٧) صوتا مستنكفا • وهذا يعني أن (٢٥) عضوا في اللجنة فحسب أيدوا مبدأ التقسيم من أصل (٥٥) عضوا ومنذ ذلك الحين تدهورت العلاقات بين الغرب والعرب • هذا التطور قد أكدته وزير الخارجية الباكستاني السير ظفر الله خان ، عندما وجه التحذير الى العالم الحر :

« تذكروا أنكم سوف تحتاجون غدا الى أصدقاء وحلفاء في الشرق الاوسط • انني أتوسل اليكم ألا تقوّموا المكانة والحظوة والثقة التي يتمتع بها العالم الحر في هذه الاقطار » •

وقد (حاول) الصهاينة ، قبل التصويت في الجمعية العامة ، أن يكتسبوا لقضيتهم أواخر المترددين • واعترفوا علنا بأن الرئيس

مهنتي كملك

ترومان قد ساعدتهم في هذا الاتجاه • كما توصلوا الى اكتساب أصوات الكتلة السوفيتية • وفي ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) أقرت الجمعية العامة مشروع قرار التقسيم بأكثرية (٣٣) صوتا ضد (١٣) واستنكف عشرة أعضاء عن التصويت • كان ذلك نهاية لكل الآمال • ولقد أوجز السير ظفر الله خان ببلاغة مشاعر معظم الوفود بهذه العبارات : «وكما قال أعظم الأميركيين: إن الله قد وهبنا القدرة على تقييم الخير وتقديره • ولقد بذلنا ما في وسعنا لعمل الخير » • لقد نجحنا في اقناع عدد كبير من الوفود الشقيقة للعمل في هذا الاتجاه ولكنهم لم يسمحوا لها أن تدافع عن العدالة • اننا لا نكتن في نفوسنا أي شعور بالشكوى ضد الاصدقاء والوفود الذين أرغمهم الضغط الصريح الواضح على التصويت الى جانب اقتراح ينتهك روح العدالة ومعنى الانصاف • اننا نشعر بالتعاطف مع الوفود التي كانت تريد من ناحية أن تتصرف بوحى من روحها ووجدانها ولكنها من ناحية أخرى تعرضت هي وحكوماتها للضغط انني نعرفها » •

وهكذا بدأ الصراع • وفي ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨ انتهى الانتداب البريطاني • وأعلن قيام دولة إسرائيل • فاعترف الرئيس ترومان وروسيا السوفياتية فوراً بالدولة الجديدة • وفي ١٥ أيار (مايو) وهو تاريخ رحيل القوات البريطانية عن فلسطين أرسلت الاقطار العربية قواتها الى البلاد لاعادة النظام وحماية السكان العرب المحاصرين •

عينت الدول العربية جدي قائداً أعلى لسائر القوات العربية • ولسوء الحظ كان هذا التعيين محض وهميا • فقد اكتشفه فيما بعد • لانهم لم يمنحوه أبدا السلطة اللازمة لمراقبة وتنظيم شئون قوات الدول العربية الاخرى وقيادتها بصورة فعلية • حتى الاذن بتفتيشها قد منع عنه •

انني أذكر صديقا لجدي رآه في نفس اليوم الذي بدأ القتال فيه قال الملك : « سوف أقود قواتي الى المعركة وسوف أقاتل بنفس

مهنتي كملك

الحرارة والحمية ونفس الشجاعة التي أبديتها دوما عندما كان الامر يتعلق بالمثل العليا للثورة العربية » • ثم أمسك عن الكلام فقد استعاد الى ذاكرته خلال لحظة ، الماضي وسائر الجهود المهدورة التي بذلها للتوصل الى السلام ، لانه أضاف والأسى يعتمل في قلبه : « سوف أقاتل الى أقصى مدى تبلغه قواي • ولكن ما أرجوه وأتوق اليه ، هو أن أموت في ساحة المعركة برصاصة في الرأس » • ولحسن الحظ صان الله حياته لعدة سنوات أخرى أتاحت له خدمة القضية العربية الكبرى • وبالفعل أظهرت اللحظات الاخيرة من الحرب مدى ما كان يتحلى به من بأس وشجاعة • فقد كان اليهود الذين ازدهاهم النصر الذي أحرزوه على مقاومة عربية سيئة التنسيق والاستعداد ، قد استولوا في كل مكان على الاراضي التي كانوا يجدونها في طريقهم • فطرد آلاف اللاجئين من منازلهم بوحشية وهربوا الى كل جهة • ذهب الكثير منهم الى غزة ، ولكن معظمهم اتجهوا نحو الشرق • مئات الآلاف من اللاجئين الذين استبد بهم اليأس والجوع وحطمهم التعب والاعياء ، عبروا النهر للدخول الى شرقي الاردن •

كان جدي الذي شهد له الجميع بالشجاعة والاقدام وشدة البأس يزور مخيمات اللاجئين الواحد تلو الآخر • كان ربعة القائمة ، ممثلاً صلب العود ملتحيا ، دائم الاناقة في لباسه • فاستأنس به كل فرد من اللاجئين وجعلوا يلتمسون منه العون مما جعلهم ينضمون جميعا تحت لوائه •

وعندما توقف القتال ، اجتمع أكثر من ألفين من وجهاء الفلسطينيين في أريحا وقرروا ضم ما تبقى من فلسطين الى الاردن بزعامة الملك عبد الله ، وبذلك أحرز جدي أعظم الانتصارات ، ألا وهو انتصار القلوب • وبينما كان القادة العرب الآخرون يضيعون الوقت في الرجاء والامل ، وفي التقديرات والحسابات ، ويطراشقون باللوم والانتقادات ، كان الملك عبد الله منهمكا في العمل • فقبل أن يدمج في المملكة الاردنية الهاشمية الجزء من فلسطين الذي

مهنتي كملك

أنقذته القوات الاردنية ، والذي يمتد حتى الضفة الغربية من نهر الاردن التي كانت تشكل الحدود القديمة للبلاد . وهكذا غدت (الضفة الغربية) من النهر منطقة هامة من المملكة الاردنية الهاشمية . ولا مرأ في أن الملك عبد الله ، بهذا الضم ، قد حال دون الحاق هذه المنطقة الكبيرة من فلسطين باسرائيل . ويحسن التذكير بأن الجيش العربي الاردني في عام ١٩٤٨ لم يزد تعداداه عن أربعة آلاف وخمسمائة رجل .

وعندما سمحت الظروف ، أجرى الملك انتخابات نيابية في ضفتي النهر ووسع مجلس النواب لكي يتيح للفلسطينيين أن يكونوا ممثلين أليق وأفضل تمثيل . وبذلك تغير وجه الاردن خلال بضعة أشهر فقط . فقد جاء قرابة مليون فلسطيني ، كمواطنين متساوين في الحقوق والواجبات لتضخيم عدد سكان الاردن الذين كانوا يبلغون أربعمئة ألف نسمة . وخلال ثلاث سنوات ارتفع عدد سكان عمان من ثلاثين ألفا الى مائتي ألف .

ولكن على الرغم من هذه المأثرة الفريدة من نوعها ، التي كانت ترمي الى ضمان ورعاية مصالح الاشقاء المعدمين الذين سلبوا كل شيء ، وهو ما لم يفعله أي قطر عربي آخر ، فما زال يوجد حتى اليوم مئات الآلاف من اللاجئين الذين يعيش معظمهم في الاردن .

اننا جد فخورين بالعناية والرعاية الرائعتين اللتين أحاطت بهما بلادنا هذا الشعب المنكود الحظ . ان هذه الضيافة وهذا الايثار لتتميز بهما أخلاق الناس في بلادنا . لقد عالجتنا فقط مشكلة اللاجئين الفلسطينيين . ولكي نحفظ عليهم طموحاتهم وكبرياءهم كان علينا أن نعاملهم ككائنات انسانية وأن نكف عن اعتبارهم أرقاما . يمكن للمرء أن يكون حيا وميتا في آن واحد ، وهذا ما لا ينبغي أن يحدث عندنا . لقد جلب لنا هذا العمل الفردي ما لا ينقطع من الهجوم واللوم والانتقاد من قبل الاقطار العربية الاخرى التي بلغ بها الامر حد اتهامنا بالترحيب بالفلسطينيين عندنا لكي نفسيتهم الحقيقية ووطنهم .

مهنتي كملك

صحيح أن ما فعلناه في هذه السنين الاخيرة لم يأت بالحل الحقيقي ، بل كان بمثابة الدواء المسكن أو الوسيلة التي لا تفي بالغرض المنشود . ولكن يجب أن لا يغرب عن البال بأن مشكلة اللاجئين هي النتيجة الواضحة الجلية لتخلي بلاد الغرب عن سلطتها . انني لا أعتقد بأن حل مشكلة اللاجئين يمكن أن تحل على وجه الصحة ، القضية الاساسية ، ألا وهي أن تعاد الى الفلسطينيين الاراضي التي كانوا يقطنون فيها منذ ألفي عام .

أقد حلت القمة الاخيرة في الرباط المعقودة في تشرين الثاني (أكتوبر) من عام ١٩٧٤ ، بعض المشاكل . وحل موقف منظمة الامم المتحدة بعضا آخر منها . ولكن الطريق الذي يفصلنا عن الحل النهائي ما زال طويلا . فالقضية الفلسطينية سوف لن تجد حلا لها الا عندما ترغب في ذلك حقيقة الاطراف المعنية . لا بد قبل كل شيء من توفر الرغبة الاكيدة في ايجاد الارضية اللازمة للاتفاق العام التي تسمح بالتقدم نحو حل عادل ومشرف . وانني أفضل ، مراعاة للاستقامة ، أن أعترف بأنني لا أرى في الوقت الحاضر أي تمهيد لاتفاق كهذا . فدولة اسرائيل تفعل كل شيء من أجل تدعيم موقفها وان ما يصدر عنها مماثل بشراسته القومية لما صنعه هتلر ازاء اليهود عندما طردهم من ألمانيا . مقابل هذا يود الفلسطينيون العرب أن يستردوا حقهم في العودة الى أوطانهم ولكن طموحات الدولة اليهودية التي تتسم بالغلو في التعصب القومي ، قد بلغت من الحدة مبلغا جعلها تعتبر كل عودة ذات أهمية للعرب الى أوطانهم ، ليست تهديدا موجهة لأمنها الداخلي فحسب ، بل انها تفسر حتى الوجود العربي في القسم الفلسطيني الذي يحتله اليهود ، بأنه تهديد ضد كيانه نفسه .

أما العالم العربي فقد حدد ، على العكس من ذلك ، كهدف له ، قومية أكثر تسامحا ، تصون هوية مختلف الدول العربية وتتطلع في الوقت نفسه الى حياة مشتركة محتملة التحقيق ضمن كيان أرحب . فنحن لسنا مهددين بالوجود الطبيعي لدولة اسرائيل

مهنتي كملك

فحسب ، ولكننا مهددون أيضا بردود الفعل لكثير من الحكومات العربية وزعمائها على أثر الدعم الممنوح من الغرب الى الدولة اليهودية ، هذا الدعم الذي كان على جانب كبير من الاهمية فيما مضى ، والذي جعل يتراخى اليوم بعض الشيء ، لذلك يجب أن لا نبحت بعيدا عن أسباب التقارب بين بعض المبلاد العربية والاقطار الشيوعية المعادية للعالم الحر .

لقد قاوم الاردن دوما هذا الاغراء بحزم وعزم وتصميم ، ولو أن من البديهي أن مقدرتنا على المساهمة في معركة العالم الحر قد كانت بلا انقطاع مرهونة الى حد كبير بموقف الاقطار الغربية ازاء اسرائيل .

لقد كان الشرق الاوسط في كل العصور احدى الدوائر الحاسمة في الحرب الباردة ثم في الحرب الساخنة . ولقد كان نابليون محقا عندما أطلق عليه اسم «مفترق طرق العالم» ان القضية الفلسطينية لا يمكن فصلها عن النضال الكبير من أجل الحرية الذي تقف الانسانية في مواجهته فاذا كانت بلاد الغرب تبحث عن الاستقرار في الشرق الاوسط واذا أرادت اكتساب صداقة الشعوب العربية والدول العربية واعتبرت هذه الصداقة السور المنيع ضد الشيوعية ، فعلى بلاد الغرب في النهاية أن تأخذ زمام المبادرة في اقتراح مشروع لفلسطين ، مشروع نهائي مستوحى استحياء عميقا من مبادئ العدالة السياسية والاقتصادية . ولئن كانت قضية الحرية قد هزمت في الشرق الاوسط فان ذلك ما هو الا نتيجة لتخلي العالم الحر عن مبادئه التي كان يؤمن بها . ان كل صدع يحدث بين المبادئ والممارسة العملية سيكون مصدرا للفوضى وعدم الاستقرار .

ان اعداء الحرية الذين يتسترون بالظلام لهم دوما على استعداد للنفاذ من خلال هذه الشقوق . وهم يترقبون اللحظة المناسبة لتوسيع هذه الخروق والثغرات .

مهنتي كملك

كان عاما ١٩٥٦ و ١٩٥٧ عامين عسيرين جدا عليكم ، فهما السنتان الاوليان اللتان اضطررتم فيهما أن تتخذوا أولى قراراتكم الهامة ، أولا طرد كلوب باشا ثم مجابهاتكم مع حكومتكم ، وأخيرا قضية الزرقاء .

انها لمهنة شاقة أن يكون المرء رئيس دولة لا سيما قبل عشرين عاما . تعود أولى تجاربي كملك للاردن الى عام ١٩٥٦ . فاستقالة الجنرال كلوب بعد خدمة في الاردن بلغت ستة وعشرين عاما ، كانت حدثا هاما جدا ، وينبغي أن يكون المرء أردنيا أو أن يعرف مشاكل بلادي معرفة عميقة ، ليتسنى له ادراك أهمية هذا الحدث اد توجد دوما في تاريخ البلدان الصغيرة لحظات حاسمة يتوجب على المرء فيها أن يكبح جماح عواطفه الشخصية وأن يطلق العنان للموضوعية . وهذه كانت الحال بالنسبة للجنرال كلوب فقد أحدثت استقالته بعض الدهشة والذعر في العالم . وكثير من الناس من أخذ عليّ بمرارة هذا الحل المتطرف . لقد أوّل موقفني تأويلا خاطئا جدا على أنه اهانة متعمدة أصيب بها الحلفاء الغربيون ، وعتبوا عليّ بتسرع ، ان أصر على استقالة كلوب لاضع حدا لصداقتنا مع انكلترا . هذا التأويل الذي تشر على نطاق واسع من قبل الصحافة الغربية ما هو الا محض اختلاق . ولعل مما يبعث على السخرية حقا أن يعتقد المرء أو أن يوحى الى الآخرين بأن سفيرا اذا ما أصبح غير مرغوب فيه يجب أن يعتبر رحيله على أنه دلالة على النفور والعداء نحو حكومته .

يجعل الرأي العام عموما أن عزل الجنرال كلوب كان قضية أردنية تماما . لان كلوب كان قائدا عاما للجيش العربي الاردني . وكان يعمل لحساب حكومتي .

لقد كان السبب الرئيسي في عزله يقوم على عدم التفاهم بيننا

مهنتي كملك

وعلى خلافنا حول مسألتين جوهريتين : دور الضباط العرب في جيشنا ، واستراتيجيتنا الدفاعية ، فأحد واجباتي كملك هو تحقيق الامن لشعبي وبلادي ، ولو لم أقم باستبداله لما كنت قد مارست أعباء مسئولياتي ، ان ما تم كان من الواجب أن يتم ، وانني أعرف ، بعد أن انقضت الاعوام الطويلة على ما حدث ، أن كلوب باشا قد قنع بوجهة نظري ، اثر مناقشة الامر معه فيما بعد .

لقد كنت والجنرال مختلفين تمام الاختلاف حول موضوع أساسي : كنت أرغب في ترفيع الضباط الاردنيين الى المناصب العليا في الجيش وفي أن يتولوا قيادته طبقا لخطة واقعية .

هذا الاختيار كان يضايق سياسة التسلط التي كانت تنتهجها انكلترا التي كان قد صدر عنها في ذلك العهد عبارات طائشة ومثيرة للسخرية ، لقد نصت المعاهدة الانكليزية - الاردنية على حق الاردن في أن يستوفي مساعدة مالية تبلغ اثني عشر مليون جنيه سنويا ، وعلى التزام بريطانيا العظمى في أن تقدم الضباط اللازمين لتنظيم الجيش الاردني ، ولكن الانكليز كانوا من الناحية العملية يقودون الجيش .

ولما كنت خادما للشعب ، فقد كان عليّ أن أعطي الاردنيين مزيدا من المسئوليات وكان من واجبي أيضا أن أقوي ثقتهم بأنفسهم وأن أرسخ في أذهانهم روح الكرامة والكبرياء القومي لتعزيز قناعتهم بمستقبل الاردن وبدوره ازاء الوطن العربي الكبير فالظروف والشروط كانت اذن ملائمة لاعطائهم مكانا أكثر أهمية في تدبير وإدارة شئون بلادهم لا سيما في الجيش ، وعلى الرغم من حب الجنرال كلوب للاردن ومن ولائه واخلاصه لبلادي فقد كان يقف عائقا دون تحقيق ذلك ، ولعل من مظاهر هذا التناقض أنه منذ أن كان الجيش العربي الاردني يشكل ركن الاردن الاساسي ، أصبح كلوب أحد الرجال الاقوى والافوسع سلطة في البلاد ، ولكن على الرغم من أن كلوب كان القائد العام لجيشي ، فلم يكن في مقدوره أن

مهنتي كملك

ينسى اخلاصه وولائه لانكلترا ، هذا الوضع يفسر سيطرة لندن فيما يختص بشئوننا العسكرية ، كان الجيش يفيض بالضباط الشباب غير المؤهلين والخاضعين تماما لأوامر وايتهاول التي كان يمثلها كبار الضباط الانكليز ، هؤلاء الاردنيون الشباب كانوا يتميزون بانعدام الطموح وروح المبادرة ، بينما كان يجب عليهم في نظري أن يشكلوا أمل جيشنا ومستقبله ، أما أولئك الذين تعتلج في نفوسهم الطموحات القومية وتتوق نفوسهم الى جيش أردني عربي ، فقد أقصوا ، وعهد اليهم بوظائف ثانوية لا أمل فيها بالترقي ، كانت خيبة الامل قاسية الوطأة على نفوس الشباب ، ولقد طلبت مرارا من الانكليز أن يدربوا مزيدا من الضباط الاردنيين القادرين على الارتقاء الى الرتب العليا ، وكان البريطانيون يتجاهلون مطالبي ، كان أعلى منصب يستطيع أن يطمع فيه الاردنيون هو منصب قائد سرية ولا شيء أكثر من ذلك .

بعد أشهر من المفاوضات التي اتسمت بالصبر والاناسة ، استجيب الى طلبي ، لان انكلترا قبلت أخيرا أن تعرض علينا خطة للتعريب يتم بمقتضاها منح الضباط الاردنيين في المستقبل مزيدا من الامتيازات ، كان ذلك (نصرا) أو على الأقل كنت أعتقد ذلك ، وقد قوبل هذا النبأ بالترحيب الحار من جانب أعضاء حكومتي ، بقي الآن أن تعرف ماذا كان يفهم من عبارة (المستقبل) بعد قليل حصلت على فكرة عن الموضوع ، اذ أنهم أبلغوني رسميا بأن سلاح الهندسة الملكي في الجيش العربي الاردني سوف يتولى قيادته ضابط عربي في عام ١٩٨٥ ، كيف يمكن لحكومة أن تبلغ من الواقعية الى هذا الحد القليل ؟ لم تدرك انكلترا في ذلك العهد أنه لا يمكن تجاهل طموحات شعب ، بقولها : « سوف نتحدث عن ذلك بعد ثلاثين سنة » .

انني أول من يعترف بأن من المحتمل أن لا يكون ذلك بخطأ من كلوب فالجنرال لم يزد على أن كان ينقل أوامر وايتهاول ، وهو على كل حال قد حاول مرارا مساعدتنا ، ولكن موضوع الجيش بقي دوما

مهنتي كملك

بدون حل : في حين أنه كان علينا أن نقدم لرجالنا وشبابنا امكانات تستحق الاهتمام ، لا سيما عندما نعرف أن الجيش في الاردن ليس أداة للدفاع ضد الغارات الاجنبية فحسب ، بل هو أيضا ، وعلى الاخص جزء لا يتجزأ من الامة بأسرها .

لقد كانت تقاليد وتاريخ الشعب الاردني تمنح دوما الجندي المقاتل نظاما تفضيليا . وقد كان الانخراط في سلك الجندية عندنا من قديم الزمان ، مدعاة للسعادة . كان لرجالي دوما احساس رفيع بالكرامة والعزة . ولم يستطع جندي في العالم العربي أن يطاول جنود جيشي كبرياء وأنفة .

أما حالة الضباط فقد كانت مختلفة لانهم كانوا لا يرون أي أمل أو رجاء في الترقى في المهنة التي اختاروها .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد لأن مشاعر شخصية جاءت لتتضمن الى كل ذلك . فالجنرال كلوب الذي كان آنذاك قد قارب الستين من العمر ، قد عاش فترة طويلة بيننا بحيث كأن لا يستطيع أن يتصور استمرار الحياة في الاردن بدونه . كأن يبلغ ثلاثة وعشرين عاما عندما استخدم في العراق . ومنذ عام ١٩٢٠ كان يشكل جزءا من العالم العربي .

لقد وصل الى شرقي الاردن للمرة الاولى في عام ١٩٣٠ لتولي قيادة (قوات البادية) وأصبح قائدا للجيش العربي الاردني منذ عام ١٩٣٩ . وقد أطلق البدو عليه لقب (أبو حنيك) أي (الاب ذو الذقن الصغيرة) لأن أحد فكيه كان مشوها . كان المسرح السياسي يتطور بسرعة . كان رجال السياسة يأتون ويذهبون والسفراء يتغيرون ولكن كلوب كان دوما في منصبه فعلا نشيطا فائق اللطف والتهذيب . بيد أن شيئا مع ذلك قد تغير . ألا هو العصر .

ست وعشرون سنة تمثل أكثر من ثلث حياة رجل . وطوال هذا الزمن ، ابتعد كلوب بعيدا شديدا عن العالم الخارجي . لقد كان

مهنتي كملك

متأثرا تأثرا عميقا بالعصر الفكتوري . كان يحلو له أن يقول بأنني شاب متقد الحماسة وأنه أكبر سنا وأكثر اعتدالا . كان يقول حقا ، ولكنه نسي أن الاردن أمة شابة مندفعه العواطف وأننا كنا وما زلنا أكثر نفاد صبر من كلوب في تحقيق أهدافنا وأمانينا القومية . كانت هذه الحيوية تتطلب الكثير من اليقظة والحذر . فبالرغم من أنه جندي صالح مثالي ، كان لكلوب وقد قارب الستين عاما ، مفاهيم عسكرية عتيقة الطراز بعض الشيء . فلم نكن غالبا على اتفاق حول دور الدفاع الاستراتيجي للبلاد الذي كان يريد أن يقيد الجيش به ولا سيما حول مفهومه الخاص بدفاعنا ضد اسرائيل . كان هذا هو المظهر الثاني من مظاهر خلافنا .

نقد سبق لي أن قلت بأن للاردن ، أطول حدود مشتركة مع اسرائيل بين سائر الاقطار العربية ، أي حوالي ستمائة وخمسون كيلو مترا ، لقد أصاب العالم العربي بانشاء اسرائيل ، ضربة قاصمة . فالجيوش العربية التي كان يعوزها التدريب والتي كانت سيئة التسليح وينقصها التنسيق والاستراتيجية المشتركة ، قد لحقت بها المذلة والاهانة .

في الواقع كان الاردن وحده هو الذي خرج سليما . اذ على الرغم من أن الجيش العربي الاردني لم يكن قد أعد للمعركة سوى أقل من أربعة آلاف وخمسمائة رجل ، فقد وفقنا في انقاذ معظم الجزء من فلسطين الذي خصص للعرب ، وحققنا ما كان يعتبر حلما في نظر العالم العربي ، ألا وهو صيانة القدس والاماكن المقدسة . كان رد الفعل من جانب البلاد العربية الاخرى غير معقول . فمعظم الزعماء العرب المسئولين عن الهزيمة والذين سحق قلوبهم الحسد ورغبوا في ايجاد كبش فداء ، كانوا يقذفوننا بجحيم من دعاياتهم ، ويتهموننا بمسئولية الهزيمة . وكانت مصر على رأس المفترين .

أما حجتهم فهي أن كلوب الانكليزي هو الذي كان يقود الجيش

مهنتي كملك

العربي الاردني : كان عذرا سهلا مريحا هينا لهذه الدول العربية انني لم تجرؤ على القتال ، ولكن الدرس قد أفادنا فقد أدركنا أنه لا مجال بعد الآن اطلاقا لترك المبادرة بين أيدي اسرائيل . كان ذلك في عام ١٩٥٦ .

كنت أرى أنه علينا في حالة نشوب حرب أن نؤمن دفاعنا على طول الحدود الاسرائيلية - الاردنية وأن نصمد مهما كلف الامر حتى الموت . لقد فكرت بأنه من الوهم ، اذا لم نقل من باب الانتحار ، أن نحدد ، كهدف اجيشنا ، الدفاع عن سائر حدودنا ، وأن نقاتل قتالا دفاعيا فقط ، لان قوة صغيرة العدد كقوتنا لا تستطيع أن تدافع عن حدود طويلة كحدودنا .

لذلك قررنا أن نؤمن التدريب العسكري لجزء من السكان المدنيين أسميناهم في البداية (حرس الحدود) ثم الحرس القومي أما مهمتهم فتقوم على الدفاع عن الحدود لكي تتيح للجيش الاكثر تدريبا وتجهيزا ، في حالة قيام العدوان ، توجيه ضرباته في نقاط محددة .

بدأت فكرتي تسير في طريقها . اذ أصبح الحرس القومي في ذلك الحين ضعف عدد القوات المسلحة النظامية ، وغدا مجهزا تجهيزا مساويا لها . ولكن ذلك لم يكن كافيا .

وفي رأيي أن استراتيجية دفاعية صرفة لا تستطيع الا أن تتسبب في هزيمتنا . فالعدو سيراغي جانب التروي وامعان النظر مرتين قبل أن يهجم اذا ما كان قانعا بأن الرد الشديد سيتلو غاراته .

وكننت أيضا مقتنعا بأن علينا أن نرد بقوة على غارات المغاوير (الكوماندوس) الاسرائيليين على القرى العربية . فلطالما عبر اليهود حدودنا سرا وأحرقوا البيوت والقرى وقتلوا السكان العرب العزل .

مهنتي كملك

لقد كنت من أنصار الرد الفوري ، أي أنه كلما ارتكب الاسرائيليون عدوانا توجب علينا أن نضرب هدفا مختارا في الجانب الاخر .

لقد أدانت منظمة الامم المتحدة الاسرائيليين . ولكن اليهود لم يكونوا ليكثرثوا بذلك الا قليلا . مما جعل الناس يسفرون من جنودنا . ورويدا رويدا ولكن بصورة مؤكدة ثابتة ، بدأت تنشأ هوة بين الشعب والجيش .

وعبثا أبنت وشرحت كل ذلك لكلوب . فقد كان الجنرال يواصل النصيح بمراعاة جانب الحكمة والحذر . كان يحبذ تراجع قواتنا الى الضفة الشرقية في حالة قيام هجوم اسرائيلي ، ريثما تأتي الامدادات ، لشن هجوم معاكس . وهذا يعني بوضوح احتلالا يهوديا للأراضي الفلسطينية التي ضمت الى الاردن والعودة الى الحدود الاصلية . كان ذلك غير معقول . ولكن على الرغم من تحسن طاقاتنا العسكرية التي أتاحت لنا أن نحدد خطا دفاعيا على الارض الفلسطينية أكثر ايغالا الى الامام مما قدره كلوب ، فاننا مع ذلك قد فقدنا جزءا كبيرا من أراضينا .

ومع أن كلوب كان يعرف أن مليون عربي قد طردتهم اسرائيل من الاراضي التي ولدوا فيها فانه لم يستطع أن يفهم بأن اسرائيل اذا ما اخترقت الاراضي الاردنية لا سيما في الضفة الغربية ، سوف لن يستطيع الاردنيون استرجاع هذه الاراضي . ولقد برهنت حرب عام ١٩٦٧ ، بعد أحد عشر عاما ، أنني كنت محقا فيما ذهبت اليه .

لقد ناقشنا طويلا أنا وكلوب ، هذه النظريات الدفاعية ، خاصة وأننا علمنا بأن الذخائر كانت تنقصنا . فاذا صح أن نظريته يمكن تبريرها في بعض النقاط ، فانه يبقى أن زمن النظريات قد ولى ، لان الامر يتعلق بشرف الامة أو بالعار الذي يلحق بها .

عندما غدت هدنة الامم المتحدة في عام ١٩٤٨ حقيقة واقعة ،

مهنتي كملك

كانت إحدى الشروط الرئيسية تنص على أنه لا يحق لأي من الأطراف المعنية أن يزيد من طاقاته العسكرية ، وإذا كانت بريطانيا التي كانت ملتزمة بتزويدنا بالسلاح ، قد أوقفت مدّنا به فإن إسرائيل كانت تتلقى السلاح الذي تحتاج إليه ، حتى أنها أوصت على كميات كبيرة منه في المعسكر الشيوعي . وهكذا لم يغير قرار حظر توريد السلاح من الأمر شيئا .

قلت عندئذ لكلوب : « لماذا لا نستطيع أن نحصل على مزيد من كميات السلاح ؟ » .

لقد كنت أعرف أن جوابه سوف يكون متسما بالحيرة والارتباك والضيق . لأنه كان قد سبق له أن طلب ذخيرة من لندن ، وأنه في عام ١٩٤٨ كانت سفينة محملة بالمعدات متجهة نحو شواطئنا قد أعادها البريطانيون ومنظمة الأمم المتحدة من حيث أتت ، عند بدء سريان مفعول قرار حظر السلاح . وكنت أعرف أيضا بأنه كان يحض بريطانيا العظمى على إرسال مزيد من السلاح والذخيرة إلينا

لقد بذلنا كل ما في الوسع عبثا في سبيل الحصول على المزيد من الذخيرة من الحكومة البريطانية لأن أسلحتنا جميعها من صنع بريطاني . ولكن لندن كانت تتعلل دوما بضرورة (توازن القوى) بين جميع الاقطار العربية من جهة وبين إسرائيل من جهة أخرى . وهكذا كان الاسرائيليون يستمرون في تلقي السلاح من فرنسا ومن بلاد أخرى ، أما نحن فكنا نحس بأننا موضع الهزاء والسخرية .

فما دام أن بريطانيا ترفض أن تزودنا بالسلاح ، فأنني لا أستطيع ، مراعاة لمقتضيات الامانة ، أن ألوم كلوب على رغبته في أن يحصر مهمة جيشنا في دور محض دفاعي . لقد كان والحالة هذه ، محقا في اعتقاده بعدم قدرتنا على الدفاع عن حدودنا بصورة ملائمة . ومع ذلك فإن وجود الجنرال في بلادنا ، مذموما ومطعوننا في شخصه من قبل الكثير من الناس ، قد أصبح عاملا باعثا على الفلق الاكيد . لقد كنا خاضعين للاجنبي ، فإذا كان كلوب ، بصفتد

مهنتي كملك

جنرالا ، لا يستطيع أن يؤمن لنا مخزونا كبيرا من السلاح والذخيرة فهو ليس خليقا ، بأن يسخو علينا بنصائحه ومشوراته حول التكتيك العسكري الذي نعتمده . انظر ماذا حدث منذ رحيله ، لقد ازداد مخزوننا من السلاح ازديادا كبيرا ، واستمد الجيش العربي الاردني قوته من تطبيق هذه البديهيّة العسكرية ألا وهي : زوّد الجندي بالوسائل الضرورية وبالسلاح الملائمة .

ولقد حاولت أيضا أن أجهّز الاردن بقوة جوية خاصة به اذ لا يعقل أن نكون تابعين لبلد أجنبي من أجل تأمين الدفاع الجوي لسماثنا ضد عدو كاسرائيل مجهز بقوة عسكرية جوية هامة . ان وضعنا كهذا لا معنى له . فما دام أن الجنرال كلوب عاجز عن تغيير هذا الواقع ، فإنه سيضجع الضباط العرب والبريطانيين على قبول فكرة التخلي عن جزء من التراب القومي في حالة وقوع هجوم . لقد كان يؤكد أكثر من مرة في المحاضرات التي كان يلقيها على الضباط بأن اسرائيل بحكم أنها أقوى من العرب ، فإن من الوهم أن نقاتل على الحدود . وانني أذكر مرة أنني استشطت غضبا عندما سمعته يشرح علنا نظرياته الدفاعية حول الضفة الغربية .

كانت المشاكل تتراكم على مر الشهور . لقد كنت مصمما على انشاء جيش قوي متوازن يدعمه غطاء جوي هام ، وقد كان تحقيق ذلك مستحيلا ، ما دام كلوب بيننا ، فكان عليّ اذن أن أنفصل عنه .

هنالك إحدى المعطيات التي بدأت في الظهور . كانت الشيوعية تتغافل ببطء في الشرق الاوسط . وكانت القاهرة تتهمنا بأننا (دولة استعمارية) . لم يكن هنالك خيار آخر . ان كلوب يجب أن يرحل .

مهنتي كملك

لقد بدأت مصاعبكم الداخلية الحقيقية بعد رحيل كلوب •

كانت الاثنى عشر شهرا التي تلت رحيل كلوب ، فترة تجارب تبعث على القلق أحيانا •

فقد ولى الآن عهد النفوذ البريطاني القوي في سائر شئوننا الداخلية • لقد كنت سعيدا أن تستعيد بلادي استقلالها ، ولكنني كنت أعرف أن الفراغ الذي تركه رحيل ضباط الجيش البريطاني ، سوف يحدث ما لا مخلص منه من التعقيدات والمضاعفات • ولسوء حظنا فقد كنا مضطرين أن نبدأ من الصفر • كان علينا قبل كل شيء أن نجد الرجال القادرين على إدارة بلادنا وبشكل خاص قيادة جيشنا • لقد كان الوجود البريطاني من العمق والشمول بحيث أن ضباطنا لم تتح لهم امكانية اثبات مقدرتهم في تولي المناصب ذات المسؤولية • فكان علينا أن نجري تجاربنا الخاصة وما يستتبع ذلك من ارتكاب ما لا مفر منه من الأخطاء • وعلى المسرح السياسي كانت تواجهنا نفس المشكلة ، لأن حكامنا منذ سنين ، قد توقفوا عن التفكير في الأردن كبلد مستقل • فقد جرت العادة في وقت الأزمات أو الخلافات أن يذهبوا لزيارة السفير البريطاني من أجل استشارته •

على مر الشهور ازدادت الضغوط • وبعد سنة من رحيل كلوب ، في ربيع عام ١٩٥٧ ، تمكنت من القضاء في الوقت المناسب على مؤامرة أعدت ببراعة ، عرفت بتمرد الزرقاء ، كانت ترمي الى اغتيالي لخلق الاضطراب والفوضى في الأردن وعلان الجمهورية • كان يعني نجاح هذا الانقلاب (بداية النهاية) بالنسبة للأردن •

كيف أوشك أن ينجح عصيان بهذه الأهمية ؟ كيف وجدت نفسي وحدي تقريبا في خط اطلاق النار بين فريقين من الضباط ؟ كيف

مهنتي كملك

استطعت أن أنجو بينما كان الرصاص يلامسني عن قرب وكنت أحس برائحته وحرارته ؟

ان الاجوبة على هذه الاسئلة تستهوي القلب • كما أن القضاء على المؤامرة يدخل في باب المعجزات • هنالك أمر مؤكد وهو أن تمرد الزرقاء الذي كاد أن يكلفني حياتي يشكل ، بما يدعو الى انسخرية والتهكم ، نقطة تحول في تاريخ الأردن • بعد مرور العديد من السنين تحملني قضية الزرقاء على التفكير في أنها كانت بمثابة تطهير لجرح كان يتقيح وينخر بالتدريج قلوب أكثر الرجال اخلاصا •

كانت مؤامرة سياسية ، ولكن في هذه المرحلة من تطور الأردن ، كان الجيش يحتل مكانا بلغ من الأهمية حدا لا بد معه ، على الرغم من كل شيء ، أن يحسب له حساب • وقد نجح عملاء الاجنبي المأجورون ، ذوو البراعة الشيطانية في أن يحملوه على التدخل في النزاع • كان انعدام الخبرة لدينا ظرفا ملائما ، وكان يكفي لذلك ايجاد الضباط المترددين والمنعدي الخبرة •

لقد كان انعدام الخبرة هذه نفسها تطبع رجالنا السياسيين بطابعها • وكنت ما زلت أتعلم مهنتي كملك بصبر وأناة وأتولى تقريبا جميع المسؤوليات طوال فترة الانتقال هذه • كان الزعماء السياسيون يعتمدون خلال مدة طويلة على المساعدة الخارجية ، فاذا بهم يجدون أنفسهم متخلفين بالنسبة لشباب مثلي كانوا مقتنعين بأن ساعة التحرر من نير الاجنبي قد حانت •

فقررت اذن بأن السياسيين وضباط الجيش الشبان يجب أن تتاح لهم الفرصة لاقامة الدليل على شجاعتهم • لقد كنت أعرف أنه يمكن أن يحصى بينهم طائفة كبيرة من اليساريين ، ولكنني فكرت بأن معظمهم يؤمنون بمستقبل بلادهم • فوددت أن أرى كيف يتحملون مسؤولياتهم •

مهنتي كملك

وصل الوطنيون الاشتراكيون الى الحكم اثر انتخابات جرت في نهاية عام ١٩٥٦ . كان أمين عام الحزب ، سليمان النابلسي ، قد هزم في منطقته الانتخابية ، ولكن بوصفه زعيما لحزب فائز أصبح رئيسا للوزراء . كان النابلسي من اليساريين ، ولكنني اعتقدت أنه لا بد من منحه الفرصة لتجربة حظه . مضى كل شيء في البداية بلا مشاكل . ولكن ما لبثت المنازعات أن ظهرت بين الملكية والحكومة .

ومن الغريب أن يعتمد بعض السياسيين الفائزين في انتخابات حرة ، الى التآمر على شخصي بدلا من الاكتفاء بتأييد وتشجيع الاصلاحات لبلادهم . وفي الواقع كان أول « اصلاح » لهذه الجماعة القائمة على السلطة هو القضاء على الملكية . ولأسباب غامضة يدخل فيها الطمع والجشع ، اتجهت نحو عبد الناصر والشيوعيين الذين كانوا يعرضون عليهم على ما أظن « وجهات نظر مستقبلية أفضل » . كانوا مصممين على عدم التراجع أمام أي شيء . ففي (٢١) كانون الاول (ديسمبر) مثلا ألقى رئيس وزراء الاردن خطابا في مديح الرئيس عبد الناصر استغرق أربعين دقيقة دون أن يشير في أية لحظة الى دور الاردن في الشرق الاوسط . كان هنالك ما هو أسوأ . اذ قبل استلام النابلسي للسلطة بأربع سنوات ، كان الاردن قد أصدر مرسوما (بمكافحة الشيوعية) في عام ١٩٥٣ يتضمن منع صدور الصحف الشيوعية . ومع ذلك في (٣) كانون الاول (ديسمبر) أقر النابلسي وأصحابه مشروع قانون يسمح بصدور جريدة (الجماهير) الشيوعية . كما وافق أيضا على منح مكتب لوكالة تاس في الاردن . فبدأت النشرات والافلام السوفياتية في الظهور .

وغدت دعايات الاقطار المجاورة أكثر تهديدا ووعيدا . ونشوءت قضية كلوب ، وجرى تأويلها بطريقة خادعة مأكرة « فقد كنت أنا الذي قرر عزل كلوب . ولكن سائر الطامحين الطامعين جعلوا ينسبون لانفسهم مسئولية هذا العمل . كانوا يزعمون بأنهم هم

مهنتي كملك

الذين طردوا (الامبريالية) وجاءوا بالحرية الى الاردن . كانوا في اقتالهم من أجل السلطة وفي تعجلهم على استيفاء (مستحقاتهم) يشوّهون ويفسدون ملامح التاريخ الى الحد الذي وصفوني فيه (بعميل للامبريالية) ، واعتبروني العائق الوحيد أمام التوصل الى المزيد من الحرية .

لقد جرى تجاهل تام لمواقفي من قضية السويس !

هذه الحركة الموجهة ضد القصر ، أصابت عدواها بعد قليل ، ضباط الجيش المياليين الى اليسار . انني لا ألومهم تماما . فقد كانت الدعاية مكثفة جدا . وكانت الاموال الهائلة قد وزعت على سبيل الرشوة . كما وعد السوفييات علانية بتقديم السلاح الى الجيش ولكن فقط (بعد رحيل حسين) .

لقد كنت قلقا طوال أشهر عديدة ، ولكنني لم أتبين أننا سائرون نحو صعوبات خطيرة الا خلال الاسبوع الاول من عام ١٩٥٧ اذ بينما كنت في احدي الليالي في القصر ، طلب مقابلتي أحد ضباطنا الذي كان معينا في منصب في بيروت . كنت أعرفه جيدا ، فقد أرسل الى لبنان في مهمة خاصة . عندما دخل مكنتي ، وقبل أن أدعوه الى الجلوس ، قال لي : « يا صاحب الجلالة انني لا أريد أن أخلق مشاكل حيث لا وجود لها . ولكن سلوك ضباطنا في بيروت ودمشق يقلقني كثيرا . لقد رأيت عسكريين ينفقون ثروات تتجاوز رواتبهم بمراحل . وهم دائما في صحبة الروس والمصريين »

سألت الضابط الذي سأمسك عن ذكر اسمه ، عن السبب الذي جاء به الى عمان ، فأجابني بأنه طلب اجازة اسبوع بحجة زيارة أسرته ، في حين أنه في الواقع كان يود المجيء لمحدثتي .

وأضاف : « يا صاحب الجلالة ان ما يجريني هو أنني لا أستطيع أن أزودكم بأي برهان مادي على ما أقوله . فالامر يشبه ما يحدث في رواية بوليسية حيث لا تستطيعون اللجوء الى الشرطة الا لانكم

مهنتي كملك

لا تملكون اثباتا على ما يشغل بالكم • ولكنني أفكر وأعتقد
مخلصا بأن من واجبي أن أحذركم وأن أقدم لكم هذه القائمة من
الاسماء • ماذا تريدون أن أفعل الآن ؟ •

أمعنت الفكر قليلا ثم طلبت اليه العودة الى بيروت منذ صباح
اليوم التالي ، والاستمرار في مراقبة هؤلاء الضباط • واقترح
عليه أن يستعين بعميلين أردنيين كان إخلاصهما لي مؤكدا
واصلنا اذن مراقبة نشاط بعض كبار الضباط ورجال السياسة
الذين كانوا ينفقون عن سعة ، خارج الاردن •

ولسوء الطالع جرى توقيف هذين العميلين بينما كانا يأخذان
رقم سيارة أردنية كانت واقفة أمام فندق السان جورج في بيروت •
كانا يرتديان ألبسة مدنية ولكن نظرا لانهما كانا يحملان سلاحا ،
فقد أرغما على اثبات وضعهما كضابطين أردنيين ، ثم رحلا الى
البلاد • ولكن عن طريق مصادر أخرى ، بلغتني تصرفات أخرى
مستنكرة • كان عملاء من السوفييات والمصريين يحاولون بالفعل
وأحيانا بنجاح ، توريط شخصيات كبيرة في الجيش وأعضاء في
الحكومة • وكان بينهم اللواء علي أبو نوار رئيس هيئة أركان
القوات المسلحة الذي كان صديقا مقربا • فقد بلغنا
أنه كان يزور دمشق بانتظام ويقابل فيها باستمرار الملحق
العسكري السوفياتي • كان عبد الله الريماني وزير الدولة للشئون
الخارجية بين المتأمرين • كان عضوا في حزب البعث الذي كان ميالا
لشيوعية الحديثة في ذلك العهد • وكان هو ووزراء آخرون يتوجهون
ليلا الى دمشق بانتظام لا سيما بعد الجلسات الهامة لمجلس
الوزراء الاردني ولا يعودون الا في صباح اليوم التالي • وقد أسر
عملاء في المخابرات العامة الى رئيس ديواني بأنه (لو فتح رجال
الشرطة حقائب بعض أعضاء الحكومة على حدود الرمثا بين
سورية والاردن لوجدوا فيها أموالا) •

لقد أدخل الخونة ما يزيد على المائة ألف دينار أردني الى البلاد
بعضها لانفسهم والباقي لاغراض الفساد والرشوة • لم نفتح

مهنتي كملك

أبدا حقائبهم لان عملا كهذا مع وزراء أمر في غاية التعقيد •
فاكتفينا بمجرد الانتظار والترقب •

ولا أريد القول بأن الجيش بأسره قد انهيار ، فالامر كان على
العكس • ولكننا بلغنا نقطة لم يعد فيها الكثير من الضباط ورجال
السياسة يعرفون أين يتجهون • بعضهم كانوا من الوطنيين
المخلصين الذين كانوا يعتقدون بأن الاردن أصغر من أن يتماسك
ويستقيم أمره لوحده • وآخرون قرروا أن يقدّموا أنفسهم لدول
عربية أخرى • وبعبارة أخرى عرضوا خدماتهم على الشيوعية •

بدأت تسوء حال جيشنا الذي كان فيما مضى فعلا ، اذ انقسم
بعد قليل الى جماعات متعارضة لكل منها معتقداتها السياسية
الخاصة • تذكر أن العالم العربي كان في حالة غليان • فقد غزا
السلاح الشيوعي مصر ، وبدأت الشيوعية تتخذ من الشرق الاوسط
مقاما لها بحجة مساندة العروبة • هؤلاء العملاء الشيوعيون كانوا
المحرّضين لمعظم الاضطرابات • وكلما تفاقمّت الازمة عمدوا الى
تشجيع الفتن في الشوارع • لم تكن هذه المظاهرات جدّية في
البداية ، مع هذا الفارق التقريبي وهو أن قوات الامن كانت على
الغالب ترفض التدخل •

لقد كافح عبثا مدير قوات الامن الذي كان وقتئذ بهجت طيارة ،
من أجل الاحتفاظ برقابة وإدارة هذه الدائرة الحيوية التي أقام
فيها بعض الوزراء ورئيس الأركان عملاء لهم ، لا سيما بين
الضباط الذين كانوا يتلقون رشاوى جسيمة ، ويرفضون اطاعة
تعليمات رؤسائهم • لم يكن الشرطي البسيط يدري بما يحدث •
فهو لا يتلقى بداهة التعليمات من طيارة وإنما من رئيسه المباشر
الذي كان على الغالب خاضعا لرجال كعلي أبو نوار • فعندما يقال
له بأن لا يتدخل في شغب ، كان واجبه يقضي عليه بأن يطيع
الواو امر وليس بأن يخالفها • وبعد استقالة طيارة الذي كان يرمي
من وراء ذلك الى الاعراب عن عدم رضاه ، عن سائر أشكال التدخل
الخارجي ، ازدادت الامور سوءا •

مهنتي كملك

أقبل الربيع حائرا مترددا • كان ربيعا رائعا كما هو الحال عموما في عمان بخضرتة وسمرته وألوانه ونفحاته العطرة الخاصة به التي تجعل منه أجمل فصل في الشرق • ومع ذلك فقد كان ربيعا كئيبا • كان الجو خانقا عسير الاستنشاق ، مع ازدياد مستمر في حدته • كان المحرّضون يطوفون في الشوارع في جماعات منظمة ويستحثون الجمهور على الشغب والفتنة ، الامر الذي كان يثير اعصاب الحكومة • كان ينادى بنفس الشعارات في أهم طرقات المدين الكبرى : « لقد طرد عبد الناصر الامبريالية خارج مصر ، فاقصدوا بمنقذ العالم العربي » •

ان السهولة التي كان مثيرو الشغب هؤلاء ينقلون بها دعواتهم كانت عجيبة • فقد كان من المستحيل تقريبا مكافحة كل هذا العدد من الاعداء في سائر نقاط الحياة العاملة في البلاد • وفي مواجهتنا ، كان يقف جيش اسرائيل القوي الذي كان من الصعب جدا صده من قبل جيش نفذت اليه العقائد السياسية • ولقد استولى عليّ القلق • اذ كانت بعض الشعوب العربية الشقيقة تطعننا في الظهر بينما كانت بلادنا على شفا حرب أهلية •

كان التوتر يزداد بين الحكومة وبينني ، كلما ارتفعت حدة التوتر في البلاد • ولما كان بعض أعضاء الحكومة مأجورين لدمشق وللعلماء السوفيات في سورية ، فقد كان أحد أهدافهم أن يعترف الاردن بالصين الشعبية وبروسيا • الا أنني كنت أرفض ذلك بحزم حتى أن صلاح البيطار وزير الخارجية السوري ، وجه رسالة الى الحكومة الاردنية تتضمن اقتراح تبادل علاقات « أكثر ودية » مع الروس والشيوعيين •

كان النابلسي يجمع وقتئذ في يده منصبي وزير الخارجية ورئيس الوزراء • ولكنني كنت أرتاب في الزيمائوي وزير الدولة للشئون الخارجية أن يكون المحرّض على هذا المشروع • كانت الاتصالات بين الزيمائوي والسوريين من التكرار والكثرة الى الحد الذي كان

مهنتي كملك

من المؤلف أن تسمع من يقول بأن (مركز وزارة الخارجية الاردنية يقع في دمشق) •

عرض النابلسي اقتراح البيطار على الحكومة ، الامر الذي أثار غيظي وحنقي • لم أكن أستهجن مضمون هذه الرسالة والتلميحات الواردة فيها فحسب ، بل اعتبرت أنها وقاحة من جانب صلاح البيطار أن يتدخل في الشؤون الداخلية الاردنية • لذلك قررت أن أرد عليه شخصيا • وبعد أن حررت جوابي بعثت به الى وزارة الخارجية السورية ، بالطريق الطبيعي ، الا أن الحكومة عارضت في ذلك •

لقد بلغ السيل الزبي • كتبت عندئذ الى رئيس الوزراء لالفت نظره بعبارات شديدة اللهجة الى الاخطار والتهديدات التي جعلتها الشيوعية تحوم فوقنا ، ولأصر أيضا على قناعتي بأن الاردن ينبغي أن يسلك طريقا مختلفا اذا أرادت بلادنا أن تواصل الدفاع عن نفسها • وقد أضاف كتابي الى ذلك أيضا : « أن الحرب الباردة الناشئة حاليا بين المعسكرين العالميين قد أدخلت الى بلادنا بعض المبادئ والمعتقدات التي تتناقض تناقضا صريحا مع تقاليدنا • كما تغلغلت بعض المنظمات الغريبة بيننا ، فاذا لم توقف هذه المبادئ وهذه المعتقدات وهذه الآراء التي لا يمكن تبريرها عند بعض الحدود فلسوف تلحق الازى بمجد أمتنا وهيبتها • ان الامبريالية التي هي في طريقها الى السقوط والهزيمة في الشرق العربي ، سوف تحل محلها امبريالية جديدة • فاذا ما خضعنا اليها فلن نتمكن أبدا من الافلات منها أو القضاء عليها • نحن نشعر بخطر التسلل الشيوعي في بلادنا العربية ، كما أننا كشفنا تهديد أولئك الذين يزعمون أنهم من القوميين العرب في حين أنهم لا يمتون الى العروبة بصلة ولا يعرفون ماهيتها » •

« فعلينا أن نقضي على الفساد والدسائس بين صفوفنا • ولسوف لن نسمح اطلاقا بأن تكون بلادنا مركزا لحرب باردة يمكن

مهنتي كملك

أن تتحوّل في أية لحظة الى حرب حقيقية • اذا سمحنا نحن العرب للآخرين بأن يندسوا بين صفوفنا • اننا نؤمن بقوة وحزم ، بحق بلادنا في الحياة فيجب أن تكون أسسها متينة وقائمة على ماضيها المجيد وعلى آمال المستقبل • اننا لا نستطيع أن نعد الدمار لبلادنا وشعبنا بفتح ثغرة للتسلل الشيوعي • هذه هي الآراء التي نحيلها الى فخامتكم بوصفكم مواطننا ورئيسا للوزراء واننا لنا أمل في أنكم وزملاءكم الوزراء سوف تتخذون موقفا يؤمّن مصلحة هذا البلد ويضع حدا لدعاية وشغب أولئك الذين يودون أن يندسوا بين مواطنينا وأن القوانين والنصوص التي تحكم البلاد حاليا سوف تزودكم بالوسائل اللازمة لهذه الغاية • كما أن وجدان الشعب سوف يمد لكم يد العون ويدعمكم في جهودكم » •

عندما علمت بأن النابلسي قد استلم رسالتي ، قمت بنشرها على الملأ • فاستقبلها بالترحاب والتأييد معظم أبناء الشعب الاردني ، الفضلاء والمتدينون من الناس الذين يشكلون الهيكل الاساسي للبلاد • أما حكومتي فلم تكن من هذا الرأي • بعض الوزراء عمد فورا تقريبا الى الادلاء بتصريحات الى الصحف والى وكالات الانباء الاجنبية ولا سيما الى وكالة تاس والى وكالة الشرق الاوسط القاهرية • وفي بضع ساعات نشرت الصحافة مقالات حول النزاع القائم بين القصر والحكومة •

في اليوم التالي من استلام رسالتي ، وهي حجر الزاوية لكل ما سيتلو من أحداث ، التمس النابلسي مقابلي • ووصل برفقة اللواء علي أبو نوار والريماوي وبعض الوزراء اليساريين الآخرين • كانوا يريدون أن (أخفف) من لهجة رسالتي •

قلت لهم : « لا تأملوا في ذلك • فان ما كتبته لهو توجيهات سياسية تصح على الحكومة الحالية وعلى الحكومات التي ستعقبها » •

استغرقت المقابلة حوالي الساعة رفضت خلالها أي تنازل مهما

مهنتي كملك

صغر شأنه • وقد دارت المناقشة في جو من الهدوء المطلق • لان النابلسي كان يعلم بأنه ما زال لديه ورقة اللعب الاخيرة • فقد كان يعتزم اجراء اتصالات ترمي الى الاعتراف بالصين الحمراء وانشاء علاقات دبلوماسية مع السوفييات • صحيح أنني أستطيع معارضة اجراءات كهذه ، ولكن النابلسي كان يأمل في هذه الحالة في أن أتعرّض من جديد للهجوم والاتهام بأنني (عميل امبريالي)

وهذا ما حدث بالضبط • فقد نشبت حركات تمرد نظمها بأسلوب علمي ، سياسيون من المناوئين للنظام الملكي وعناصر من الجيش • ومرة أخرى رفضت قوات الامن أن تتدخل • وخطب رئيس الوزراء سليمان النابلسي في جمهور لا يحصى عدده ، احتشد في ساحة عمان الرئيسية ، وكان واقفا على يساره ، عيسى مدانات أحد مثيري الفتن الشيوعيين المعروفين • أليس هذا موقفا غريبا من رئيس حكومة لم يمض الا بعض الوقت على استلامه رسالة تأمره بوضع حد للتغلغل الشيوعي ؟

في الثامن من نيسان (ابريل) تأكد لي أن سرية مصفحات قد طوقت العاصمة واحتلت النقاط الاستراتيجية • فلم يكن ليستطيع أحد أن يدخل المدينة أو يخرج منها دون أن يمر أمام مدافعها •

فأثار ذلك اضطرابي لانه كان يعني أن خطرا وشيك الوقوع يهدد الاردن وأن القصر يمكن أن يتعرّض للهجوم • كان علي أبو نوار يعد انقلابا عسكريا • فبعثت استدعيه وأنا أبذل مجهودا كبيرا في السيطرة على الغضب الشديد الذي كان يتملّكني • وعندما مثل بين يدي سألته : « ما معنى هذه البلبلة والفوضى ؟ » فأجابني بلهجة معسولة : « انها عملية روتينية تتعلق بتفتيش السيارات التي تدخل الى عمان أو تخرج منها » •

لقد شقّ عليّ أن احتفظ برزانتتي ووقاري ! ازاء ما سمعته منه فاقترحت عليه بلهجة تتسم بالتودد وعدم الكلفة أن يسحب القوات • فقبل وانصرف • كنت عنئذ وحيدا ، وحيدا حقا • كان

مهنتي كملك

عني ، ولأول مرة في حياتي ، أن أقرر وحدي أن أقرر لنفسي ولشعبي ووطني ، وأن أقرر بسرعة . أن قراري سوف يلزم الأردن بأسره الذي ارتبط مستقبله بشخصي . لم أكن قد بلغت الثانية والعشرين بعد . كان الموقف يسوء من ساعة إلى أخرى . ولم يكن لدي إلا القليل من الأصدقاء القادرين على تقديم الدعم والمساندة لي . كانت الحكومة تناصبني العداء علانية .

في اليوم التالي سحبت السيارات المصفحة . ولكنني كنت أعلم بأن ذلك لم يكن سوى هدنة قصيرة الأمد . ثم حانت ساعة العمل . في العاشر من نيسان (ابريل) دخلت إلى مكتبي وقلت للتهلوني رئيس ديواني : « هذا وقت عزل الحكومة » .

أملت كتابا موجها إلى النابلسي ضمنته أمري بأقالة الحكومة حمل التهلوني الكتاب إلى مكتب رئيس الوزراء . كانت الوزارة مجتمعة عندما وصل . رجا التهلوني رئيس الوزراء أن يخرج . وعندما أصبحا وحيدين ، نقل إليه مضمون الكتاب دون أن يسلمه إياه خشية أن يستخدمه لأغراض الدعاية السياسية . عندئذ بعث الوزراء يستدعون علي أبو نوار رئيس الأركان وضابطين لاستشارتهم على ما يبدو . قال لهم عندئذ أبو نوار :

« عليكم بالاستقالة ، لا لشيء إلا لأن الملك سوف لن يكون في مقدوره تشكيل حكومة بدونكم . قدموا استقالتكم ! وسأعرف

كيف أرغمه على استدعائكم » .

بعد بضع ساعات وصل النابلسي إلى القصر وقدم لي استقالته وقد عني في كتابه أن يشير إلى أنه فعل ذلك « بناء على أمر جلالته » . مؤملا بلا شك أن يستغل ذلك فيما بعد .

في هذا المساء جاء لزيارتي خالي الشريف ناصر يرافقه أفراد

مهنتي كملك

آخرون من أسرتي . كان في غاية القلق من الاتجاه الخطير الذي اتخذته الحوادث . ولكن لم يكن يخطر في باله أن تمردا عسكريا وشيك الوقوع .

لم يسلك طريقا ملتويا في أقواله بل صارحني قائلا : ما كنت لأود أن أحدثكم بهذا الأسلوب المباشر يا صاحب الجلالة ، ولكن يبدو أنه قد ضاع كل شيء . ومن خلال ما تحققت منه ، يتراءى لي أنكم الآن قد ارددتم وحدة وانعزالا . فهل نبقي ونقاتل أم علينا أن نحزم حقائبنا ؟ ألا ترون أن من واجبنا أن نفكر في سلامة ومستقبل أسرنا وأن نحاول وقايتها من كل خطر ؟

فرددت عليه قائلا : « لا أريد الرحيل . يجب أن أبقى . وانك تعرف بأنني أومن بما أفعل » .

لم يكن ذلك من باب التصلب في الرأي . فقد كان لدي شعور بأنني أفهم شعبي وأدرك ما يريد . كنت مقتنعا بذلك . لقد توصلت إلى إقامة علاقات وثيقة معه تتسم بالألفة ورفع الكلفة . وكنت مطمئنا بأنه في فترة الأزمات أو المنازعات تكون مساندته الأخوية لي مضمونة .

« قلت لا لخالي ، لا أستطيع الرحيل . انني هنا لخدمة شعبي وبلادي . وانني مصمم على أن أفعل ذلك حتى النهاية . سأقاتل مهما كانت النتائج » .

مهنتي كملك

كان الوضع في الواقع متوقفا على أحد أمرين : إما أنتم أو هم . .
وعندئذ انتهيتم الى قضية الزرقاء .

لقد كنا وقتئذ في حوالي منتصف رمضان ، وهو بالنسبة اليها فترة صوم . كنت على يقين من أن الدمغل سينفجر قبل نهاية الشهر . كان الرهان في غاية الأهمية بحيث لم يكن من سبيل الى أخفائه . وبدأت أخشى أن لا يتسنى لي شخصيا ولا للاردن أن نحفل بالعيد الذي يشير الى نهاية رمضان . . . انني أذكر اللحظة التي أحسست فيها بمخاوفي الاولى . فقد ذهبت الى وادي الاردن لاستريح بضع ساعات في مزرعة الشريف ناصر . ولما كان محرّم تناول الطعام والشراب أو التدخين حتى الغروب خلال هذا الشهر الفضيل ، فقد كنا جالسين بانتظار غروب الشمس ، لتناول وجبة خفيفة وتدخين سيجارة . وبينما كنا نتذوق أول أقداح الشاي ، تساءلت فجأة :

« متى ينتهي كل هذا ؟ ! » .

كنت متأكدا من شيء : سوف أقاتل حتى النهاية من أجل شعبي . ولكن حكومة النابلسي وعناصرها اليسارية التي يؤيدها عبد الناصر ، كانت قد تسلمت الى كل مكان تقريبا . كانت الدعاية والمناورات الرامية الى تضليل الشعب في آرائه ومعتقداته تصل الى سائر العالم العربي . كان على الاردنيين ، لكي يجدوا عملا أو يقدموا فحفا ، أن ينتسبوا الى حزب . فقد حلت قومية عبد الناصر محل القومية العربية الحقيقية . كان الحزب الشيوعي ينظم الاجتماعات والمحاضرات في الساحات العامة وكان العلم الاحمر يرفرف على الرغم من الحظر المفروض على الشيوعية . كانت الاحزاب تخشى بعضها بعضا وتوزع السلاح على أعضائها كان هنالك سؤال حيوي مع ذلك قد بقي بلا جواب : هل الاغلبية

مهنتي كملك

الساحقة من الشعب التي كانت تتابع هذه الاحداث بنفس الخشية ، ما زالت باقية في الجانب الافضل رعاية لمصلحة الامة ؟ . كانت الاحداث تتطور ببطء وبصورة محتومة نحو المجابهة . لقد ابتهلت الى الله أن يحفظ بلدي وشعبي ودعوته أيضا أن يهيني القوة والصبر والاناة التي لا بد لي منها لكي أقدم خير ما في نفسي .

قبل قليل من استقالة النابلسي في العاشر من نيسان (ابريل) التقت مخابراتنا رسالة غير معقولة ! . كانت موجهة الى رئيس وزراء الاردن وموقعة من الرئيس عبدالناصر وتقول : « لا تدعنوا . ابقوا في أماكنكم . ناصر » .

لقد بدأ اختبار القوة . كان عليّ ، بمساندة العناصر السليمة من الشعب الاردني أن أجابه العناصر التي كفت عن الاخلاص لبلادي . حاولت عبثا بين الحادي عشر والثاني عشر من نيسان (ابريل) أن أشكل حكومة جديدة . فطلبت أولا الى المرحوم الدكتور حسين فخري الخالدي ، وهو وطني عربي كبير من الضفة الغربية ، أن يشكّل وزارة جديدة . ولكن جهوده باءت بالفشل . فقد ضمن النابلسي أن لا يتمكن أي من خلفائه من تشكيل فريق حكومي جديد .

ولعل الثقة المتعجرفة لمعارضي يصورها هذا الحديث الذي سمع في ملهى ليلي في عمان حيث كان النابلسي وأعوانه يقضون سهرة مع علي أبو نوار قائد القوات المسلحة . التفت رئيس الحكومة السابق نحو أصدقائه وسألهم :

- الى من يثول تأييد الشعب ؟

- اليكم .

ثم التفت نحو علي أبو نوار قائلا :

- الى من يثول تأييد الجيش ؟

مهنتي كملك

- اليكم يا صاحب الفخامة • أجاب اللواء •

ويسأل النابلسي متهمكما : من اذن يؤيد الملك ؟

عندما عدل الخالدي عن تشكيل حكومة ، استقبلت عبد الحليم النمر • والنمر كالنابلسي كان عضوا في الحزب الوطني الاشتراكي وكان وزيرا في الحكومة السابقة • كنت آمل أن يكون قادرا على تشكيل فريق أقل ميلا الى اليسار • ولكن الوطنيين الاشتراكيين والمتعاونين معهم ، أمسكوا عنه تأييدهم ما دام يرفض ادخال بعض أنصار الشيوعيين ضمن فريقه • وبديهي أنني لا أستطيع قبول هذا الشرط •

عندئذ اتجه فكري الى سعيد المفتي • الا أن علي أبو نوار وأصدقائه قرروا في غضون ذلك أنهم اذا لم يتمكنوا من الفوز بأن يرأس النابلسي الحكومة الجديدة ، فمن المهارة والفطنة أن يتظاهروا بدعم النمر لكسب الوقت والتخلص مني •

كان ذلك في الثالث عشر من نيسان (ابريل) • بلغت علي أبو نوار أنباء اتصالاتي بسعيد المفتي ، فاستشار السلطات المصرية والسوفيتية في دمشق •

وعلى مهمل ، بدأ علي أبو نوار رئيس الاركان العامة يوجّه المسرح السياسي • فيما بعد ، وفي اليوم نفسه ، قابل أبو نوار السياسيين من أصحاب اليسار ، وتقرر أن يمنحوا تأييدهم لعبد الحليم النمر • الا أن هنالك عائقا كان ما زال قائما : كانوا يعرفون بأنني قد رفضت قائمة الوزراء التي قدمها النمر ، وفي وقت مبكر من بعد الظهر ، استدعي سعيد المفتي الى معسكر يقع على بعد بضعة كيلو مترات من عمان • وعند وصوله ووجه هذا الوطني بالعديد من كبار الضباط • وكان علي أبو نوار أول من تكلم قائلا : « يجب أن تذهب فورا الى الملك وأن تقول له بأن الوضع في البلاد وفي الجيش متفجر بنوع خاص ، واذكر له أيضا بأنه اذا لم تشكل

مهنتي كملك

حكومة تستطيع أن تحوز رضا الشعب والاحزاب ، حتى الساعة التاسعة مساء ، فأنني وزملائي لن نكون مسئولين عما قد يجري من أحداث » •

غادر سعيد المفتي الاجتماع دون أن يتفوه بكلمة ، وقد استولت عليه الحيرة ولحقت به المهانة ، وتوجه توا الى قصر بسمان لينقل الي رسالة العسكريين • قلت له بأن لا يقلق ولم اعتبره مسئولا عن نقل أقوال بهذه الوقاحة • وبالطبع لن أذعن لهذه التهديدات • ولكنني قررت من جديد أن أستدعي عبد الحليم النمر • وناقشت معه طويلا موضوع تشكيل الوزارة • لم يكن عبد الحليم النمر متصليا ، حتى أنه اعترف لي بأن له (أصدقاء) من العسير ارضائهم أو اقناعهم • كان يعتقد بأن الموقف لم ينته بعد الى طريق مسدود • وأن التوصل الى حل ما زال ممكنا • ثم انصرف وقد صمم على التحدث الى رفاقه بهذا الشأن •

تطور الموقف بسرعة • فقد جاء علي أبو نوار الى القصر وتحدث مع رئيس الديوان بحضور سعيد المفتي قائلا بشكل خاص : « اذا لم يبلغ الجيش حتى الساعة التاسعة مساء بأن حكومة قد تشكلت ، فستغرق البلاد في مصاعب جسيمة ستكونون أنتم مسئولين عنها » • وأضاف : « اعتبروا هذا البيان انذارا نهائيا » •

كان من الممكن تشكيل حكومة ، ولكن طرأ حادث بدد آمالي • فقد جاء من الزرقاء فريق من الضباط وبرفقتهم نجل أحد كبار زعماء العشائر في الاردن ، وقدموا كتابا مستعجلا الى رئيس الديوان ليرفعه الي •

فضضت الكتاب • فجعلتني كلماته الاولى أنسى كل ما يعتريني من غم وكرب ويأس • قرأت ثم أعدت قراءة أهم الفقرات وهي :

« ان ضباط الزرقاء الموالين المخلصين لجلالتكم قلقون من الطابع غير المألوف للتعليمات التي تصدر اليهم • لقد بلغنا بأن أوامر

مهنتي كملك

ستصدر لبعض الوحدات لتطويق عمان • يا صاحب الجلالة • ان شكنا وارتيا بنا بمن يتولون قيادة الجيش في ازدياد مستمر • واننا لنلتبس من جلالكم أن تأذنوا لنا بعرض الاوامر التي نتلقاها على جلالكم ، لتتحققوا من سلامتها » •

وقد أشار الكتاب أيضا الى أن بعض الوحدات التي كان يقودها رجال موثوقون وموالون قد نقلت الى مختلف المناطق في الاردن • وكنت على علم بهذه التحركات • كانت الكتيبة المدرعة المعسكرة في الزرقاء ، بقيادة نذير رشيد أحد الاصدقاء المقربين لعلي أبو نوار • يضاف الى ذلك أن ابن عم علي أبو نوار ، معن أبو نوار ، كان يقود لواء المشاة (الاميرة عالية) في الزرقاء • كانت تخالجنى بعض الشكوك في شخصه ولكنني كنت أكثر قلقا من ناحية القادة الآخرين في الزرقاء ، أكبر المعسكرات في البلاد •

جاء لمقابلتي في نفس الوقت تقريبا الشريف ناصر الذي كان يقود كتيبة المدرعات الاولى قبل أن يترك الجيش • قال لي : « يا صاحب الجلالة ، ان ضابطا يود التحدث اليكم سرا حول موضوع عاجل جدا وفي غاية الاهمية » •

فرجوت خالي أن يدخل فورا هذا الرجل الى مكتبي الخاص • كان عبد الرحمن سبيله ضابطا أقدر اخلاصه الى حد كبير • وقد اختير من قبل فريق من ضباط وجنود الكتيبة المدرعة •

سألته : « ما هو الموقف الآن ؟ » •

وبصوت جهوري وعينين تشعان عزما وتصميما بدأ بالقول : « يا صاحب الجلالة ، يوجد خونة في كل مكان • ولكن ليس في كتيبة المدرعات الاولى • كونوا واثقين بنا جلالكم • ان ضباط وجنود الكتيبة يؤكدون لجلالكم أرسخ الدعم والتأييد •

وتابع شرحه لما حدث قائلا بأن قائد الكتيبة جمع بعض الضباط لاعطائهم الاوامر : كان عليهم أن يستعدوا للزحف على عمان

مهنتي كملك

لتطويق القصر الملكي والقبض على الملك • وكانت التعليمات تقضي بالرد على كل طلقة بقذيفة من عيار ستة أرطال اذا ما بدت أية مقاومة • لقد اختيرت كتيبة المدرعات الاولى لهذه المهمة • وقد وعدت بأن المجد سيكون من نصيبها • الا أن الضباط تشاوروا فيما بينهم وأقسموا على البقاء مخلصين للملك وللبلاد ، ثم أعلموا بذلك ضباط الصف والجنود الذين كانوا يثقون بهم • لقد قبلوا جميعا بالتظاهر بمسيرة المتأمرين وقرروا اعلامي بالامر وانتظار تعليماتي • فحمدت الله على أنه ما زال يوجد مثل هؤلاء الرجال في الاردن •

طلبت من عبد الرحمن أن يلتحق بوحدته وأضفت : « نبّه أصدقائك وزملاءك أن يحتاطوا لكي لا يكتشف أمرهم حتى اللحظة الاخيرة • وكونوا على اتصال فيما بينكم والله معكم » •

أمعنت النظر بضع لحظات • كنت شديد القلق • لم أكن أخشى الموت • فلطالما تعرضت له حتى لم يعد يخيفني • ولكن خوفي كان من أجل بلادي ، من أجل شعبي ، من أجل القوات المسلحة التي هي مصدر اعتزازي واعتزاز الاردن • طلبت الى علي أبو نوار أن يجيء لمقابلتي • كان لا بد من الاقدام على العمل قبل أن يزداد الوضع خطورة • وكنت أرغب في أن أضع الامور في نصابها مع قائد القوات المسلحة •

أمعنت الفكر ، وأنا أنتظر قدومه ، في غرابة الطبيعة الانسانية أية قوة تستطيع أن تبرر خيانة علي أبو نوار ؟ كان هذا الرجل صديقا لي • ولقد علقت عليه أملا كبيرا ، ووضعت فيه كل ثقتي هل تغير لانه استسلم للشيوخيين ومعاونيهم من المصريين ؟ لم يكن ثمة شك في أنه كان يزداد خضوعا لتأثيرهم وأنهم أمعنوا في خداعه وتضليله • ولكن هل كان هذا كل شيء ، أليس هنالك قوة أخرى تحثه وتحرضه وتغريه ، هذا الضعف الانساني الكبير ، ألا وهو ظمأ المرء الى السلطة ؟

مهنتي كملك

كنت أعرف بأن الاردن اذا ما انهار ، فسيكون ذلك أقوى ضربة تصاب بها القضية العربية منذ عصور طويلة جدا . فإسوف تهجم إسرائيل حتما وستصبح الاقطار العربية ، أو بالأحرى ما سيتبقى منها خاضعة لتحكم الشيوعيين ومقسمة بين المنتصرين .

سيختفي عندئذ عائق هام جدي أمام المد الشيوعي وستهدد هذه الموجة سائر العالم العربي . حتى أن بعضهم كان يقول : « لتستول إسرائيل على الضفة الغربية فإسوف نستطيع استردادها بقيادة عبد الناصر ومساندة الشيوعيين » . انظر ماذا حدث منذ عام ١٩٦٧ !

كانت الساعة قد قاربت الساعة . ولم يكن قد غمض لعيني جفن فعلا منذ أسبوع . كنت أشتغل ليل نهار في مكتبي . دخل عندئذ علي أبو نوار . وكان يبلغ من العمر أربعة وثلاثين عاما . بالغ الاناقة دوما ، بقامة معتدلة ، وشارب فائق العناية . لم أستطع أن أكظم غيظي عندما رأيته . فأمرته أن يقدم شرحا كاملا لكل ما بلغني من أنباء بعد ظهر هذا اليوم .

وعندما شرع في الكلام ، قرع جرس الهاتف . كان نداء مستعجلا موجها لعلي أبو نوار . في الطرف الآخر من الخط ، كان يقف ابن عمه معن ، قائد اللواء (الاميرة عالية) . سمعته يتكلم بصوت يخنقه الخوف . امتقع وجه علي أبو نوار ، وألقى نظرة خفيفة نحوي ، ثم صرخ في آلة الهاتف : « امنعهم بربك . أوقفهم بأي ثمن . ماذا تصنع المدفعية اذن ؟ أين اللواء الحيازي ؟ » .

ميرت بوضوح تام صوت معن من الطرف الآخر وهو يضيف :

« لا أستطيع عمل أي شيء يعتقد أفراد اللواء بأن الملك قد مات أو أنه سوف يموت في هذه الليلة . لم يعد في وسع الضباط أن يسيطروا عليهم . انه هم يتجهون نحو عمان . ولن يستطيع انقاذ الموقف سوى وجود الملك بينهم » .

مهنتي كملك

نظر علي الي . فانتزعت منه الجهاز وصحت : « سأتي » . وأضفت من أجل علي أبو نوار :

« لا تغادر المكان . سأعود حالا » .

ثم خرجت من المكتب راكضا ، وقلت للتلهوني رئيس الديوان : « ابحت لي عن سيارة بسرعة » .

في الرواق ، قلت لمرافقي العسكريين . وكان أحدهما ابن عمي زيد والآخر قائد حرسى الخاص : « اذهبا فورا وقولا للقوات التي تتجه الى عمان بأنني سليم معافى . واطلبا اليهم أن يعودوا الى معسكراتهم . وسوف ألحق بكما » .

ارتديت بزتي العسكرية وعدت الى مكتبي ، وقلت لعلي أبو نوار . « تعال سنذهب الى الزرقاء » .

وثبت الى سيارتي وجلست بجانب السائق . كان علي أبو نوار وخالي الشريف ناصر يجلسان في المقعد الخلفي . انطلقت السيارة باتجاه الزرقاء تتبعها سيارة قائد الجيش والمرافقين العسكريين لا أعتقد أن غضبي قد بلغ في حياتي من الحدة والشدة ما بلغه وقتئذ .

التقينا بشاحنة على جسر الرصيفة . توقفت السيارتان والشاحنة . كانت الشاحنة ملأى بالجنود والمدنيين الذين كانوا يطلقون صيحات غاضبة ويلوحون ببنادقهم وعصيهم . قفزت خارج السيارة فعرفوني . كان ذلك بالتأكيد احدى اللحظات الاشد اثارة لمشاعر النفس في حياتي . فقد فاضت عيناى بالدموع . تعانقنا طويلا . كانت انفعالات النفوس بالغة أقصاها . وكانوا يصرخون من كل جانب : « نحن في خدمتكم يا صاحب الجلالة » . ثم طلبت اليهم أن يعودوا الى الشاحنة . لم أشاهد علي أبو نوار الذي كان مختبئا في الجانب المعتم من السيارة . لم يكن يريد

مهنتي كملك

أن يعرفه أحد ، فقد استبد به الرعب والفزع .

ورجاني قائلاً : « يا صاحب الجلالة : دعوني أعود الى عمان » .
- قلت لماذا ؟

- قال : « لقد سمعت تهديدات بالقتل موجهة الى شخصي . ان لي أسرة وأولادا ، فاذا ما تبعتمكم ، فلن أكون حيا في هذه اليلة » .
فأمرت سائقي بايقاف السيارة . كنت متفزز النفس قرفانا مشمئزا . وقلت لعلي أبو نوار : « اخرج . وعد الى عمان . وانتظرنني في القصر » .

وهكذا ، وبدون القائد العام لجيشي ، تابعت سيرتي باتجاه المعسكر الذي وقع فيه التمرد . كنا نلتقي بمزيد من الشاحنات وبمزيد من الجنود الغاضبين ومن المدنيين وكنا نسمع طلقات النار التي كانت تشتد حدتها كلما اقتربنا من مدينة الزرقاء . كان الطريق مسدودا بالحواجز وقد عمد بعض الضباط المسلحين الى تهديدنا وتظاهروا باطلاق النار لعدم تعرفهم بعد على قائدهم الاعلى .

خرجت من السيارة وخاطبتهم قائلاً : « هذا هو أنا ، الحسين ، ان ملككم سليم معافى . ان حياتي ملك لكم . كل شيء يسير على ما يرام . عودوا الى معسكراتكم . وسوف ألحق الآن بكم » .

كان المشهد يتجاوز حدود الخيال . ولقد انقضت السنون على ذلك . ولكنني ما زلت أذكر كل دقيقة ، كل ثانية من هذه الليلة . كان بعض الجنود يعتمرون الخوذات . وكان بعضهم الآخر بلا أردية . لقد صفق الجميع . أما سيارتي الشيفروليه القديمة المسكينة ، فقد كانت تتقدم وهي تتمايل في سيرها ، ويهبط هيكلها كلما مرت على أية حصة . كان سقفها قد أصيب بالاعوجاج . وكان الجنود الذين تعلقوا على مراقبيها يرفضون

مهنتي كملك

النزول . فعمد خالي وهو من أبطال الرياضة ومن ذوي البنية المتينة الى تقويم اعوجاج سقفها بدفعة من كتفه . وأنزلنا هؤلاء الركاب المشتعلين حماسة .

عندما وصلنا الى الزرقاء ، لم أجد أثرا لمرافقي العسكريين . الا أنني أنقذتهما بعد بضع لحظات بالقرب من مقر قيادة لواء الاميرة عالية . فقد أوقفهما بعض العسكريين الذين كانوا يرفضون تصديق ايصاحاتهما ويعتبرونهما من المتآمرين . كانا مرتبكين بعض الشيء عندما كشفت مكانهما .

كانت بعض الشاحنات التي كانت تحترق هنا وهناك ، تعوق تقدمنا عبر المعسكر . وبالتدريج أعدت ترتيب مجرى الحوادث . فقد طلبت قيادة لواء الاميرة عالية الى رجالها أن يستعدوا لمسيرة طويلة ، لمناورة روتينية ، بدون سلاح . ولكن الرجال كانت قد بلغتهم شائعات غريبة . فلم يعد من السهل انقيادهم ، حتى أن صف ضابط سأل أمام رؤسائه : « وماذا سيكون مصير الملك في كل هذا ؟ » .

تبع هذا السؤال فوضى لا توصف . فقد احتلت الكتيبة ، ثم اللواء مخزن الذخيرة وحاصروا نادي الضباط الذين كانا يظنان بهم الخيانة ، ثم اتجه رجالهما نحو عمان ليطلعوا على ما يحدث فيها ولقد وجدت فيما بعد قائد اللواء فاراً على الطريق وأخذته معي في السيارة . ولكن الاثم كان قد تم اقترافه .

بادر المتآمرون الى العمل بسرعة . فقد استقدموا وحدات المدفعية وأوهموها بأن وحدات المشاة تتجه الى عمان لتهديد الملك . لم يصدق رجال المدفعية ما أوحى اليهم الا أنهم اعتقدوا بأنهم يخفون الى نجدتي اذا ما اندفعوا في اثر وحدات المشاة يلاحقونهم . وبدأت المعركة . كل جانب كان مقتنعا بخيانة الطرف الآخر ، فاتحمت نحو مقر قيادة الفرقة حيث كان الجنود قد أتلفوا كل شيء في طريقهم ، ثم الى مقر قيادة اللواء . وهناك أيضا كان كل شيء

مهنتي كملك

قد قلب رأسا على عقب ، باستثناء صورة للاميرة عالية •

اعتليت سقف سيارتي ، ثم ظهر دبابة ، وجعلت أخاطب الجنود • كانت المدافع الرشاشة تدوي وكانت طلقات الرصاص تصفرّ بالقرب من أذنيّ وكنت أشعر بحرارتها ، حتى أنني كدت أفقد سلاحني من جراء التدافع الذي كان يفوق الوصف • ونجحت بصعوبة في مغادرة مقر قيادة اللواء على الرغم من رفض القوات أن تدعني أعبّر الطريق •

كانوا يصرخون : « انهم سيقتلونكم يا صاحب الجلالة • سوف لن تتحركوا من هنا ! » •

واستطعت أخيرا أن أذهب وأن أنفذ الى خطوط المدفعية • ولم يكن الامر سهلا لان القصف كان مستمرا من الجانبين • ولكن لحسن الحظ لم يحدث مكروه • كما أننا لم ننجوا من الموت ، أنا ورفاقي في هذه الليلة الا في آخر لحظة • فقد كان أحد الضباط المتمردين قد علم بقدومي فلغم جسرا صغيرا وانتظر أن أعبّره لتفجيريه • الا أن رصاصة أصابته في الظلام فجرحته ، ومّرت سيارتي بسلام •

وعلمت فيما بعد أن علي أبو نوار ، بدلا من التوجه توا الى عمان ، قد حاول أن ينفذ الى المعسكر من باب خفيّ ، ولكن لما اتجه فريق من الجنود نحو السيارة فضّل أن يعود من حيث أتى وأن يفر الى قصر بسمان والامل يداعب خياله بلا شك في أن يجده مطوقا من قبل الكتيبة المدرعة • وقد قال لرئيس الديوان بأنني قد بعثت به لكي يطمئنه ، هو ومساعدتي ، بأنني بخير ويطلب اليهم أن ينتظروا عودتي •

أمضيت ساعات عديدة في الزرقاء • ولم أعد الى عمان الا في منتصف الليل بعد أن أعدت النظام الى نصابه في كل مكان •

وعندما وصلت الى القصر ارتقيت درجاته أربعاً أربعاً لكي أصل في أقرب وقت الى علي أبو نوار • كان قد سد المدخل الرئيسي

مهنتي كملك

عشرات من الجنود الذين قالوا لي بأن علي أبو نوار ينتظرني في مكتبي الصغير وأعلموني فورا بالحوادث التي وقعت في القصر في غضون ذلك •

اذ عندما وصلت المدرعات حاول علي أبو نوار أن يخاطب الضباط ، اعتقادا منه بأنهم حلفاؤه • ولكن رقبيا أولا صوب الى بطنه مدفعه الرشاش وهو يسدد نظراته الى عينيّه وقال له :

« لو لم تكن في قصر الملك لكنت أحلتك الى حساء باللحم • عد الى المكتب وابتهل الى الله أن يعيد الملك سليما معافى ليستطيع أن يقول لنا ما نصنع بك » •

كان علي أبو نوار قد انهار انهيارا تاما • وكان الجنود يتجولون في القصر وهم يصرخون : « لتسقط الشيوعية • الموت لابني نوار وسائر الخونة ! » • كان يجب أن يرى المرء هذا المشهد المحزن : القائد العام لجيشي يسكب الدمع كالاطفال • انه لامر يبعث على الرثاء •

ماذا عليّ أن أصنع بهذا الرجل الذي كان صديقا لي • عاد الماضي الى ذهني بينما كنت أسمع كلمات التهديد الموجهة اليه • تذكرت رفيق الخير الذي كانه فيما مضى عندما كنت أمضي به الى مطاعم باريس • وخطرت ببالي أحاديثنا حول مستقبل الاردن وكل أنواع المشروعات التي استحوذت على قلوبنا • وها هو الآن يبكي بلا حياء • الدموع تنهمر على محياه والخوف على حياته قد استبد به •

قلت له : « ماذا تنتظر مني ؟ » •

كان وجه اللواء أبو نوار ممتقعا شاحبا • قال متمتما متلعثما انه يريد أن أحميه •

« ولكن ماذا فعلت لتبرير ما أوليتك اياه من ثقة ؟ » •

مهنتي كملك

فتوسل الي مرة أخرى أن أراف به وأن أنقذ حياته • كل ما قاله لي كان كذبا ، ولا شيء غير الكذب • أحسست فجأة بأنني متعب جدا فقد كان هذا الاسبوع منهكا بالنسبة لاعصابي • كانت تصرفات هذا الرجل الذي وثقت به هذه الثقة قد أمرضتني • كيف تستطيع الانسانية أن تنجب مثل هذه النذالة والدناءة والخسة ؟

لم أستطع أن أطاوع نفسي بالحكم عليه بالاعدام • ولقد وجهت الي انتقادات شديدة من جراء العفو الذي منحته اياه • فقد غدا فعلا فور اطلاق سراحه عدوا لدودا مدى سنوات •

كثير من الناس يعتقدون بأنه قد أخطأني الصواب من جراء الابقاء على حياته ولكنهم نسوا عاملا جوهريا ليس له أي طابع شخصي ذاتي • انني لا أستطيع أن أعرف ماذا كان سيعني اسم علي أبو نوار في السنين المقبلة لو تم اعدامه • وليس لدي رغبة في أن أجعل منه بطلا يميز فترة من تاريخ الاردن •

سألته من جديد :

- « ماذا تنتظر مني ؟ »

- فأجاب : هل أستطيع أن أذهب الى ايطاليا لقضاء أسبوعين فيها ريثما تهدأ الامور ؟

- قلت له : « أوافق على ذلك • انك تستطيع الذهاب » •

كنت أعرف أنه عندما يغادر الاردن فلسوف لن نراه مرة أخرى قبل مرور بضع سنين • ولم أخطيء في تقديري • فقد أمضى الليلة ، ويا لسخرية القدر ، مع سعيد المفتي الذي كنت قد طلبت اليه أن يتولى العناية به • وقد اضطر أخو سعيد الذي كان طبيبا ، أن يعطيه مسكنا • وفي اليوم التالي سافر علي أبو نوار مع أسرته الى دمشق •

تجاوز الليل منتصفه ، ولكن النوم لم يكن موضوع بحث • كان

مهنتي كملك

علي أن أنجز أمرين : تشكيل حكومة ، ومخاطبة الشعب عن طريق الاذاعة ، لاطلاعه على الاحداث الاخيرة • كانت محطة البث الرئيسية لدينا موجودة في القدس ولم يكن لعمان سوى جهاز بث صغير ضمن استوديو صغير أيضا لا يغطي سائر المناطق •

لم تنته بعد المعوقات والمزعجات • وكان لا بد من بضعة أيام أخرى لاعادة النظام والاستقرار • حاولت أن أشكل حكومة خلال هذه الايام المنهكة وهذه الليالي التي مرت بلا نوم • ولكن بدون جدوى • عينت قائدا عاما للجيش ، الا أنه فرّ الى دمشق • وتوقفت عن البث محطة الاذاعة الرئيسية في القدس ، في لحظة عصيبة ، لان مديرها والافراد الشيوعيين من موظفيها قد أغلقوها • جاءت وحدات الجيش الواحدة تلو الاخرى لتقسم يمين الاخلاص والولاء للملك والاردن • ولكن اذا كانت مظاهر اعادة التنظيم قد بدت تعود في الداخل فان الضغوط الخارجية كانت ما زالت شديدة فقد احتشدت القوات الاسرائيلية على الحدود الاردنية متأهبة للهجوم • وازدادت دعايات الاقطار المجاورة حدة وعنفا بشكل خاص • وبينما كنت في صراع مع سائر هذه المشكلات غادر لواء مدرع سوري ، تحت القيادة العليا للجنرال المصري عامر ، غادر قاعدته في الشمال وطوق مدينة اربد تطويقا كاملا • وتساءلت : هل تنقضي مشاكلنا يوما ؟

كان يرباط في الاردن لواءان أحدهما سوري والآخر سعودي ، منذ حرب السويس • لم يكن الرئيس السوري ولا القائد العام لجيشه على علم بهذه المناورة العسكرية • وكانا يجهلان أيضا من أمر باجرائها ! ومع ذلك فقد أولاني الملك سعود تأييده ووضع تحت قيادتي القوات السعودية المعسكرة في الاردن • كان لواء جيدا • وقد بذلنا غاية ما في الوسع لنجعل منه قوة جد فعالة •

في اليوم التالي للمناورة السورية التي ألغيت بسرعة ، غادر القائد العام الجديد للجيش الاردني عمان ، لمقابلة زميله السوري

مهنتي كملك

على الحدود بين البلدين • فقد كنت قد عينت اللواء الحيارى ليخلف، على أبو نوار • وكان قراراً خاطئاً إذ بعد أن أقسم اليمين ، ذهبت لاستريح بضع ساعات • كانت أول سنة من النوم أنالها منذ أيام عديدة • وأوليت إدارة الأمور لخالي الشريف ناصر • لقد كنا قد ألفنا الانباء التي تبعث على الدهشة والحيرة ، الى الحد الذي لم يكلف خالي نفسه أمر ايقاظي واعلامي عندما بلغه أن اللواء الحيارى قد لجأ الى سورية • كانت الساعة قد بلغت السابعة صباحاً ، عندما دخل الشريف ناصر غرفتي • وكان الحيارى قد غادر البلاد منذ عدة ساعات • حياني بتحية الصباح فحييته بمثلها وسألته هل من جديد ؟

- لا شيء ذو طابع خاص يا صاحب الجلالة • الا أن القائد العام لجيشكم قد فر الى سورية !

- لماذا لم توقظني ؟

- لم أكن أعتقد أن أمراً كهذا يستحق هذا العناء •

انفجرت ضاحكاً لاننا كنا على علم بأن الحيارى كان متورطاً كعلي أبو نوار في المؤامرة ، وأنه بالإضافة الى ذلك كان ضعيفاً • ونم أعيته قائداً عاماً الا لأنه لم يكن يوجد أحد غيره • كان هدوء خالي قد شرح صدري وشد من عزمي الى أقصى الحدود •

لقد فكرت بأن « الأمور على كل حال لا يمكن أن تغدوا أسوأ مما هي عليه » •

عندئذ عينت على رأس جيثي الجنرال حابس المجالي الذي كان صديقاً قديماً يتمتع بثقتي المطلقة •

ومع ذلك كان عليّ أن لا أنسى الحياة السياسية • إذ ما لبث أن تم اعداد فريق حكومي جديد • فقد عينت الدكتور حسين فخري الخالدي رئيساً للوزراء كما أن النابلسي نفسه قد عيّن وزيراً •

مهنتي كملك

ولكن التوتر الداخلي الذي تبعته مظاهرات الشارع ، أضعف الحكومة بسرعة • وفي القدس ، كان المحرض الشيوعي يعقوب زيادين ، عضو مجلس الأمة ، يهدد بتدمير وحرق الاماكن الاسلامية والمسيحية التي كان يسميها (أفيون الشعوب) بواسطة الاشرار من المخربين ، اذا لم يعمد الشعب الى التظاهر ضد الخالدي

وعندما جاءني الخالدي لتقديم استقالته ، وكانت عيناه ملأى بالدموع ، قال لي : « عندما فقدت أبوي » ، لم أذرف دموعاً واحدة • ولكن اليوم ، أمام فقدان بعضهم للشعور بالمسئولية وانعدام وعيهم • وازاء الشرور والاضرار التي يتسببون بها لبلادي وشعبي فانني لم أستطع أن أتمالك نفسي • لقد أعددت مع ذلك كل شيء في حالة اعلان الاحكام العرفية • فالموقف يستلزم ذلك • ويبدو أنه هو الخيار الوحيد • أرجو لكم يا صاحب الجلالة حظاً سعيداً ، وأشكركم جزيل الشكر على ثقتكم •

شكرته على كل الجهود التي بذلها • كان هنالك سياسيون آخرون ، ينتظرون في ديواني ، كنت قد استدعيتهم ، وكانت الساعة تقارب العاشرة مساءً • كان بينهم صديق قديم هو ابراهيم هاشم الذي اغتيل في العراق بأسلوب جبان نذل • وسليمان طوقان وسمير الرفاعي الذي كان قد تقلد منصب رئيس الوزراء مرات عديدة • لم يكن الوقت مناسباً لالقاء الخطب • شرحت الموقف ثم أضفت : « أيها السادة ، ليس في الموضوع التماس وانما أمر • لقد قمنا باجراء سباق مع الشمس ضد ساعة حساب الوقت • اذا لم تتشكل حكومة غداً عند الفجر فلسوف تكون نهاية الاردن • نحن في حاجة الى السيطرة على الموقف بحزم ولا أستطيع أن أفعل ذلك لوحدي • هذه البلاد بلادكم • تذكروا أنكم قد بنيتموها بسواعدكم وعرقكم • ليس الآن وقت للتردد » •

تشكلت حكومة في فترة قياسية برئاسة ابراهيم هاشم • كانت محطة الاذاعة جاهزة لاذاعة رسالتي الى شعب الاردن • أعلنت

مهنتي كملك

الاحكام العرفية ووضعنا القوات المسلحة على أهبة الاستعداد بصورة مؤقتة ، وحظر نشاط الاحزاب السياسية .

استطعت أخيرا أن أخطو بعض الخطوات أمام القصر وأن أستنشق هواء الصباح البارد النقي . فقد عاد السلام الى الاردن وفرّ الخونة . آويت الى فراشي في الساعة العاشرة صباحا . لقد فقدت كل مفهوم للزمن ، في الليل وفي النهار على السواء . استغرقت في النوم طويلا ، ولكن قبل أن أستسلم للرقاد ، حمدت الله على نعمائه . فالاردن سوف يعود الى الحياة من جديد .

بدأ شهر رمضان يقترب من نهايته . وانني أعتقد بأن الشعب بأجمعه قد حمد الله على أنه قد وقى بلادنا وصانها . فقد كان وجودها مهددا تهديدا خطيرا . طوال هذا الشهر الفضيل . وهكذا انتهت هذه المرحلة الحرجة من حياتنا . لقد اكتشفت فيما بعد أعلاما جديدة تمثل « جمهورية الاردن » . فقد عثرنا على نموذجين منها في مكتب علي أبو نوار . كانت ثقته بالنصر قد بلغت حدا جعله لا يكاف نفسه عناء اخفائهما . ومن البديهي أن المؤامرة كانت موجهة من الخارج ، وكان هدفها النهائي ، بعد اغتيالي ، هو انشاء نوع من الاتحاد الفدرالي مع مصر ، وتحويل الاردن بذلك الى دولة تابعة لروسيا السوفياتية على افتراض أننا قد نجونا من التدمير .

مضت سنون عديدة على هذه الفترة . ولقد قيل وكتب الكثير حولها . بعضها صحيح وبعضها الآخر خطأ . الجميع ، جميع المذنبين قد عفي عنهم . غدا النمر مالكا لمزرعة واستقام غير بعيد عن عمان . عمد معن أبو نوار الى دراسة العلوم السياسية وأصبح مواطنا نموذجيا . وهو الآن سفير للاردن في بريطانيا العظمى . انتهى علي أبو نوار بالعودة الى الاردن ، بعد أن قام (برحلات) طويلة في الاقطار العربية التقدمية . وقد عمل بلا انقطاع وكان طوال السنوات الثلاث الاخيرة سفيرنا في باريس .

مهنتي كملك

ويتولى الحيازي الآن وظائف هامة في الادارة الاردنية .

يصعب على المرء اليوم أن يعتقد بأن مؤامرة أعدت بهذه الدقة والاحكام ، قد انتهت بالفشل . ولكن المحرضين عليها ، والذين كانوا يودون أن يدفعوا بالاردن الى الدمار ، قد نسوا عنصرا هو أكثر العناصر أهمية ، وأعني به الشعب الاردني .



مهنتي كملك

ومع ذلك لم يكن يحفّ بكم سوى الاعداء ، متى تم انشاء
الاتحاد العربي ؟

بعد زمن قصير ، في الرابع عشر من شباط (فبراير) ١٩٥٨ ،
قرر العراق والاردن تحقيق الاتحاد العربي اثر موافقتهما على
ميثاق دستوري مشترك . كان هذا الحدث التاريخي يكرّس
جهود وسنوات الكفاح من عمري . وكنت أرجو أحر الرجاء أن
يطبع هذا الحدث بطابعه بداية عهد جديد للقضية العربية . كان
اتحادنا المؤسس على المساواة المطلقة ، يشكل النموذج والحجر
الاول الذي يجري ارساؤه في سبيل تحقيق وحدة عربية موسعة ،
تنقصنا الآن بصورة تبعث على المرارة والالام .

ولكن ويا للأسف ، كان هذا أكثر مما يستطيع أن يحتمله بعض
الحكام العرب . اذ بعد خمسة أشهر من توقيع المعاهدة ، اغتيل
بوحشية ابن عمي فيصل . ولم يعد اتحادنا العربي سوى حلم
منهار . أما المسؤولية بأكملها لما جرى ، فتقع على عاتق الرئيس
عبد الناصر ، لسبب بسيط : وهو أن اتحادنا كان يشكل مثالا
أعلى في العلاقات بين شعبين شقيقين . كانت مصر وسورية قد
أنشأتا قبل أسبوعين الجمهورية العربية المتحدة . وبينما كان
العراق والاردن شريكين متساويين في الاتحاد العربي ، كانت مصر
تستعبد سورية في الجمهورية العربية المتحدة . فأدرك عبد الناصر
فوراً التوازن المثالي للطريقة التي انتهجناها ، هذا التوازن الذي
كان ينقص ما اعتمده من أسلوب . وانني أعتقد أيضاً بأنه كان
لديه ما يكفي من الفطنة والذراية لكي يفهم أنه اذا ما أجريت
مقارنة بين تجربتنا ، فان التجربة التي تخصنا ستكون جتما
أشدّ فعالية وأكثر واقعية بمراحل . فالعراق بثرواته النفطية على
شواطئ الخليج التي كان عبد الناصر يطمع فيها ، يعتبر أحد
أقوى الدول في العالم العربي . فاتحاده مع الاردن من شأنه أن يضع
حدا للحلم الذي طالما داعب خيال عبد الناصر وهو : أن يجعل من

مهنتي كملك

الجمهورية العربية وحدة جغرافية . ذلك لان حدود الاتحاد العربي
الجديد الذي يرتبط بميثاق للدفاع المشترك ، تمتد من سيناء ،
الى الكويت . ولما كان عبد الناصر يعزل نفسه بالامل في أن يبتلع
الاردن يوماً لكي يجعل منه جسراً بين سورية ومصر ، فقد جاء
اتحادنا يعرقل طموحاته ويشكل سداً طبيعياً في مواجهة تصاعد
الشيوعية في العالم العربي ، لا سيما أن الملك فيصل وأنا ، كنا
أحفاد الزعيم الهاشمي الكبير الشريف حسين الذي رفع راية
الثورة العربية ضد الاتراك خلال الحرب العالمية الاولى . لقد جرى
تنووجنا في نفس اليوم وكنا نؤمن بحماسة بالغة ، بحرية العرب
الحقيقية التي ناضل جدنا من أجلها . ثم سنحت لنا فرصة
الاثبات للعالم العربي كيف أن نظام حكم دستوري ديموقراطي
يمكن أن يطبق على بلدين تقدميين .

ما أكثر الآمال الكبار التي كانت تملأ قلوبنا في صباح هذا اليوم
الرابع عشر من شباط (فبراير) عندما كان علمنا الجديد ، الاسود
والابيض والاخضر ، يرتفع صاعداً نحو السماء ! لقد عملت بلا
انقطاع من أجل وحدة بلدينا . ولو كان الامر لا يتعلق الا بي وحدي ،
لكان الاتحاد قد ولد منذ مدة طويلة . عندما عانقت فيصل تبادرت
الى ذهني أولى كلمات خطابي الذي أذعته بالراديو وهي : « هذا
هو أسعد أيام حياتي انه يوم عظيم في التاريخ العربي . لقد
اتحدنا في ظل علم واحد ، في ظل راية العروبة التي حملها دائماً
جدنا الأكبر الوقور الحسين بن علي الكبير ، خلال الثورة العربية
الكبرى » .

ولقد قبلت بسرور تعيين فيصل على رأس الاتحاد وأن تصبح
بغداد وعمان عاصمة على التوالي . كل منها لمدة ستة أشهر . كان
الاتحاد مفتوحاً لكل بلد عربي يرغب في الانضمام اليه . كان لا بد
من توحيد السياسة الخارجية والمالية والتربية والتعليم والتمثيل
الدبلوماسي لبلدينا في الأشهر المقبلة ، على أن تحافظ مع ذلك كل
دولة على وجودها المستقل ، وسيادتها الإقليمية والنظام
القائم فيها .

مهنتي كملك

لقد درست في مطلع ولايتي الملكية نوعا من الاتحاد القومي على أساس ميثاق بغداد . ولكن آمالي تلاشت عندما رأيت بأية سرعة وقّع الاتفاق الذي لم يشتمل إلا على العراق فقط . بينما كانت المحكمة تقضي بأعداد ميثاق دفاعي يضم سائر البلاد العربية . فالاردن بصفته شريكا في الاتحاد العربي لم يبرم ميثاق بغداد . ولكنني كنت مدركا بأن اتحادنا سوف يدعم دعما قويا خطنا الدفاعي ضد بعض البلاد التي كانت تؤيد التغلغل الشيوعي في العالم العربي .

كل شيء لم يتم بالطبع بلا مشقة . فقد برزت صعوبات لا مفر منها عندما اتحدنا تحت علم واحد . بعض هذه الصعوبات نجمت عن المشاكل التي كانت تواجه فيصلا . كان ابن عمي ورفيق دراستي في هارو مقربا الى نفسي . فتبينت الامنية التي أعرب عنها عبد الناصر في عام ١٩٥٥ اذ قال : « انني أتمنى له الكثير من النجاح وأعلق عليه آمالا كبارا » . ولكن فيصلا كان يعيش مأساة . فلم يستطع أن يحقق أية من رغباته ومشروعاته ، ولم تعط له الفرصة إطلاقا ليمارس شخصيا مسؤولياته . وعندما أفكر في اليوم الذي وقعت فيه معاهدة الاتحاد ، يعود الى ذهني الكثير من الذكريات التي أعتقد بضرورة الكشف عنها . لا شيء إلا للدفاع عن ذكرى صديقي وأخي في الدم ، فيصل . ان الحوادث التي سأرويها قد سبقت اغتيال ابن عمي ، اذ لم يحمل الحكام العراقيون على محمل الجد تحذيراتي المتكررة ، كما أن فيصلا كان عاجزا أو غير قادر على أن يفصل في أمر أو أن يقوم بعمل .

عندما كنت في هارو ، كنت أحب أن أتمتع بحريتي . وكانت تقلقني رؤية فيصل مخنوق الارادة ، لا يتمكن من التصرف منفردا فكأنه كان واقعا في شرك نصب له . وليس في نيتي أن أنحي باللائمة على الجيل القديم من الساسة الذين تولوا تربيته ، ولكنني لا أستطيع تجنب ذكر بعض عدم التوازن في علاقته مع خاله ولي العهد ، الذي اغتيل الى جانبه خلال مذبحة بغداد .

مهنتي كملك

ان فيصلا غير معروف معرفة جيدة من الغرب . فهل تستطيعون أن تحدثونا عنه أكثر قليلا ؟

عين ولي العهد ، الامير عبد الاله وصيا بعد وفاة والد فيصل ، الملك الشعبي غازي الذي توفاه الله على أثر حادث سيارة . كان فيصل ما زال بعد طفلا . فسيطر ولي العهد على المسرح السياسي العراقي طوال سنوات ريثما يبلغ ابن عمي سن الرشد ويتمكن من ممارسة سلطاته الدستورية . كانت البلاد بأسرها تبتهل الى الله لكي يصبح ملكا في أحد الايام . ولكن حتى في هذا اليوم لم يطرأ على الامر أي تغيير يذكر .

كان ولي العهد قد عمل الشيء الكثير للعراق . ولكن تأثيره على فيصل كان من العمق بحيث بقي الرئيس الفعلي . وعلى الرغم من أنه لم يكن يملك الكثير من الشعبية ، إلا أنه كان يتمتع بسلطة واسعة ، احتفظ بها حتى آخر يوم من حياته . ولعل مما يؤسفني جد الاسف ، أنني شخصيا لم أكن مع ولي العهد ، على صلة ودية ولئن كانت تقاليدنا شديدة الدقة فيما يتعلق بالاحترام الواجب الاعراب عنه لكبار السن ، إلا أنه كان يصعب عليّ أحيانا أن أتقيد بها . وتعود برودة العلاقات بيننا الى حادث وقع في ساند هيرست .

عندما كنت تلميذ ضابط ، كان الملك فيصل يشغل دارا في مدينة ستين يستخدمها في رحلاته الى بريطانيا العظمى . جاء في أحد الايام لزيارتي في ساند هيرست ، بصحبة ولي العهد . اعتقد تذكر أن ذلك كان يوم سبت ، لأنني كنت في اجازة وكنت قد اعتزمت الذهاب الى لندن . ولكن في لحظة المغادرة سألني : « لماذا لا تأتي معنا الى ستين لتناول الشاي ؟ انك تستطيع أن تذهب بعدئذ الى لندن اذا شئت » .

مهنتي كملك

قبلت الدعوة وانطلقنا معا . كان ولي العهد يقود السيارة بنفسه وكان المرافق العسكري الذي كان قائدا للحرس الملكي العراقي أثناء الانقلاب ، يحتل المقعد الامامي الآخر . وكنت أنا وفيصل نجلس على المقعد الخلفي . وكانت سيارتي تتبعنا .

نشبت شجار في الطريق بين فيصل وخاله . لم أستحسن اطلاقا أن يحدث مثل هذا الخصام أمام المرافق العسكري وبحضوري ولكنني جاهدت نفسي لكي أكظم غيظا كان يتعاظم ثم توقف النزاع لحسن الحظ .

كنا على مقربة من ستين عندما سأل فيصل ولي العهد : « ألا نستطيع أن نسلك طريقا منحرفا ياخالي . يوجد فيلم تصور مناظره غير بعيد من هنا . وستكون رؤية الكيفية التي يجري فيها العمل هنالك ، مدعاة للبهجة والسرور » .

لم يتنازل ولي العهد حتى بالاجابة . أصبت بالذهول ، لان فيصلا كان ملكا للعراق على كل حال ! استشاط عبد الله غضبا من جديد بدون سبب مبرر . وجعل يشتم الملك ويوبخه ويعنفه كما لو كان صبيا غير مؤدب .

فقدت عندئذ رباطة جأشي ، وزايلني هدوء أعصابي وانفجرت قائلا : « خففوا السرعة اذا سمحتم . انني أسف لحضوري هذا الشجار العائلي . وانني لا أستطيع أن أحتمل أكثر مما فعلت . وانني أقل استعدادا أيضا لمعاودة سماعكم . توقفوا من فضلكم »

تسمرت السيارة في مكانها . وخرجت دون أن أتفوه بكلمة . وأغلقت الباب بشدة . وانتهت حفلة الشاي الى هذا الحد . انتظرت سيارتي وذهبت الى لندن . ربما كنت عنيفا بعض الشيء ، ولكن صبري قد نفذ . لقد ثقل علي تراكم هذه المنغصات التي كان يكابدها ابن عمي الذي أحببته كأخي .

مهنتي كملك

وانني لعلي اعتقاد بأن ولي العهد ، لم يغفر لي أبدا ما حدث . خلال الفترة التي ازداد فيها مرض والدي سوءا ، وكان مستقبل الملكية مزعزا ، كان الامير موجودا في عمان فأُسر الى رئيس الوزراء قائلا : « مهما حدث لا تدعوا الحسين يعتلي العرش ، على الأقل ليس في وقت مبكر » .

- فسأله رئيس الوزراء لماذا ؟

- فأجاب الامير : انه ليس أهلا للمسئولية . ويجهل كل شيء عن جلال الملك ووقاره . وأضاف الى ذلك شكاوى أخرى . ولكن رئيس الوزراء لم يعر ذلك أقل أهمية . وانني لأذكر أيضا حادثا آخر أخرجني عن طوري .

كنت في رحلة الى بغداد . وكان فيصل يطوف معي في زيارة لقصره وملحقاته . كنا نتقدم الموكب . وكان فيصل يقود سيارة رياضية الطراز صغيرة قديمة العهد على ما أعتقد ، بينما كان ولي العهد والشخصيات الاخرى يقتفون أثرنا في سيارات رولس رويس فخمة من أحدث طراز .

سألته : « لماذا لا تملك سيارة أكثر لياقة ؟ »

فرفع فيصل كتفيه ولم يحرج جوابا . بلغت مني الحيرة والاضطراب حدا جعلني عند عودتي الى مقر اقامتي ، أن أتصل هاتفيا بموريس رينور في عمان قائلا : « أرجوك أن تأتي بسيارتك الجديدة من طراز اوستن مارتن . فقد أهديتها الى الملك فيصل » . هذا الحادث وحوادث أخرى تلتها لم يكن في مقدورها بالطبع أن تدعم علاقاتي بولي العهد . لقد رويتها لك لشرح سبب وجود هذا التباعد بين فيصل وشعبه . كان لا يستطيع التصرف الا باذن . وهذا الاذن لم يمنح له دوما .

مهنتي كملك

هذه الامثلة توضح أيضا الاسباب العميقة لبعض الصعوبات التي جابهتنا عند انشاء الاتحاد العربي . كانت المحادثات التمهيدية بيني وبين الملك فيصل تجري في عمان ضمن أفضل انشروط والظروف . فقد وافق فيصل مثلا أن نترأس الاتحاد العربي نحن الاثنين بالتناوب . وعندما وصل ولي العهد برزت الاحداث الاولى . بدأ يعارض اتفاقنا بشدة . وخلال ليلة كاملة ، كانت احدى أطول الليالي التي استغرقتها مفاوضاتنا ، أذكر أننا تشاجرنا حتى تم التوصل الى هذا الخيار : اما أن يتزعم الملك فيصل الاتحاد دون تناوب ، أو أن صيغة التناوب يجب أن تؤمن للعراق عددا أكثر من النواب في البرلمان المشترك .

كان فيصل منقبض النفس . اما أنا فلحقت بي اهانة . ولكن الامر الجوهري كان ايقاف الاتحاد على قدميه . فأعلنت عندئذ : « ان وضعي الشخصي لا يهمني الا قليلا . ولكنني لا أستطيع أن أقبل الاضرار بمصالح شعبي . يجب أن يكون للاردن من الاعضاء في البرلمان عدد مساو لما للعراق فيه . فالاتحاد يجب أن يؤسس على المساواة » .

وعندئذ اتفقنا . وبفضل هذا التنازل أصبح الملك فيصل هو الرئيس للاتحاد . وهكذا ولد الاتحاد العربي .

لقد أعرنا بالطبع الكثير من الاهمية لموقف عبد الناصر ازاء الاتحاد الجديد . في مطلع الامر بدا مؤيدا وبعث بتهانيه الى الملك فيصل حتى قبل أن يعود الاخير الى بغداد . وقد وصف الاتحاد « باللمحة المباركة » التي انتظرها العالم العربي بفيض من الامل وقال بأن شعوره العميق هو أن شباب وايمان واخلاص فيصل سوف تساعد كثيرا على تحقيق حلم العرب الكبير في الوحدة . وأن القومية العربية فخورة بالخطوة التي تم انجازها في عمان وأنه واثق من أن ما استجد من أحداث في هذه الايام الخالدة بالنسبة للشعوب العربية لتبشر ببزوغ فجر الوحدة الكبرى . واختتم عبد

مهنتي كملك

لناصر كلمته قائلا : « انني أهنيء جلالتكم من كل قلبي . وأرجو الله أن يسدد خطاكم في طريق النجاح وأن يبارك شعبكم العظيم » .

حوّل الملك فيصل الرسالة الي وسألني رأيي فيها . لقد حملتني البرقية على الابتسام فمنذ الايام العنيفة التي ثارت فيها الفتن وحوادث الشغب بمناسبة حلف بغداد بتحريض من عبد الناصر وأنا أبذل ما في وسعي للتوفيق بيننا . وخلال غزو السويس ، لعب الاردن دورا كبيرا في حث العالم العربي على الوحدة . وكنا أول من ساند عبد الناصر عندما أمت قناة السويس ، وأول من دعا الى اتحاد العالم العربي لدعم عبد الناصر ، بعد هجوم اسرائيل والاقطار الغربية على مصر . كما أننا كنا أول المقاتلين في حرب عام ١٩٦٧ . ولقد عملت مع الرئيس اللبناني كميل شمعون على الاعداد لمؤتمر تجتمع فيه الدول العربية لتأييد مصر . كانت مهمة في غاية الصعوبة آنئذ ، أن نجتمع شمل العالم العربي للوقوف الى جانب قضية عبد الناصر !

هذه الذكريات عادت الى ذهني عند قراءة البرقية . فعبد الناصر كان يعرف الجهود التي بذلها الاردن لتحقيق الاتحاد . فلم يبعث الي بتهانيه . وكنت أعرف بالطبع لماذا .

كان « نسيانه » يدل على أنه لا الاردن كبلد ، ولا الحسين كملك قد أصبح لهما أهمية في نظره بعد الآن . كان عبد الناصر يتوقع أن يسيطر العراق على الاردن . كان عاجزا عن فهم أننا كنا شركاء أحرارا متساوين . ومرت السنوات منذ ذلك العهد ، فقد مات فيصل وعبد الله ، وتوفي عبد الناصر وآخرون غيره . أما الاردن فما زال واقفا على قدميه .

اليك الآن كيف بلغنا نبأ الانقلاب العسكري الذي أثير في العراق وكيف أننا لم نتمكن من أن نقنع العراقيين في أن يحملوا تحذيراتنا على محمل الجد . انها قصة ذات طابع مأساوي بالغ .

مهنتي كملك

لقد حذرت شخصيا ابن عمي فيصل من هذا الخطر المهدد قبل اليوم المحتوم . فقد جاءتنا أول الظنون والشكوك على اثر اعتقال عميل ناصري يدعى أحمد يوسف الحيارى . وهو أردني من رجال كتيبة المدرعات الرابعة . كان أحمد يوسف يعتزم اغتيال واغتيال خالي الشريف ناصر في الوقت نفسه وكذلك بعض المسئولين الآخرين عن طريق القاء قنابل خلال احتفال عام كان علي أن أترأسه . وعند اعتقاله أدلى باعترافات كاملة وأبلغ عن انقلاب عسكري تعده الجمهورية العربية المتحدة يفترض وقوعه في العراق والاردن في منتصف تموز (يوليو) . ولقد وفرت لنا المعلومات التي تم الحصول عليها فيما بعد ، تفاصيل المؤامرة وأسماء بعض المحرضين . كان المفروض أن تقع المؤامرة في كل من بغداد وعمان في آن واحد . وكان أول رد فعل لديّ هو تحذير ابن عمي فيصل . فاتصلت به هاتفيا وقلت له : « لدي معلومات هامة لابلاغكم اياها حول (انقلاب عسكري) يدبر في العراق . كونوا حذرين متيقظين » .

- سألني : بماذا تنصحونني ؟ -

- فأجبت : « ابعثوا لي أحدا ، يكون شخصية هامة ، ولسوف أعطيه سائر التفاصيل ، ولكن افعلوا بسرعة » .

شكرني الملك فيصل وبعث اليّ بالفريق رفيق عارف القائد العام لقوات الاتحاد العربي الذي وصل بالطائرة . لم يكن ثمة وقت يمكن اضاعته اذا ما أريد اكتشاف المتآمرين في الوقت المناسب . أدخل عليّ الفريق عارف فور وصوله الى عمان . وانني ما زلت أذكر المشهد : كان معي رئيس الديوان ورئيس الوزراء والفريق عارف ، والقائد العام للقوات الاردنية . قدم ضابط من المخابرات لعارف بتأن وبدقة التفاصيل والاثباتات التي تمكنا من جمعها . كنت من وقت الى آخر ألقي على الفريق عارف نظرات خفية . كان يبدو عليه السأم والملل . وفي ختام الحديث ، تمطى وضحك هذا

مهنتي كملك

الضحك المرح الفكاهة المعهود لدى كل العرب وقال : « يا صاحب الجلالة ، اننا جد ممتنون لجلالتكم ، وانني أقدر جهودكم ، ولكنني أريد أن أؤكد لكم بأن الجيش العراقي مؤسس على تقاليد متينة ، وهو على كل حال يعتبر أفضل جيش في الشرق الاوسط ، فهو لم يعرف المشاكل ولا التغيرات التي طرأت حديثا على الشرق الاوسط » . وتوقف لحظة ليلتقط أنفاسه ثم قال : « لدي انطباع بأن الاحرى بنا نحن أن نقلق على مصير الاردن ، فهذا الانقلاب يهدد بلادكم فعلا وليس بلادنا . فأرجوكم أن تراعوا جانب الحذر والحيطه » .

- فصحت به : ولكن لا بد لك من أن تفهم خطورة الموقف والتهديد الذي يلقي بثقله على العراق أيضا .

- فأجابني : أؤكد لكم بأنني فهمت . ولكنني أشك في ذلك .

- ورجوته قائلا : عدني على الاقل بأنك سوف تطلع الملك فيصل والسلطات على كل الوثائق التي أبلغناك اياها .

- أعدكم يا صاحب الجلالة بأن الملك والحكومة سوف يجري ابلاغهما .

ثم غادرنا الفريق عارف بعد أن فاه بهذه الكلمات . لقد فعلت كل ما كان في وسعي لتحذير ابن عمي وابلاغه . عاد الفريق عارف الى بغداد قبل أربعة أيام من يوم الاثنين الفاجع . كنت وحدي مع شكوكي وظنوني أبتهل الى الله وأمل من كل قلبي أن يكون جزعي وقلقي واضطرابي لا أساس لها . وأن يكون الامر مجرد انذار كاذب ولقد علمنا فيما بعد أن بغداد قد تلقت تحذيرات أخرى ولا سيما من جانب تركيا .

خلال العطلة الاسبوعية اتصلت بابن عمي هاتفيا من جديد . كان ذلك عشية سفره في زيارة لتركيا . فأعربت له عن تمنياتي له باقامة طيبة . وكنت سأتولى رئاسة الاتحاد بالنيابة ، خلافاً غيابيه ، ووعدته بأن أكرس له كل جهودي .

مهنتي كملك

كيف أمكن لهذه المأساة أن تحدث ، على الرغم من تحذيراتكم وتحذيرات الاتراك وربما تحذيرات شاه إيران ؟

كان مقتل ابن عمي في يوم الاثنين الواقع في الرابع عشر من تموز (يوليو) ١٩٥٨ ، كان بالتأكيد احدى أقسى الصدمات التي كان عليّ أن أحتملها خلال ثلاثة وعشرين عاما من ولايتي الملك . وكان على الصعيد السياسي كارثة ، اذ أدى الى انهيار الاتحاد بين بلدينا الذي سبق التوقيع عليه قبل فترة قصيرة . كانت الساعة تقارب الساعة صباحا عندما أبلغت بالهاتف أن شيئا ما قد حدث في العراق . كانت الانباء تتواتر متناقضة من سائر النواحي . وساد جو من البلبلة والارتباك والتشوش . لم أكن أعرف ما اذا كان الملك قد مات أم أنه كان سليما معافى . كان ثمة شائعات تعيد بأنه في طريقه نحو تركيا كما كان مقررا . كنا نريد أن نطمئن قلوبنا . ولكن كان من المستحيل الاتصال ببغداد بالهاتف أو بالراديو . كان العراق مقطوعا عن بقية العالم . ولم تبلغنا الانباء الاولى الا في وقت متأخر من النهار . ولسوء الحظ كانت تؤكد مخاوفي الاولى .

نم أكن أفهم سبب اغتيال ابن عمي والابقاء على حياتي . ففيصل الذي كان يكبرني ببضعة أشهر ، لم يلحق أذى بأحد . فهو لم يعرف أبدا السيطرة على أي موقف الى الحد الذي يجعله يتخذ قرارا سياسيا من شأنه أن يناوئ به أو يعاكس أو يغيظ أي كان . ومع ذلك كان هو وليس أنا الذي مات . لقد كنا متقاربين روحيا الواحد نحو الآخر ، خلال حياتنا المشتركة القصيرة . فعشنا متحدي القلب متفقي الرأي . وكان جد كل منا على صلة وثيقة بالآخر أيضا . كان جده فيصل الاول أخا للملك عبد الله . وقد لعب دورا كبيرا في الثورة العربية ، وحارب لورانس الى جانبه .

مهنتي كملك

عندما كنا أصغر سنا ، كنا نلعب معا . وهو الذي أهداني أول دراجة لي . وعندما كنا في هارو تناقشنا في مسائل . كان من المحتمل أن نواجهها في يوم ما . وانني أعتقد بأن الكثير من العراقيين المؤيدين منهم للملكية أو المناوئين لها ، على السواء ، لا بد وأنهم ، عند وفاته ، قد شعروا بالخزي الشديد للطريقة الوحشية لتي اغتيل بها ، وان السبعة عشر عاما التي مضت منذ وفاته لم تمحو بعد هذا الخزي . كانت الملكية شعبية دوما في العراق . وكان والد الملك فيصل ، الملك غازي صافي القلب طاهر السريرة صريحا وكان ليّن الجانب سهل المدخل ازاء شعبه . وعندما توفي على أثر حادث سيارة ، هلل العراقي بأسره ليفصل الصغير وانتظر بفارغ صبر استلامه مقاليد السلطة . ولكن طموح فيصل ذبل ثم انطفأ على مهل . لقد شعرت بذلك وحاولت التدخل ولكن أعبائي ومسئولياتي لم تدع لي وقتا لهذه الغاية ، فذهبت جهودي عبثا .

في اليوم نفسه اجتمع مجلس الوزراء في عمان . واقتراح عليّ كثير من أعضائه أن أقاوم بالقوة انشاء نظام جديد على اعتبار أن العراق والاردن كانا مرتبطين بمعاهدة تعاون مشترك . ولم يكن الجيش العربي الاردني أبدا متحمسا ، حماسته وتصميمه آنئذ . عرض عليّ أعضاء الوزارة أن أرسل فورا قوات الى الجزء العراقي من الاتحاد الذي لم يكن قد جرى حله بعد ، لمحاولة طرد المتآمرين واعادة النظام .

فشرحت بأوضح العبارات الممكنة الاسباب التي تحملني على رفض هذا التدخل : « نحن لسنا شعبا تواقا الى أن يفرض نفسه على الآخرين . فاذا كان شعب العراق قد صمم على اختيار أسلوب آخر لحياته ، فله أن يتدبر أمره بنفسه ، مهما كانت وجهة نظرنا ازاء ذلك ، وربما بادرننا الى العمل فيما بعد ، اذا ما طلب الينا التدخل ولكن ليس قبل ذلك » .

مهنتي كملك

ولقد تأثر قراري بعدة عوامل • أولا ماذا يستطيع انقاذه بعد ؟ لا شيء على حد علمي • فالملك وأسرته وأشخاص عديدون قد قتلوا • ثانيا نحن لا نعرف كيف جرت الامور حقيقة في العراق ، وبذلك فان من الصعب أن نتمكن من السماح لانفسنا بارسال قوات هنالك • فاذا كان علينا أن نقاتل ، فان ضرباتنا يجب أن توجه ضد العناصر التي حاكت المؤامرة وليس ضد الابرياء المضللين •

كنت قلقا أيضا من التهديد الذي كان يلقى بثقله على الاردن لانه كلما تعرض شعب عربي لبعض الصعوبات ، كانت اسرائيل على استعداد للهجوم • فنحن ليس في مقدورنا أن ندع حدودنا التي تمتد ستمائة كيلو متر بلا حماية دون أن نستقطب بعض المتاعب •

ولما كنت أعرف من ناحية أخرى أن القاهرة كانت مصممة على الاطاحة بالملكية في الاردن فقد كنا في الواقع مرغمين على مجابهة عدو مزدوج • فقد غدا الاردن السد الوحيد في وجه الشيوعية • كما أن الجمهورية العربية المتحدة لم تكن تطمح في أقل من السيطرة على العالم العربي •

من الصعب على الذين لم يزوروا الاردن ، أن يتصوروا مقدار الآلام التي قاسيناها طوال هذا الصيف الفاجع من عام ١٩٥٨ • لم يكن لطرقتنا أي منفذ على العالم الخارجي • فقد حاصر السوريون رواقنا الجوي وسكننا الحديدية • وكان ميناؤنا الوحيد في العقبة الذي يبعد ثلاثمائة كيلو متر من عمان ، غير متطور بما فيه الكفاية كما أن الطريق الصحراوي الذي يربط عمان بالعقبة كان غير مكتمل بعد • كنا محاصرين حصارا كاملا •

احتفلت القوات العراقية المربطة في الاردن ، عند الانقلاب ، بفرح شديد ، بالاطاحة بالملكية ، معربة عن أملها في أن دور الاردن لن يتأخر • احتجز بعض الضباط العراقيين لبضعة أيام في

مهنتي كملك

الاردن وعاملناهم بمنتهى الرعاية والاکرام ، لاننا كنا نود التأكد من السماح للاردنيين الذين ما زالوا على قيد الحياة في بغداد بالعودة الى بلادهم • ولقد فقدنا العديد من كبار الوطنيين أثناء التمرد • كان بينهم سليمان طوقان وزير الدفاع ، وابراهيم هاشم الشيخ الحكيم الذي كان من رجال القانون اللامعين ومن كبار الاداريين • فقد تولى رئاسة الوزارة عدة مرات ، وكان عند قيام

الاتحاد ، نائبا لنوري السعيد رئيس الوزراء •

كان الطقس حارا أثناء صيف عام ١٩٥٨ ، وكانت الاخطار المهددة تحوم فوق بلادنا • بدأ الانتظار الطويل ، الانتظار الذي لا نهاية له • ما الذي سيقع ؟ ما الذي سيفعله آخر الفراعنة في الجانب الآخر من النيل ؟

وكان الاسوأ من هذا ، هو أن حلفاءنا في العالم الحر الذين ضحى من أجلهم زعماء العراق بأرواحهم ، هذه الاقطار التي كافح وقاوم العراق التغلغل الشيوعي الى جانبها ، هذه الامم ، قد اعترفت الواحدة تلو الاخرى بالنظام الجديد في بغداد • كانت مسارعته في إقامة علاقات مع الزعماء العراقيين الجدد في الوقت الذي لم تكد تدفن الآف الجثث ، لا نظير لها سوى ما أبدته من قلة الحياء وانعدام الاحتشام • حدثت هذه الاغتيالات في الرابع عشر من تموز (يوليو) فاذا بتركيا تعترف بالنظام الجديد في (٣١) منه ، ثم اعتبارا من الاول من آب (أغسطس) لحقت بها بريطانيا

العظمى والولايات المتحدة الامريكية •

ومنذ ذلك الحين بدأ الطوق الحديدي يشتد ضغطه حولنا • كان ينقصنا الوقود وكذلك • • الاصدقاء • فقد أغلق السوريون حدودهم في وجه كل تعامل معنا • لم نعد قادرين على استخدام طرقنا التقليدية • كانت الصهاريج ممنوعة من اجتياز سورية للوصول

مهنتي كملك

الى لبنان وتأمين تزويدنا بالوقود • كنا قد بدأنا استيراده من العراق فاذا بهذا المصدر يجف معينه ، حتى أن العراق سمح لنفسه باحتجاز صهاريجنا ليزيد من اختناقنا • كان الوقود في غاية الضرورة لنا من أجل ضخ الماء اللازم لاستهلاك السكان في عمان وفي المدن الاخرى ، وكذلك من أجل توليد الكهرباء ، ونقل المؤن الى جنوب البلاد ، حيث كان المحصول سيئا ، ولنقل الماء أيضا •

أصابني اليأس ، فتوجهت بالنداء الى الولايات المتحدة التي كانت مصادرها من النفط في المنطقة لا حدود لها • رجوت القائم بأعمالها توماس رايت أن يأتي لمقابلتي ، وشرحت له بصراحة ، الصعوبات التي تعترضنا ، وأضفت : « ان الموقف حرج ، وبدون هذا النفط سوف لن نستطيع الاستمرار في العيش » •

بعد أقل من أربع وعشرين ساعة ، حطت الطائرات الاولى غير بعيد عن عمان • وجعلت الصهاريج المتبقية عندنا توزع النفط في المدينة • وعندما بدأ أن كل شيء قد تمت تسويته ، وقعت حادثة غير منتظرة : لم تعد الطائرات تهبط في عمان • ماذا جرى إذن ؟ • اتصلت هاتفيا بالمطار • كنت في البدء أعتقد بأن حادثا فنيا قد أعاق الطائرات عن الهبوط • ولكن لم يكن الامر على هذا الحال •

هل غيرت واشنطن رأيها ، لا : بل أصدقاؤنا في العربية السعودية الذين كان يتوقف عليهم مصيرنا قد رفضوا السماح للطائرات الامريكية التي تنقل النفط من الخليج ، بالتحليق فوق أراضيهم في حين أنه كان الطريق الممكن الوحيد • كان بعض المستشارين في العربية السعودية يعتقدون أن الاردن يعيش ساعاته الاخيرة ، فلم يرغبوا أن يستفروا عبد الناصر • غدا الوضع خطيرا • لم أكن أود أن أقول لشعبي ما كان القليل منا يعرفه ، وهو أن الاحتياطي من النفط لدينا قد نفذ • وأننا محاطون تماما بالاعداء •

عاد المستر رايت من جديد لمقابلتي حاملا أنباء أدعى الى القلق

مهنتي كملك

قال لي : « يا صاحب الجلالة ن السعوديين لا يرفضون السماح لنا بأن نبعث اليكم بالوقود فحسب ، بل انهم يمانعون أيضا في عودة الطائرات الموجودة في الخليج حتى ولو كانت فارغة » •

بدأ اليأس يتسرب الى نفسي • انني أستطيع محاولة الحصول على مصادر أخرى للتموين • ولكن أين أجد الطائرات الشاحنة لنقلها ؟

انني لا أذكر أنني كنت غاضبا مغتاظا الى هذا الحد في حياتي • رفعت سماعة الهاتف وطلبت الملك سعود على عجل • فاحتجت الى ثلاث ساعات لا يصلح ندائي ، اذ كانت الاتصالات الهاتفية مع هذه البلاد في غاية الصعوبة •

وبينما كنت أنتظر مخابراتي الهاتفية جعلت أتأمل في تعقيد الطبيعة الانسانية • كنا وحدنا بلا مورد تقريبا • لماذا ان تصرفا كهذا ما كان ليثير استغرابي من جانب الشيوعية التي ما كنت لانتظر منها أية شفقة على كل حال • ولكن من جانب الاخوة العرب ••• سمعت بعد قليل صوت الملك سعود من الطرف الآخر للخط • لم أستطع أن أتمالك نفسي • وعندما سألته لماذا يقابلنا عربي بالرفض ، اعتذر وقال : « لو كنت مطلعاً على هذه التفاصيل لكنت تصرفت بشكل آخر • أما الآن فقد فات الوقت • لان الحكومة

قد سبق لها أن اتخذت قرارها » •

قلت في نفسي ما أسخف هذا العذر ! واجبته : « انني لن أنسى ما حييت هذا الرفض الذي تواجه به بلادي وشعبي في لحظة حاسمة نجاهد فيها للبقاء على حياتنا » •

بعد انقطاع قصير الامد ، تلقينا الوقود ، ولكن بأكثر الاساليب الممكنة امانة واذلالا • جاء التموين من لبنان ، ونقل كل ليتر من الوقود عبر الاجواء الاسرائيلية ••• وهكذا ، حيث قابلنا شعب عربي بالرفض ، قبل العدو ! • وفي نفس الوقت الذي حاولت فيه أن أجد حلا للعديد من مشاكلي ، دعوت الحكومة الى اجتماع فوق

العادة يعقد في القصر ، وقررنا أن نطلب الى الولايات المتحدة والى بريطانيا العظمى أن تبعنا اليها ببعض القوات . كنا في حاجة الى معونة ليست مادية بقدر ما هي معنوية . كانت تكفي قوة رمزية وأقول صادقاً بأنه كان قد أصابنا الاعياء . فلم يكن في مقدورنا أن نفعل غير ذلك . كان علينا أن نجابه المؤامرات داخل البلاد . وكانت تحتشد قوات عسكرية على حدودنا . وكنا ما زلنا بعد ، أعضاء في الاتحاد العربي . فوجدت نفسي اذن زعيماً للاتحاد العربي الذي لم يجر حله تماماً بعد . ولما كانت المعاهدة الاردنية العراقية قد نصت على أنه في حالة حدوث أزمة داخلية يتوجب على القطرين تبادل المساعدات حتى العسكرية منها اذا ما دعت الضرورة ، فقد كنا في حاجة ، في هذه الظروف ، الى قوة رادعة قادرة على صد العدوان خلال غياب قواتنا الخاصة . كان هذا القرار هاما . ولم يكن في مقدوري اتخاذه وحدي . عندما وافقت الحكومة على اعتبار هذا الطلب ملائماً ، أمرت بعقد مؤتمر مشترك يضم الوزراء والنواب والاعيان ودعوت اليه أعضاء الاتحاد العربي . قلت لهم بأن الحكومة تنظر في طلب عون القوات الامريكية والبريطانية . وانني أدعو كل واحد منكم « أن يبدي رأيه حول هذا الموضوع وأن يعبر بحرية عن وجهة نظره » . فأقر اقتراح الحكومة بالاجماع .

ولما كان سفيراً الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى غائبين عن الاردن ، فقد استدعيت القائمين بالاعمال . السيدين ميصون ورايت . شرحت لهما بأننا لا نطلب مساعدتهم لمواجهة وضعنا الداخلي ، ولكن لاننا مقتنعين فقط بأن شعباً صغيراً حراً لا يستطيع أن يقف وحده لكي يواجه بمفرده الاضطرابات التي تهدده . وأضفت : « انه لا يهمنا من تكون البلاد التي ستبعث اليها ببعض قواتها . ولأن نحتاج الى هذه القوات للمرابطة فترة طويلة في الاردن . ان العون الذي أطلبه باسم شعب الاردن يرمز الى التضامن الوثيق لبلدان العالم الحر » .

تركت للبريطانيين والامريكان مهمة أن يقرروا بأنفسهم من من

البلدين سيمنحننا مساعدته . ووردنا الجواب بسرعة : سيأتي المظليون البريطانيون من قاعدتهم في قبرص . اعتقلنا في ليلة الاربعاء (١٦) تموز (يوليو) آخر المتآمرين الذين كانوا يعدون للانقلاب وبذلك أفلتنا من هذا الانقلاب قبل وقوعه بقليل . كنا نراقب مراقبة شديدة أبسط حركات وسكنات المتآمرين منذ أن برزت الدلائل الاولى وأمسكنا بالرسائل التي حددت اليوم التالي (١٧) تموز (يوليو) بداية للتمرد . وبذلك نجا الاردن في آخر لحظة . كان الانقلاب في الاصل قد تحدد له يوم الرابع عشر من تموز (يوليو) ولكن التدابير الامنية التي اتخذناها أرغمت المتآمرين على تأجيل موعد مؤامرتهم .

عندما ألقى المتآمرون في السجن ، تمكنت أخيراً من أخذ قسط من الراحة ، لانني منذ مذبحة بغداد ، لم أنم سوى أقل من ساعتين . استيقظت باكراً في اليوم التالي . ومنذ الساعة التاسعة والنصف كان الهدير يبشر بقدوم الطائرات الضخمة ، ووصول المظليين البريطانيين .

استطعت فيما بعد أن أعيد تشكيل صور الاحداث التي جرت في وايت هول ، والاسباب العميقة للجواب الرائع للمستمر ماكميلان ، وللسرعة التي أقام الدليل عليها . فقد وجدوا من الأفضل على كل حال ارسال قوات بريطانية بدلاً من قوات أمريكية ، لانه كان لدى البريطانيين قوات على أهبة الاستعداد في قبرص تستطيع أن تبلغ الاردن في الصباح ، في حين كان رجال البحرية الامريكية قد سبق لهم الشروع في النزول في لبنان . كان في وسع البريطانيين أن يبادروا الى العمل بسرعة . اذ في الوقت الذي تلقت انكلترا طلبنا ، كانت دوائر الاستخبارات البريطانية قد أطلعتها بالتفصيل عما كان يحاك من مؤامرات . أدى امتزاج هذين العاملين الى امتناع رئيس الوزراء عن اتخاذ ما كان يدعوه « أصعب قرار » في حياته السياسية . لقد أئذر ماكميلان بأن مستقبل الاردن مهدد بصورة خطيرة ، فدعا فوراً أعضاء حكومته الى الاجتماع .

مهنتي كملك

كان الوزراء البريطانيون مقتنعين بأنه إذا لم يتقرر التدخل البريطاني العاجل ، فإن الموقف سيتعرض الى خطر ازدياد التدهور وبالتالي الى اشتعال الشرق الاوسط بأسره بسرعة . ذلك لأنه إذا أصاب العراق الاردن بعدواه ، فإن العربية السعودية ، هذا المخزون الجبار من احتياطي النفط ، ستتعرض الى خطر عدم الإفلات من العدوى . ومن يستطيع في هذه الحالة التنبؤ بالنتائج التي ستنتج عن ذلك ؟

اختتم اجتماع الوزارة في الساعة الثانية صباحا . ووجهت رسالة بالشيفرة الى قبرص . فصدرت الاوامر الى المظليين البريطانيين بالانطلاق الى الاردن . كان لا بد من العمل بسرعة لذلك أقلعت طائرات نقل الجنود البريطانية على الفور باتجاه عمان .

سأل نائب بريطاني في ذلك العهد ، عن سبب عدم اجلاء ملك الاردن ونقله الى انكلترا بدلا من ارسال قوات الى عمان ؟

علمت بهذه القصة بعد مضي سنة في الوقت الذي كنت فيه موجودا في لندن . فقلت عندئذ لرئيس الوزراء ، بمناسبة حفلة عشاء أقامها على شرفي :

« ان عضوا محترما في برلمانكم قد توهم ان اثنين من رجال الشرطة كانا كافيين لتأمين حمايتي ، وأنه لا تستدعي الضرورة ارسال قوات الى الاردن لكي تحميني . انني لم أكن شخصا في يوم من الايام في حاجة الى الحماية . ان قواتكم لم تحم الاردن ولم تحمني أنا شخصا ولكنها حمت قضية الحرية » .

مهنتي كملك

كنتم محاطين بالاعداء أكثر فأكثر .

نعم كان عام ١٩٥٨ عام التجارب المريرة بالنسبة اليّ ، تماما كعام ١٩٧٠ ، ولسوف يبقى راسخا في ذهني الى الابد . غادرت آخر فصائل القوة العسكرية البريطانية في عمان في (٢٩) تشرين الاول (أكتوبر) وأبحرت من العقبة في (٢) تشرين الثاني (نوفمبر) ولقد أتاح لنا مجرد وجودها خلال بضعة أشهر أن نلتقط أنفاسنا بعض الشيء . كان الجنود ذوو القبعات الحمراء ، بتجوالهم في شوارع عمان ، قد مكنوا الشعب من التثبيت من أننا لم نكن وحدنا وأنه لا مجال لليأس .

لقد كان عدد كبير من أفاضل رجال الاردن متواجدين عرضا واتفاقا في بغداد عند وقوع التمرد الذي فقدوا فيه حياتهم في نفس الوقت مع ابن عمي وأسرته . كل شيء كان قد أعد بمهارة لكي يقع الانفجار في بغداد وعمان في آن واحد . ولقد حصلنا على الأدلة التي تؤيد ذلك فيما بعد .

كنت الهدف التالي في أذهان المتآمرين . وإذا كنت لم أخش على مصيري الشخصي أو مصير أسرتي ، فقد كنت أشد قلقا على الاردن ، أسرتي الكبرى . لقد انضم اليّ كل أردني حقيق بهذا الاسم خلال هذه الفترة العصيبة ، وأيدني بقدر ما استطاع . فأصبحت أشعر بأنني زعيم عشيرة يزداد عددها باستمرار وتتوحد صفوفها بتسلسل الاحداث ، مما حال دون تدميرنا . وكنت أدرك جيدا أنه إذا ما أصابني شيء ما ، فإن بلادي سوف تنهار . وما كان بودي أن أترك الاردن ما دمت أشعر بأن وجودي سوف يعود على بلادي بأي نفع مهما بلغ .

بقيت مسألة جوهريّة : ماذا أفعل لسائر هؤلاء الوطنيين المخلصين الذين برهنوا على ولائهم لي ؟ ان الحل لا يكمن في

مهنتي كملك

تشكيل حكومة جديدة • فقد كنا محاطين بأعداء لا يستطيع إيقافهم شيء ما دمت باقيا في منصبي • واني لارجو أن تؤمن بأنهم كانوا خصوما مخيفين •

وعندما يتفحص المرء هذه السنين الماضية فانه سيتحقق من أن عام ١٩٥٨ كان ذروة سنين ثلاث كان الاردن خلالها تحت رحمة دعاية خارجية ترمي الى التخريب ، والى تسلل العملاء الشيوعيين كانت دعايتهم ذات مظهر براق ، وكانت تنتشر في أقصى أنحاء البلاد • وبينما كانت القاهرة تملك أجهزة للبت عصرية وقوية ، لم يكن لاذاعة عمان في ذلك العهد ، سوى جهاز قوته خمسة كيلواط يغطي مساحة نصف قطرها خمسون كيلو مترا • ولقد بذلنا ما في مقدورنا لمكافحة موجات السباب والمشتائم التي كانت تتوارد علينا من الخارج • ولم يكن يسع المواطنين سوى الضحك عندما كانوا يعودون الى بيوتهم بعد انتهاء أعمالهم اليومية فيسمعون من أجهزتهم اللاقطة عبارات كهذه : « الجنود يتذابحون في عمان والدماء تغطي الارصفة بلونها الاحمر القاني ! » • الخ • بالطبع كثير من الناس البسطاء ، كانوا يصدقون أقوالا كهذه ، ولكنهم ما كانوا يشكلون الا أقلية ضئيلة لحسن الحظ •

واني لاذكر يوما كنت أقوم فيه بجولة بالسيارة مع صديق لي باتجاه جبل (نبو) • كان كل شيء هادئا عندما التقطت فجأة اذاعة القاهرة وسمعتها تقول : « سوف نقاتل الى أن نستأصل الحسين وزمرته » • وغير بعيد من ذلك المكان على سفح جبل الزيتون ، سمعت اذاعة دمشق تقذف بشتائم أخرى في الوقت الذي كنت فيه متواجدا في المكان الذي اقتيد اليه السيد المسيح لصلبه ! ولعل أكثر الامور خطورة بلا شك ، هو تسلل العملاء المحرضين الذين كانت أساليبهم في الافساد معروفة جيدا • كان هؤلاء العملاء كثيري العدد ، وكانوا يعيثون فسادا في مجموع أجزاء الوطن ، فيدخلون بشكل خاص أسلحة كان من الصعب علينا أن نحول دون تسربها لطول حدودنا وضعف الحراسة والمراقبة فيها أحيانا •

مهنتي كملك

ولقد اتسع نطاق هذا التسلل الى الحد الذي اضطررنا فيه الى تعرية حدودنا الغربية بعض الشيء مع اسرائيل لتعزيز الحدود التي تفصلنا عن بعض الشعوب العربية الشقيقة • لم يكن ثمة شيء يتوقفون عنده • كانوا مصممين على عمل كل شيء • وهناك وافعتان توجزان تماما هذا الوضع الذي لا يطاق :

الواقعة الاولى ، تورط فيها الملحق العسكري المصري في عمان الراحل فؤاد هلال الذي كان قد تعرف على عسكري أردني يعمل في الدائرة القضائية التابعة للقيادة العامة ، ويدعى صفوت شقير • أما هدفه : فهو رشوة شقير وحمله على اغتيالي •

لم تعد هذه المؤامرات ضدحياتي لتقلقني أبدا • ولو أنه كان لا بد من اكتشافها في حينها • ولكن هذا الاسلوب الجديد الذي كان يستخدمه أعدائي قد بدا لي « مستقبحا » ، لا سيما وأن سفارة مصر كانت تتمتع بحمايتنا ، اسوة بكل السفارات الاخرى •

أبلغني ضابط استخبارات بالامر وقال : « نحن ننتظر حاليا • فلقد أعلمنا شقير أنه على موعد قريب مع الدبلوماسي المصري » • - سألته : ما هي الادلة التي لديكم ؟ •

- فقال كل شيء مسجل يا صاحب الجلالة •

قررنا الاستمرار في ممارسة هذه اللعبة وانتظار الموعد المقبل • ولكن ما لبثت الامور أن فسدت • فقد اكتشف المصريون المسجل الصغير والسلاح الذي كان يحمله رجلنا ، فاحتجزوه طوال الليل ، وعذب وضرب ضربا مبرحا • فاضطر أن يوقع تحت التهديد المسلح « اعترافا » ، لم يحظ بالطبع في نظرنا بأية قيمة • وسلم المصريون شقيرا الى الشرطة زاعمين بشكل خاص أنه تسرب الى السفارة بطريق الكسر والتحطيم ، ولكنهم احتفظوا بسلاحه وبالمسجل الذي كان معه • وبالطبع طلبنا استدعاء هذا الملحق العسكري المزعج •

مهنتي كملك

وقد جرى فيما بعد توقيف تسعة عشر شخصا آخرين ، كشفت محاكمتهم أن الرجل الذي كان يوجههم لم يكن سوى قنصل مصر النعام محمد عبد العزيز • كان هو الذي يصدر اليهم أوامر التخريب والتدمير وادخال الأسلحة الى الاردن سرا ابتداء من قطاع غزة • وقد استدعي هو الآخر الى بلاده •

أما الواقعة الأخرى ، فقد جرت بعد تمرد الزرقاء ، وقبل قليل من مقتل ابن عمي في بغداد • في ذلك الوقت ، كنت أتوهم أن من الممكن أن تنتظم الأمور ، وأن نستطيع العيش بسلام مع جيراننا وحتى أن نبني جيشا مشتركا مع مصر والعربية السعودية على السواء •

بينما كنت أعمل في القصر ذات مساء ، طلب ضابط مقابلي والتحدث الي • كان يبدو مضطربا • قدم الي مظروفا ، ورجاني أن أطلع عليه • كانت رسالة مكتوبة من العقيد يسري قانصوه الممثل المصري لدى القيادة الموحدة لجيشنا ، وكانت موجهة الى اللواء محمد حافظ اسماعيل في رئاسة أركان الحرب في القاهرة : كان اغتياي واردا فيها بالتفصيل • وكان بين الشركاء المتواطئين ، العديد من كبار الضباط والجنرالات الاردنيين الفارين الى دمشق والقاهرة ، فور حادث الزرقاء ، لا سيما علي أبو نوار والخياري • وقد أوردت رسالة قانصوه أيضا قائمة بضباط أردنيين كانوا يتظاهرون بأنهم من الموالين والنزيهين ، أي الخطرين اذن ! كان لا بد من العمل بسرعة • فقمنا باجراء اعتقالات عديدة لحسن الحظ قبل تدمير الجسور والمباني والامكنة الاستراتيجية الأخرى • وتم الاستيلاء على كميات هامة من الأسلحة والذخائر ، ومنشورات الدعاية • كان الوقت قد حان لكل هذا !

في ذلك الحين كان المرء يستطيع شراء الأسلحة السوفياتية في أي مكان • فقد دخل بعضها عن طريق التهريب وبعضها الآخر كانت مصر قد تركته في سيناء بعد حملة السويس • وقد حصل

مهنتي كملك

أحد المقربين مني على قطعة من هذا السلاح على رصيف مشرب للقهوة في أريحا بدون أية صعوبة وبدون أن يعطي اسمه أو أن يبين نوع الاستعمال الذي من أجله يحتاج الى هذا السلاح • كان سلاحا ممتازا كما استطعت أن أتأكد من ذلك فيما بعد •

لقد افتتح الروس لانفسهم معظم الاسواق العربية عن طريق مبيعاتهم الرسمية من السلاح الى مصر • وبتواجدتهم فيها أصبح من العسير طردهم منها • ربما كان المصريون غير راغبين في استضافة عدد من الروس والتشيكيوسلوفاكيين ، ولكن عندما يشترون أسلحة ثقيلة وخفيفة تتطلب صيانة خاصة ، فانهم مضطرون على الغالب أن يحتفظوا بالباعة في متناول أيديهم ، ثم جاء دور الميخ مع جميع « الخدمات اللازمة بعد البيع » ، والفنيين والعملاء والمدرسين وأسرههم الخ • • • ، لقد سر الروس بذلك • فقد نالوا ما أرادوا • ومن ذلك الى الانطلاق نحو دمشق وبغداد ، أو أي مكان آخر ، لم يكن أمامهم سوى خطوة أخرى !

كان زعماء الدول العربية الذين كانوا يهاجموننا وقتئذ ، أدوات في أيدي موسكو دون أن يشعروا بذلك على الغالب • أما أنا فقد لبثت متمسكا بشدة بقناعتي بأن الشيوعية لا تستطيع في أية حال أن تساعد على تحرير الشعوب العربية ، لان كل فرد منهم لا بد أن يصبح في النهاية « عبدا لموسكو » •

لقد تعرضتم لعدة محاولات اغتيال منذ عام ١٩٥٢ ، بعضهم يقول أنها عشرة ، وبعضهم يقول أنها عشرون ، لقد قتل رؤساء وزارات وأعضاء حكومة ومقربون اليكم ، ما هي في نظركم المؤامرة ذات الطابع المميز والاكثر مأساوية ؟

كان بلا شك الهجوم الجوي السوري عام ١٩٥٨ بعد بضعة أشهر من المقتل الفاجع لابن عمي وأسرته في بغداد ، فقد قدرت في نهاية تشرين الاول (أكتوبر) أن الازمة قد هدأت بما فيه الكفاية الى الحد الذي يمكنني من أخذاجازة قصيرة ، وعلى ذلك قررت الذهاب الى أوروبا بطائرتي الخاصة ، فكاد هذا الطيران أن يكلفني حياتي .

أقلعت من عمان في الساعة الثامنة وعشرين دقيقة صباح العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) بالطائرة القديمة ذات المحركين التي كانت لجدي ثم أصبحت بعدئذ ملكا للقوات الجوية كان مساعد الطيار العقيد جوك دالجليش المستشار الجوي لدى القوات الجوية الملكية الاردنية عهدئذ ، وكان المسافرون خالي الشريف ناصر واثنين من الطيارين في القوات الجوية الملكية الاردنية ، كانا مكلفين باعادة لطائرة ، وموريس رينور .

كانت السلطات السورية المؤيدة للناصرية ، تعرف قبل سفري بأنني سوف أكون في هذه الطائرة وأنني أعترم الذهاب الى لوزان لقضاء ثلاثة أسابيع فيها بالقرب من والدتي الملكة زين الشرف ، ومن ابنتي عالية وبقية أفراد أسرتي . وكان علي أيضا أن أحتفل بعيد ميلادي في الرابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ، وقد حجزت غرف لهذه الغاية ، في بوريفاج الفندق نفسه الذي تلقيت فيه هذه البرقية التي كشفت ما حتمته الاقدار ، فنادت بي ملكا قبل ستة أعوام .

أبلغت شعبي بسفري ، على خلاف عادتي ، حتى أنني أقيت

خطابا وداعيا عشية رحلتي حضره سائر أعضاء السلك الدبلوماسي لم يكن أبسط ، على ما يبدو ، من التحليق في سماء سورية وبنان حتى قبرص ، أول محطة لنا ، ثم استئناف الرحلة نحو أثينا وروما ، كان هذا هو الطريق الاقصر المألوف ، وكان من حقنا أن نتبع هذا الطريق نحو أوروبا .

عندما أقلعنا ، كان الجو باردا والسماء مغطاة بالغيوم ، عارتفعنا في السماء حتى بلغنا تسعة آلاف قدم لكي نتجه نحو الحدود السورية . تبددت الغيوم بسرعة ، واتصلنا بدمشق عن طريق الراديو محددين مكاننا فوق الحدود وطالبين السماح لنا بالاستمرار في الطيران .

ولكي يتسنى فهم ما تلا ذلك ، تجدر معرفة أن مطار دمشق هو الذي أذن لنا بمتابعة طريقنا ، كانت خوذتي موجهة على ذبذبة الموجة التي يتخاطب بها المطار المذكور ، ولقد سمعته بأذني . وعلى هذا واصلنا الطيران باتجاه نقطة محددة ضمن المجال الجوي السوري حيث كان علينا أن نشير الى موضعنا . وهذا ما فعلناه . سألتنا دمشق عن الوقت التقريبي لمرورنا فوق المدينة ، فأجبنا .

في هذه اللحظة خالطنا ارتياح أولي . وبالفعل بعد هنيهات قليلة ، نادتنا دمشق من جديد وأعلمتنا بأنه : « لم يسمح لكم بالتحليق فوق دمشق ، وعليكم أن تهبطوا » .

فأجبنا فوراً : « لقد حصلنا على الاذن بالتحليق ، وليس بالهبوط في دمشق ، ان قبرص هي وجهة سيرنا » .

ردت دمشق : « انتظروا » .

لقد اعتقدنا نحن الاثنين في غرفة القيادة ، بأن في الامر خطأ . فواصلنا سيرنا حتى غدونا على ما يقرب من خمسة وعشرين

مهنتي كملك

كيلو مترا من دمشق التي كنا نستطيع مشاهدتها بين مجموعتين من الغيوم ، عندما نودي علينا مرة أخرى : « لم يؤذن لكم بالتحليق عليكم بالهبوط في دمشق » . وفورا تقريبا بدأوا يوجهون إلينا التعليمات الخاصة بالهبوط . وطلبوا إلينا أن نشير الى اللحظة التي نصبح فيها باتجاه المدرج . فحولت ناظري الى دالجليش .

وبدون أن نتفوه بأية كلمة ، استدرنا نحو عمان وأجبنا في نفس الوقت : « اذا كانت هذه أوامركم النهائية ، فينبغي علينا أن نتصل بعمان لابلأغهم بالامر » .

كنت قلقا حقا ، فناديت عمان وأطلعتهم على ما حدث . فورد الجواب متلهفا ، ولكن واضحا : عليكم بالعودة الى القاعدة حالا . أبقوا على موجتكم ولا تبلغوهم باستلام أية رسالة أخرى . وبأسلوب معبر عن مقتضى الحال أضاف الصوت : حظا سعيدا .

أعدت الاتصال اللاسلكي بدمشق فسألونا : « أين موقعكم ؟ » . فأجبناهم : « نحن الآن نطير بشكل دائري بانتظار تعليماتكم النهائية » . في هذه المرة كان السوريون أكثر صراحة وحزما . فقد أمرونا من جديد بالهبوط . فرددت بإيجاز : « نحن آسفون . لا نستطيع ذلك » . ثم أعدت الاتصال اللاسلكي بعمان .

كنا نتجه نحو أقرب نقطة على الحدود الاردنية دون أن تعنى بسلوك نفس المسار الذي اتبعناه في الذهاب : وذلك اختيارا للطريق الأقصر ! كنا نطير على ارتفاع عشرة آلاف قدم ، عندما طافت بذهني فجأة فكرة : تلفت نحو جوك وقلت له : « لماذا لا نهبط ونعود بمحاذاة الأرض ؟ » .

انطلقت هابطا بسرعة تقارب الاربعمائة كيلو متر في الساعة ، وهي أقصى سرعة ممكنة تحتلها طائرة الدوف القديمة المسكينة هذه ! اعتقدت بأننا عندما نصبح بمحاذاة الأرض تضعف امكانيات

مهنتي كملك

اكتشافنا ، وتزداد صعوبة تحديد موقعنا لان الطائرات النفاثة تتحرك بصعوبة على ارتفاع منخفض ولان مدخراتها من الوقود محدودة .

كدنا نلامس الأرض على ارتفاع يقرب من الصفر ، عندما اقتربنا من الحدود الاردنية .

وفجأة جاعني الى غرفة القيادة أحد الطيارين الجالسين في الجانب الخلفي من الطائرة ، وصاح : « لقد رأيت طائرتي ميح تطيران على ارتفاع عال بمواجهتنا ! » .

وبديهي أنهما لا يستطيعان المجيء الا من الحدود الاردنية . ومن المحتمل أن يكونا قادمين من المجال الجوي الاردني . كانت نظرة دالجليش تؤكد لي بأننا أدركنا نحن الاثنان ، المقصود من ذلك . فهاتان الطائرتان لم تقلعا ، بعد رفضنا الهبوط في دمشق .

اعتقد بأن دالجليش وأنا قد أحسنا برعشة من الغم والضيق ولكنني طلبت الى الطيار أن يعود الى الخلف وأن ينبهني اذا ما رأهما من جديد . ثم شد كل منا حزام الامان على وسطه .

بعد دقيقتين مرت طائرتا الميخ (١٧) التابعتان للجمهورية العربية المتحدة بجانبنا الايمن وانعطفتا لتقطع علينا الطريق ، ثم أخذتا في الارتفاع ثم غاصتا لمهاجمتنا .

جعلت طائرتي القديمة تقوم باجراء قوس دائرة . فاذا كان لا بد من أن نموت هنا ، فلسوف أسقط احدي طائرتي الميخ على الأقل . ولماذا لا أسقط الاثنتين بوسائلنا الضعيفة التي توجد في الطائرة .

استلم جوك قيادة الطائرة . وبينما كانت الطائرتان (المعاديتان) تنقض علينا ، كان جوك قد أبقى انعطاف الطائرة

مهنتي كملك

في أقصى حدوده الممكنة • كانت الطريقة التي انتهجوها بسيطة • كانوا يغوصون أمامنا ، كل بدوره ، في محاولة لقطع الطريق علينا ومهاجمتنا من الامام • وما كنا نستطيع اتيان أي عمل سوى مراقبتهم ومحاولة استباقهم • ما هو عدد المرات التي هاجمونا فيها • عشرة ، خمسة عشر ، عشرون ، لم أعد أذكر ذلك • كان هنالك دفاع واحد ممكنا : وهو الانحراف عن خط مسارهم عندما نراهم ينقضون ويهجمون علينا • كنت أعرف أن طائرة الميخ تستطيع أن تجري انعطافات مماثلة لما نفعله ولكن بعد أن خفضنا سرعتنا الى مائة وخمسين كيلو متر في الساعة ، أصبحنا قادرين على اجراء دوائر أكثر صفرا • كانت انعطافاتنا الفجائية القصيرة التي كنا نجريها في أواخر اللحظات ترغم طائرتي الميخ على اطلاق الرصاص فوقنا كلما كانتا تمران بنا •

كان أخشى ما نخشاه هو أن نفقد رؤيتهما • فكان علينا أننا وجوك أن نجعل أعيننا تراقب في كل مكان لاكتشافهما قبل الهجوم ولقد جعلنا طائرة الدوف القديمة تقوم بحركات جريئة ، وأرغمناها أحيانا أن تبلغ في سرعتها أقصى حدود امكاناتها ولقد صمدت بأعجوبة •

وبينما كنا نطير في كل اتجاه ، ساءلت نفسي فجأة عن وضع رفاقي في الرحلة ، أولئك الجالسين على المقاعد المخصصة للمسافرين ، وعن كيفية احتمالهم لقفزات الطائرة واهتزازاتها • وفي غضون ذلك ، دخل خالي الشريف ناصر غرفة القيادة وصاح : « ماذا يجري ؟ »

فصرخت فيه : « انهم يهاجموننا » •

قال لي عندئذ : « أعطني جهاز المخاطبة اللاسلكي لاقول لهم ما اعتقده فيهم ! » •

فأجبتة : « ليس هذا هو الوقت المناسب » • إلا أن موقفه قد

مهنتي كملك

شدد من عزائمنا ورفع من معنوياتنا بعض الشيء •

تضاعفت الهجمات من كل اتجاه ، فصرخ جوك : « من الحكمة أن نبعث بإشارة استغاثة في حالة اضطرارنا الى الهبوط أرضا » • وهذا ما فعلته ولكننا لم نستطع الاتصال بعمان ، لاننا كنا نطير على ارتفاع منخفض •

وقد كدنا بعد لحظات أن ننسحق • كان جوك وراء عجلة القيادة ينظر الى اليسار باحثا عن احدى طائرتي الميخ ، بينما كنت أتفحص الافق باتجاه اليمين باحثا عن الطائرة الاخرى • ومن يمين الطالع أننا أدركنا رأسينا في نفس اللحظة ، فوجدنا أننا نطير في خط مستقيم باتجاه تل ، فقفزنا معا الى عجلة القيادة لتصحيح مسار الطائرة ، فاضطربت الطائرة القديمة وشبّت بعناء وترددت هنيهة وأخيرا كادت تلمس التل على بعد بضعة أمتار !

كان علينا مع ذلك أن لا ننسى الطائرتين السوريتين • فقد حاولتا بأساليب مختلفة أن تهاجمنا تارة معا وتارة بالتناوب ثم من جديد مشتركتين معا • لقد تولد لدينا انطباع بأننا كنا نلعب « لعبة القطة » في الاجواء وبسرعة مخيفة • كانتا تطارداننا وكان علينا أن نتفادى الضربات • ولكن كان شعوري بأنه اذا كانت هذه اللعبة خطيرة بالنسبة اليها فقد كانت خطيرة بالنسبة اليهما أيضا كنا نرى بوضوح طلقات الرصاص المتتابعة تمر أمامنا ووراءنا وأحيانا فوقنا وأحيانا أخرى تحتنا • ولكنهما كادتتا ، هما نفساهما ، أن تصطدما مباشرة ببعضهما ! »

استمرت الهجمات بايقاع متسارع الى أن تعرفنا تحت أقدامنا على أرض الاردن • وفجأة أصبح كل شيء هادئا • سكن كل شيء فقد عبرنا أرض بلادنا واستدار المهاجمون متجهين نحو سورية •

واصلنا الطيران نحو عمان على ارتفاع منخفض خشية أن

مهنتي كملك

يكتشفنا الرادار السوري إذ كان في مقدورهم أن يبعثوا اليـنا بقاذفات أخرى تطير في هذه الانحاء • وعندما ابتعد الخطر تماما أخذنا في الارتفاع • وفي هذه اللحظة عاد خالي الى غرفة القيادة حاملا سيجارة قدمها الي • يا لها من سيجارة ، ما ألد مذاقها ! • قال لي فقط وسبابته في الهواء : « عمل رائع ! » •

جعل رينور يبحث عن وجبات الفطور التي لم نتناولها • فوجدنا الطعام مقلوبا رأسا على عقب • كل شيء قد انكفأ أثناء المرات العديدة التي قمنا فيها بالهبوط العمودي والطيران على شكل قوس دائرة • كان الشاي والقهوة مسفوحين في كل مكان • ومع ذلك استطاع كل منا أن يتناول كوبا من الشاي •

ثم استمعنا الى صوت برج المراقبة في عمان وأصوات الطيارين الاردنيين الذين كانوا يطوفون في الاجواء بحثا عنا • لقد عدنا من بعيد ، من بعيد جدا وباستطاعتنا أن نكون فخورين بأنفسنا • لقد نجونا حقا من خطر أكيد • لقد أخلفت موعدا مع الموت كان قد حدد لنا • ولقد تساءلت عن السبب الذي حمل السوريين على مهاجمتنا بهذا الاسلوب الجنوني • وحتى اليوم لم أعثر بعد على جواب •

كانت طائرتي الدوف معروفة من الجميع ، الاردنيين منهم والعرب الآخرين • ولم يكن من المعقول أنه قد اختلط عليهم أمرها فاعتبروها طائرة أخرى • كانت تحمل بوضوح شارة القوات الجوية الملكية الاردنية ، مع شعاري وعلمي الشخصي • لقد هبطت في دمشق عدة مرات ، أحداها في زيارة رسمية • لم أعتقد لحظة واحدة أن السوريين كانوا يودون اعادتنا من حيث أتينا فحسب ، إذ يوجد لهذه الغاية مصطلحات دولية ، واجراءات قائمة بذاتها يعرفها الطيارون في العالم أجمع ، لم تطبق بالنسبة الي في أية لحظة • كان طيارو الميج يعرفون ذلك أيضا • ولم تدع هجماتهم المتكررة أي شك حول التعليمات التي تلقوها •

مهنتي كملك

كان السوريون شديدي الحساسية بالنسبة لمجالهم الجوي • فقد اكتشفوا قبل ذلك ببضعة أشهر طائرة مدنية لبنانية فوق دمشق ، فأطلقوا عليها نيرانهم بدون انذار • ولقد تمكن الطيار من النجاة بأن هبط بشكل عمودي نحو الارض وطار على ارتفاع منخفض باتجاه بيروت • ثم وقعت حوادث أخرى فيما بعد لم يتم جلاء أمرها أبدا • ولكن ما هي الاعذار التي يمكن الاحتجاج بها عندما تضرب بالمدافع الرشاشة الطائرة المدنية المجردة من السلاح ؟

ليس ثمة غير جواب واحد في نظري • انهم كانوا يريدون القضاء علي كما قضوا على ابن عمي فيصل ملك العراق قبل ذلك بثلاثة أشهر ليخلصوا من الهاشميين • ومن السهل جدا أن يقال فيما بعد بأن هذا الحادث يعود الى اصراري على الرغبة في الطيران ! •

من هم هؤلاء الطيارون ؟ من الذي ألغى التعليمات الاولى التي أذنت لي بالطيران عبر الاجواء السورية ؟ لم يردنا بالطبع أبدا أي جواب مرض على أسئلتنا من جانب سلطات الجمهورية العربية المتحدة • وقد روعي الصمت المطبق فيما يختص بمعرفة الشخص الذي صدرت عنه الاوامر المضادة والتعليمات المعطاة لطيار طائرتي الميج باسقاطنا •

بعد دراسة الحادث بشكل جدي ، قررنا عدم عرض القضية على الامم المتحدة • فقد فضلت أن أجعل منها قضية شخصية بدلا من اعتبارها قضية قومية • فمعرفة وزن الامور ، خيرها وشرها ، بهدوء وبمعزل عن انفعال النفس ، تدخل في باب مهنتي كملك •

وما من شك في أن هذه المواجهة مع طائرتي الميج السورية كانت اللحظة التي رأيت فيها الموت مني قاب قوسين أو أدنى ، طوال حياتي كرجل •

مهنتي كملك

عندما تتلفتون الى الوراء لتتوجهوا بأنظاركم نحو الخمسينيات الا يتكوّن لديكم انطباع بأن حياتكم كانت أشبه بحياة المغامرين ؟ مرة كانت قططكم تأكل من طعامكم فتموت مسمومة ، وفيها بعد وضع حامض كيميائي صرف في زجاجتكم التي تحتوي على نقاط لعلاج الانف ...

نعم ، يتراءى لي أحيانا أنني الشخصية الرئيسية لقصة بوليسية ، أنني أصنف المؤامرات في ذهني صنفين متباينين . هنالك من جهة « الضربات الاعظم » ، كقضية الزرقاء ، التي تهدف الى الاطاحة بالملكية وتقويض دعائم الاردن . وبهذه المناسبة ، اذا كان القضاء المهادي على شخصي هاما بالنسبة للمتآمرين ، فهو ليس الا احدى المراحل في الدسائس والمكائد التي كانت تدبر . وهنالك من جهة أخرى محاولات اغتيال ضد شخصي ليس لها أية علاقة بالسياسة اطلاقا . فاذا كانت المؤامرات ضد حياتي وحياتي فحسب ، أكثر عددا من تلك التي دبرت ضد نظام الحكم ، فذلك لان اولئك الذين جهدوا طوال هذه السنين لايقاع الاضطراب والفوضى في حياة البلاد ، قد أدركوا بأنه ليس من السهل خلق ثورة عندنا . كانت آخر المحاولات وأشدّها بعثا على الحزن والاسى ، هي محاولة أيلول الاسود عام ١٩٧٠ .

ليس من المستطاع ، كما أمل بذلك المعارضون ، شراء جماعات الوطنيين ذوي الولاء والافلاص الذين يعلوان على كل ثمن . كان الخيار الوحيد أمامهم هو اذن التخفي في ثياب القتلة ، والعمل في الظلام ، بعيدا عن الانظار الفضولية ، ثم قتلي أنا شخصيا ، أو قتل بعض الحكام الآخرين ، على أمل أن تؤدي هذه الاغتيالات الوحشية الى زج البلاد في حرب أهلية محتملة .

لقد أحبطت بالفعل احدى هذه المؤامرات ، عندما اكتشفت أنهم يعتزمون اغتيالي بحامض كيميائي صرف . ولكن قبل أن أروي لك

مهنتي كملك

هذا الحادث ، يجب أن أقوم بعودة قليلة الى الوراء . سوف لن أقص عليك سائر المحاولات الرامية الى قتلي منذ هذا اليوم من نموز (يوليو) عام ١٩٥١ ، وفي المسجد الأقصى بالقدس ، بعد الاغتيال الوحشي لجدي ، عندما أصابتنني رصاصة في صدري فاصطدمت بأحد أوسمتي وارتدت . لا سوف لن أقص عليك كل هذا لانه سيكون باعثا على الكثير من الضجر والملل . لقد قادت العناية الالهية خطواتي طوال أكثر من عشرين عاما ، ولا سيما أثناء هذا الصيف من عام ١٩٦٠ حيث نجوت من الموت مرتين خلال أربع وعشرين ساعة .

في التاسع من آب (اغسطس) ١٩٦٠ خضبت بالدماء ، احدى المؤامرات الوحشية ، هدوء الصيف وسكينته . في هذا اليوم اغتيل رئيس الوزراء هزاع المجالي واثننا عشر آخرون من الاردنيين بأسلوب نذل دنيء ، عن طريق تفجير جهاز وضع في مكتب رئيس الحكومة . كان هزاع المجالي رجلا شجاعا مولعا بالحرية واسع الشعبية في سائر أنحاء المملكة . وانني ما زلت أشعر بحزن عميق عندما أستذكر هذه الاحداث بالرغم من مرور خمسة عشر عاما على ذلك .

يستطيع أي مواطن ، جريا على العادة المتبعة في بلادنا ، أن يقابل رئيس الوزراء في بعض أيام الاسبوع ، ليبسط له مطالبه وشكاواه . كان اليوم الذي اختاره القتلة اذن متأثرا بهذه الخاصية لان من البديهي أن يكون هزاع المجالي حاضرا ليستقبل زواره . ولما كان المتآمرون على علم بصلات الود التي تربطني به ، فقد وضعوا القنبلة في مكتبه في ليلة ٢٨-٢٩ آب (اغسطس) وراهنوا على أنه عند اعلان وقوع المؤامرة ، سوف أسرع فورا الى مكان الحادث . فوضعوا جهاز تفجير آخر بأسلوب شيطاني مخصص لقتلي مع أناس آخرين .

لقد اعتلتّ صحتي بعض الشيء في هذا الصيف . فقد عملت

مهنتي كملك

كثيرا الى المد الذي جعلني أصاب بالارهاق والتعب الشديد .
يضاف الى ذلك أن مرض التهاب الجيوب الانفية كان يقلقني الى
عد ما ، فقررت في يوم الاثنين هذا ، الواقع في (٢٩) آب ، أن آخذ
قسطا من الراحة . لقد تحدثت مع رئيس الوزراء عشية هذا اليوم
فقد كنا جد مرتاحين من الاعمال التي أسفر عنها مؤتمر وزراء
خارجية الجامعة العربية الذي انعقد في شتورا في لبنان .

كنت اذن أستريح في مزرعتي في الحمّر ، عندما قرع جرس
الهاتف في حوالي الساعة الحادية عشرة ، وفي الطرف الآخر من الخط
تعرفت على الصوت الحزين لمدير مكتب هزاع المجالي . كانت
الجملة التي تالفت بها وقتئذ موجزة وجافة بحيث أصابني
بالجمود :

« يا صاحب الجلالة . ان مكتب رئيس الوزراء قد انفجر وهزاع
باشا قد قتل » .

أعدت السماعه دون أن أطرح أية أسئلة ، وارتديت ملابسني
على عجل . تذكرت وأنا أستعد للخروج ، سرور هزاع المجالي في
مساء اليوم السابق عندما أعرب لي عن ارتياحه لرؤية السلام وقد
عاد يخيم على الاقطار العربية ، ولانتهاء المؤامرات والدسائس .
اذن ما هي جدوى قمة شتورا التي عقدت حديثا ؟ هل لا بد من
العودة الى عهد الارهاب والقلق اللذين كانا سائدين في الماضي ؟
هل توقعات وزراء الخارجية التي لم يجف مداها بعد ، قد
أصبحت الآن معدومة القيمة ؟

كنت وراء عجلة القيادة في سيارتي بعد بضع لحظات ، وقد
وضعت سلاحا الى جانبي ، واتخذ جنديان مكانيهما في المقعد
الخلفي ، وانطلقت باتجاه العاصمة .
عندما اقتربت من ضواحي عمان ، اعترضت طريقي سيارة
خرج منها وزير الدفاع ، ثم وصلت سيارة أخرى كانت تقل حابس

مهنتي كملك

المجالي القائد العام للجيش ، وابن عم رئيس الوزراء المقتول .

قال لي المجالي : « يا صاحب الجلالة ، اننا لن ندعكم تتابعون
سيركم مهما كان الثمن . انكم لن تستطيعوا عمل أي شيء الآن .
فقد انتهى الامر . وانني قانع بأنكم ستتعرضون للخطر في الظروف
الحالية ، اذا ذهبتم الى عمان » .

سألته عما وقع بالضبط .

- فأجاب : ان نصف المبنى قد انفجر وقد انسحق جسم هزاع
المجالي بسقوط سقف مكتبه عليه .

- هل عثرتم عليه ؟

- لم نعثر عليه حتى الآن لوجود الكثير من الانقاض . كما أن
الذين يتولون عمليات الاغاثة ، لم ينتهوا بعد من مهمتهم . ولا بد
أن يكون الانفجار قد وقع في مكتبه .

رفض الجنرال المجالي ووزير الدفاع مرة أخرى أن أذهب الى
مكان الحادث للاطلاع على الخسائر ، ولكنهما اقترحا أن أذهب
الى القصر .

بعد مرور أقل من ساعة على الانفجار الاول ، وقع انفجار ثان
بنفس العنف ، تسبب بمزيد من الخسائر ، وقتل مزيدا من
الاشخاص الابرياء ، ولا سيما بين من كانوا يتولون الاغاثة ، وبين
موظفي الرئاسة الذين جاءوا ليساعدوا في انقاذ الجرحى .

لقد أصبت بالغثيان من جراء كل هؤلاء القتلى ، كل هذا الدم
وهذا الرماد . كان بين الذين قتلوا ، صبي في العاشرة من العمر
وشيوخ في السبعين ، وامرأة طاعنة في السن جاءت من بعيد لتقدم
عريضة الى رئيس الحكومة . كان هزاع المجالي قد طلب الى

مهنتي كملك

موظفي مكاتبه ادخال أقل عدد من الاشخاص معا ، فقد كان يخشى وقوع مؤامرة ، لا سيما وأن مؤامرة قد أحبطت قبل ذلك ببعض الوقت .

كان لا بد من أن نمسك بزمام الامور بسرعة فائقة لكي لا ندع أية فرصة للمتآمرين ، ولتجنب تشابك للامور من شأنه أن يؤدي الى نتائج خطيرة . وبسرعة سمع (صوت العرب) من القاهرة ، يذيع بلهجة تتسم بالعدوانية والاستخفاف والغليظ نبأ مقتل « عميل للاستعمار » سيتلوه مقتل آخرين !

وما كدت أبلغ مكتبي في القصر حتى انتشرت أنباء تفيد بأن هزاع المجالي ما زال حيا ، وأنه كان يمسك رأسه بيديه ، وأن جسمه مغطى بالدماء . بدأ قلبي ينبض بشدة وقد فاض بالامل والرجاء . ولكن فرحي لم يدم سوى فترة قصيرة ، ويا للأسف ، فقد اكتشفت جثة صديقي المنكود الحظ ممزقة بفضاعة . كانت وفاته فورية ، لان جهاز التفجير القاتل كان قد أخفي داخل مكتب عمله ، وفي أحد أدراجة على وجه التأكيد .

دعوت فورا أعضاء الوزارة الى اجتماع غير عادي لتشكيل حكومة في أقرب وقت . لم يكن من السهل استبدال رجل كهزاع المجالي ، وقد وقع اختياري على رئيس ديواني بهجت التلهوني .

واليك على وجه التقريب الكلمات التي وجهتها الى الحكومة الجديدة . قلت لهم : « أيها السادة ان من الامور الاساسية تشكيل حكومة في أقرب وقت . لم يكن من السهل استبدال رجل كهزاع قضوا على هزاع ، فأصابونا اصابة بالغة ، عنيفة في أعماقنا ، ولكنهم لم يقضوا على الاردن . فعلينا أن نواصل أداء رسالة هزاع المجالي ، رعاية لمصلحة هذا البلد وخيره . ولسوف نثار لانفسنا من هذه الالهانة ، ومن جريمة القتل هذه ، ولكننا ، بانتظار ذلك ، سوف نعمل بمزيد من العزم والتصميم ، لانقاذ بلادنا من الايدي

مهنتي كملك

المجرمة التي تنوي تدميرها . لقد فقدنا رجلا من كبار رجال الدولة ولكن ، حتى أثناء المحن والشدائد يجد المرء أحيانا بعض العزاء ، كالذي يتيح لي الآن أن أخاطبكم ، أنتم الذين صان الله حياتكم .

بقي معظم وزراء المجالي في مناصبهم لنبرهن للعدو بأنه لم يطرأ أي تغيير على السياسة التي ننتهجها . وقد واصل التلهوني نفس المهمة ونفس البرنامج كسلفه الذي كان خير صديق له طوال سنوات .

في آخر ساعات النهار استأنف الفريق الحكومي نفسه العمل ، كما لو أن شيئا لم يحدث ، وأقسم التلهوني اليمين القانونية . كان كل ذلك أعظم ستار من الدخان نستطيع أن نضل به أعدائنا ومنتقدينا ، فنثبت لهم بذلك بأنهم اذا ما صرعوا رجلا مهما عظم شأنه ، فانهم لن ينجحوا في تقويض أركان بلد ونظام حكمه .

ولقد أثبت التحقيق فيما بعد أن موظفين من دائرة المطبوعات يعملان في مبنى رئاسة الحكومة ، قد غادرا عمان في هذا الصباح ، واجتازا الحدود السورية للذهاب الى دمشق . كانت سورية وقتئذ الاقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة التي كانت عاصمتها القاهرة . وهكذا تأكدت الشكوك التي ساورتني .

عندما أصبح كل شيء هادئا ، وغدا وجودي في القصر غير ذي ضرورة ، عدت الى مزرعتي في الحمير لاستريح بضع ساعات ، وأتناول بعض الطعام . وما كدت أبلغ القصر حتى اتصل بي هاتفيا عمي الشريف حسين قائلا : « يا صاحب الجلالة . انني أكلمكم بحضور حابس المجالي ، ورئيس شعبة مكافحة الجاسوسية . لقد اتضح لنا أنهم سيحاولون قريبا التآمر على حياتكم وأن الشخص الذي اختير لهذه العملية ، هو أحد رجال حاشيتكم ، اما في الحمير أو في القصر . أرجوكم أن تبقوا حيث أنتم . ولسوف نأتي حالا » .

مهنتي كملك

بعد فترة وجيزة ، أسمعني رئيس شعبة مكافحة الجاسوسية ،
تسجيلاً .

قال : « اصغوا الى هذا يا صاحب الجلالة » وأدار الشريط .
سألت من هو ؟

- فأجاب هو أحد رجالي الذي أصبح منذ فترة قصيرة صديقا
شخصيا لعضو في سفارة الجمهورية العربية المتحدة » .

أخذ يقف شعر رأسي كلما طال استماعي للحديث الذي دار بين
رجلنا وبين الدبلوماسي الاجنبي والذي كان يتضمن هذه الجملة
التي لن أنساها أبدا : « بعد قليل سيلقى حسين نفس المصير .
فلدينا رجل من أنصارنا يعمل مع أفراد حاشيته الاقربين . ولنسوف
ينتهي كل شيء قريبا . ولو استمر في اتباع نفس مألوف عاداته ،
فقط ، لكننا انتهينا منه ، منذ مدة طويلة » .

وأضاف عمي : « كل هذا صحيح ومؤكد تماما . ومن الحكمة أن
لا تناموا في قصر بسمان في هذه الليلة » .

ولما كان اتيان أمر مرة واحدة لا يصبح عادة ، لذلك قررت أن
أذهب لنام عند مورييس رينور وزوجته اللذين كانا يقيمان في دارقريبة
من مكتبي ، في الحديقة الملكية . وهذا من شأنه أن يتيح لجهاز
الامن أن يرصد بسهولة ذهاب واياب الخدم وأن يراقب تحضير
وجبات الطعام . أقمت في غرفة صغيرة مخصصة للاصدقاء ،
وطلبت الى صديقي أن يعمل على ارسال بعض ملابسني وأغراضي
الشخصية التي أعطيتها قائمة بها . وجعلتهم يبعثون الي أيضا
بزجاجة صغيرة جديدة من النقط الخاصة بمعالجة الانف ، لأن
جيوببي الانفية كانت تؤلمني . ومن باب الاحتياط ، طلبت الى
السيدة رينور أن تلقي بالنقط الانفية الموجودة في جميع الزجاجات
المستعملة ، فمن يدري !

منذ نعومة أظفاري وأنا أعاني من الجيوب الانفية . ولقد

مهنتي كملك

أجريت لي عملية جراحية في هذه الجيوب عندما كنت تلميذ ضابط
في ساند هيرست . كان العلاج الوحيد هو الراحة . ولكن راحتي في
الاردن كانت أمرا غير ذي موضوع ، لا سيما في هذا الوقت بالذات .
فالمسكن الوحيد لما كان ينتابني من ألم هو أذن تعاطي هذه النقط
ولقد كانت متاعبي اليومية والاحداث القريبة العهد ، ترغمني
على تعاطي هذه النقط باستمرار . ما الذي حملني في هذا اليوم
على التخلص من الكمية القديمة التي كنت أدخرها من هذه المادة
أية غريزة جعلتني أوصي على كمية أخرى منها ؟ لا أدري .

في هذا المساء ، بالفعل ، عندما طلبت من السيدة رينور أن
تحمل الي دوائي ، نادتنني من غرفة استحمامها قائلة : « تعالوا
بسرعة وانظروا » .

فقد سألت من الزجاجة الجديدة التي فتحتها بعض النقاط ،
ووقعت في الحوض . لا بد للمرء أن يرى ليقنع . كان السائل يغلي !
صببت عندها محتوى كل الزجاجة ، فنتج عن ذلك نفس الحادثة !
اذ كان السائل يتحرك ويضطرب ثم يغلي ويزداد غليانه ويرغي
ويزبد !

لقد فتننت بهذا المشهد . ثم قالت لي السيدة رينور : « انظروا
الى الفعر » فوجدت أن الكروم والدهان قد تجمدا على شكل قشور
متراكمة .

كانت التحاليل الكيميائية التي أجريت على السائل صريحة
واضحة حاسمة : لقد احتوت الزجاجة على حامض كيميائي قوي
شديد يكاد يكون صرفا . لا بد أن أحدا من المقربين - لأنه استطاع
الدخول الى غرفة استحمامي - قد أفرغ الزجاجة أو الزجاجات من
محتوياتها الاصلية ، وأبدلها بالحامض الكيميائي .

لم نكتشف أبدا المذنب الحقيقي . فاذا رجعنا الى التسجيلات
المغناطيسية ، فانه لا يمكن أن يكون الا أحد خدمي . كان من

مهنتي كملك

الصعب عليّ أن أتخيل أن يكون أحد هؤلاء الرجال الذين يعملون عندي بأمانة منذ سنين • ومع ذلك اضطررت الى ابدال سائر الخدم وجميع الادوية التي كنت أتعاطاها •

ان قضية النقط الانفية فظيعة حقا ، ولكنها أبعد من أن تساوي في هولها وشناعتها قضية القطط • فالمرء لا يستطيع احصاء القطط في عمان لكثرتها • كان جدي يحب الهررة ، وفي عهده كانت مجموعة كاملة من السنابير تتردد على مداخل القصر ، بحثا عما يتمنون به من طعام •

كنت أطوف يوما في ممرات قصر بسمان التي تحيط بها الزهور ، فاصابتني الدهشة المؤلمة من جراء اكتشاف ثلاث قطط ميتة • فاضت نفسي شفقة على سوء مصيرها ، اعتقادا مني بأنها قد ماتت جوعا • فأنا أيضا أحب القطط ، وطرحت على نفسي بعض الاسئلة بشأنها • وقلت لأول ضابط صادفته : « افعل اللازم لدفن هذه القطط الميتة » • مشيرا الى المكان الموجودة فيه •

— ثلاث قطط يا صاحب الجلالة ! • ما أغرب هذا الامر •

— قلت : « لماذا » ؟ •

— فأجاب الضابط عندئذ : « بالامس جمعنا ست قطط في هذه الجهة ، وفي اليوم الذي سبقه كان هنالك سبع ملقاة في الجهة الاخرى » • اعتراني انفعال شديد • يا للحيوانات المسكينة • كان ذلك حقا • جميعها قد سممت • لم يرد أحد أن يبلغني بالامر لانهم على علم بمحبتتي لهذه الحيوانات ، ثم لكي لا يثيروا قلقي ، وأخيرا لانهم لم يكونوا متأكدين تماما من طبيعة السم •

ساورتنا بعض الشكوك حول شخص يعمل في المطبخ • ولكننا احتطنا بحيث لا يكون لهذا الرجل أية علاقة بطعام جلاتكم وأسرتكم •

مهنتي كملك

— من هو هذا الرجل ؟

— لقد وردنا تقرير سري منذ بضعة أيام من ملحقنا العسكري في بيروت ، يفيد بأن شعبة مكافحة الجاسوسية للجمهورية العربية المتحدة في دمشق ، على صلة حديثة العهد بمساعد طاه هنا في انقصر • يدعى أحمد نعنec • وكنا قد اعتزمنا اعتقاله بلا ابطاء •

كان اعتراف هذا الرجل واضحا محددا • كان لاهمد نعنec ابن عم في دمشق يعمل في المكتب الثاني السوري ، عندما بلغه ان أحمد نعنec يعمل في مطابخ القصر • اقنعه بتسميم الطعام ، قاصدا في ذلك بذهاب أن يصيبني أنا وأسرتي • وبحكم كون نعنec معدوم الخبرة في أمور السموم ، فقد كان يجري تجاربه على القطط • لقد أقر بملء ارادته وحريته بأنه اذا لم يجر بعد أية محاولة ضدي ، فلأنه كان عاجزا عن تقدير الكميات الصحيحة التي يتعين عليه وضعها • وبالرغم من أبحاثه وملاحظاته ، لم تمت أية هرة بسرعة كافية • وأشار الى أنه قد ارتكب خطأ بترك هذه الحيوانات تتجول في الساحات المعشوشبة من القصر حيث يراها الناس • ولولا ذلك ، وخلال فترة قصيرة ، فقد كان يعتقد أن بإمكانه أداء رسالته على ما يرام •

ألقي الرجل في السجن • وبعد مرور بعض الوقت • بينما كنت أغادر المسجد بعد أداء الصلاة فيه ، بمناسبة إحدى أعيادنا الكبرى ، اقتربت مني فتاة صغيرة تحمل نسخة من القرآن الكريم وجعلت تتوسل الي أن أفرج عن أبيها الذي لم يكن غير أحمد نعنec • ماذا أستطيع أن أفعل وأنا خارج من بيت الله الذي أمرنا بالرحمة والغفران ؟ التفت الى رئيس ديواني ، وقلت له : « اتصل بالسلطات ، واعمل على اطلاق سراح هذا الرجل » •

أفرج عن أحمد نعنec بعد ساعتين • وتمكّن من الاحتفال بالعيد مع أسرته •

مهنتي كملك

تعتبر دوائر استخباراتكم بين أفضل دوائر استخبارات في الشرق الاوسط ، فاذا كنتم ما زلتم على قيد الحياة ، واذا كان الاردن ما زال أمة حرة ، ألا يعود الفضل في ذلك جزئيا الى ما تتصف به من مزايا ؟

قبل عام ١٩٥٦ ، أي قبل حملة السويس ، كانت دوائر الاستخبارات الاردنية محدودة الاهمية على الاقل ، بحيث لا تقارن بمثيلاتها لدى جيراننا ، ان لم تكن هزيلة . كان ثمة بعض المؤامرات والدسائس والوشايات ، لا شيء أكثر من ذلك ، حتى أنه حدث مرة أن أبا لاسرة وشى بابن له كان قد غادر سورية مكلفا بمهمة قتل هزاع المجالي أو خالي الشريف ناصر . كان ذلك على كل حال ، قبل بضعة أسابيع من مصرع رئيس الوزراء في مكتبه مع أشخاص آخرين .

لم أحببب شخصا في يوم من الايام كل هذه التدابير الامنية التي كانت تحيط بي ، ولكن ازاء موجة التحديات والهجمات التي كانت توجه ضد بلادي ، اضطررنا الى انشاء شبكة للمخابرات أشدّ فعالية وأكثر مضاء . وانني أعتقد بأنه ليس لدينا اليوم ما نحسد عليه أيا من جيراننا ، بل أن الامر هو العكس تماما .

ومن ناحية أخرى ، كان علينا أنا وخالي ، أن ننقذ أنفسنا من كمين نصب لنا قبل بضعة أشهر من رحيل كلوب عن الاردن . فقد اعتدت أن أتناول طعام العشاء في مزرعتي في الحمّر ، عندما كانت حرارة الصيف مرهقة مضية . لم تكن قائمة بعد ، الدار الجميلة التي عملت على انشائها فيما بعد ، لتتخذ منها أسرتي مسكنا لها ، وانما كان ثمة مبنى صغير تعود ملكيته الى جدي . كنت أتنقل بلا حرس يرافقني ، وكثيرا ما كان يختلط على الناس الامر ، فلا يميزون بيني وبين خالي الشريف ناصر ، لاقتنائنا سيارتين من طرز بويك متماثلتين .

مهنتي كملك

في إحدى الامسيات ، سبقني خالي على الطريق الى الحمّر ، بينما كنت قد أمضيت فترة بعد الظهر في جرش ، المدينة الرومانية القديمة .

أبصرت فجأة على ضوء مصابيح سيارتي ، سيارة خالي واقفة في عرض الطريق ، وعجلاتها الاماميتان منحدرتان في حفرة . كان يبدو على الشريف ناصر أنه قد أصيب بصدمة أذهلته بعض الشيء . وكانت ملابسه مغطاة بالتراب . قال لي بادیء ذي بدء أنه وقع ضحية انفجار لاطار إحدى عجلاته . فلما اقتربت ، رأيت ثقبين أحدثهما الرصاص في النافذة الامامية لسيارته على مستوى عجلة القيادة ، وقد أحصينا تسعة ثقوب في السيارة ، أحدها أصاب اطار العجلة الامامية اليسرى .

لقد كان القتل ينتظرونني منذ أن أقبل الظلام ، لعلمهم بأنني لا بد من أن أمر بهذا المكان . الا أنه اختلط عليهم أمر التمييز بين سيارتين . عندما أبصروا سيارة البويك ، أضاعوا مصابيحهم لاصابة عيني السائق بالبحر والعشاوة ، ثم فتحوا النار من سلاحين اوتوماتيكيين . لقد توفر لخالي الوقت للتوقف والقاء نفسه خارج السيارة ، حتى أنه تمكن من انتضاء سلاحه واطلاق النار مرتين على القتل الذين وثبوا داخل سيارتهم وفروا باتجاه عمان .

اندفعت داخل سيارتي وانطلقت في أثرهم . كانوا متقدمين علي فترة عشر دقائق . وعلى الرغم من الوصف الذي أعطانيه خالي لم أستطع اكتشاف سيارتهم . ولم نتمكن أبدا ، على كل حال ، من العثور على مرتكبي هذا الاعتداء .

لقد وقعت فيما بعد ، محاولات ومؤامرات أخرى ، ولعلّ تعدادها يغدو مملا باستثناء واحدة تستحق أن نتوقف عندها .

قليل جدا من الاشخاص ، وبالذات من رجال حاشيتي المقربين ، من كان مطلعا على سر وضع من الترقب والقلق استغرق أسابيع

مهنتي كملك

خمسـة • وبالفعل خلال الخمس والاربعين يوما التي دامتـه رحلتي الى الولايات المتحدة في عام ١٩٥٩ ، كان الى جانبي متآمر • رجل كان يريد قتلي • كنا نعيش معا ، ونأكل معا • كان دوما بقربي في السهرات الرسمية • ولقد تقدم الى القادة والحكام الامريكيين • ولكنني كنت أعرف أن وراء ابتساماته وانحناءاته ، يختفي زعيم مؤامرة ، عقد العزم على الاطاحة بنظام الحكم الاردني •

كان هذا الرجل ، هو اللواء صادق الشرع ، رئيس أركان حرب القوات المسلحة • لماذا كان الى جانبي ؟ • قبل قليل من مغادرتي الاردن للقيام بهذه الرحلة الامريكية الطويلة ، تـكوّنت لدي قناعة بأن صادق الشرع وبعض الضباط قد دبـروا ضربة ترمي الى الاطاحة بي خلال وجودي في الخارج • كانت الخطة قد أعدت بدقة ، بمساعدة بعض الاقطار الاجنبية • وقد علمت فيما بعد ، أن بين الاعمال التي كان يعتزم تنفيذها ، احتلال مقر قيادة الجيش واغتيال القائد العام ، وقذف قصر زهران بالقنابل ، حيث كانت تقيم أسرتي الخ • • • • • لم يكن صادق الشرع من الرجال الذين يكتفون بالتدابير الناقصة ، فقد قال لشركائه : « عندما تبلغون زهران ، لا تضيعوا الوقت في اطلاق النار بالبنادق ، بل استخدموا المدافع رأسا » •

كان يبلّغني عن افعال وحركات صادق الشرع ، ضابط من الموالين ، كان يلعب لعبته ليطلعني بانتظام على المجري الذي تتخذـه الحوادث • لم يكن لدي حقا أي برهان محسوس على المؤامرة مع أن بدايتها كانت تبدو أكثر وضوحا يوما بعد يوم ، وما كنت لاستطيع على كل حال أن اعتقل هذا الجنرال ، ما دام أن البدء بالتنفيذ لم يتم بعد • واقتربت ساعة رحلتي •

ما العمل ؟ اتخذت القرار الممكن الوحيد : وهو أن أمضي به معي طوال هذا الارتحال الطويل الامد • فيكون على الاقل تحت رقابتي • تعال بكل ضروب الاوجاع والموانع الشخصية لكي لا يرافقني ،

مهنتي كملك

ولكنه لم يستطع التملّص • كانت رغباتي بمثابة أوامر •

كنت مبتهجا بالقرار الذي اتخذته ، وبالموقف الذي وضعت فيه رئيس أركان حربي • عندما بلغت الولايات المتحدة ، كان معظم المتآمرين قد اعتقلوا وألقوا في غيابة السجن • أما رفيق السفر المزعج ، فقد استبد به القلق المتزايد • كانت الانباء الوحيدة التي يملكها ، تصله بواسطة الصحف الامريكية ، لانني أصدرت أمري قبل مغادرة عمان بأن لا يشار الى اسم صادق الشرع مهما كان الامر ، في البرقيات أو الرسائل التي كان يبعث بها الي • يضاف الى ذلك أنه لم يطلع على أية برقية ، رغم محاولاته المتكررة • كان يقرأ سائر الصحف التي كانت تقع تحت يديه ، فيعلم يوما بعد يوم باعتقال وسجن أصدقائه ، ويخشى أن يشي به أحدهم أخيرا • لقد راودته نفسه بالتواري والتخلي عن مرافقتنا ، ولكن كان ذلك مستحيلا •

اتصل في واشنطن ثم في نيويورك بالاردنيين في محاولة لمعرفة المزيد عن الامور الا أنه لم يكن أحد يعرف شيئا عن ذلك • كان كل التماس له مرفوضا ، سواء لملازمة غرفته أو لاية أذار أخرى • فقد صممت أن لا يبتعد عني قيد أنملة طوال سائر رحلتي •

في لندن ، على طريق العودة ، أحس بأن الامور تسوء بالنسبة اليه ، فطلب أن يدخل المستشفى لاجراء « عملية مستعجلة » ، مؤكدا أنه سوف يلحق بنا فيما بعد الى عمان • ولكن الاذن بذلك قد رفض ، الا أنني وعدته بأنه عندما يعود الى عمان وتسوء حالته الصحية ، فلسوف يكون بإمكانه العودة الى انكلترا لاجراء هذه العملية ذات الضرورة الملحة • بعد قليل من عودتنا ، جرى اعتقاله وسجنه ، وحكم عليه بالاعدام • وقد خفف هذا الحكم الى السجن مدى الحياة • ثم عفي عنه وأطلق سراحه فيما بعد • وهو أيضا يشغل اليوم مناصب هامة •

مهنتي كملك

لماذا لم تحاولوا عرض « القضية الاردنية » على العالم في وقت مبكر ، على الامم المتحدة مثلا ؟

لقد حاولت طويلا أن أتفادى ذلك . كانت المشكلة عربية بالذات ولا تعني سوى العالم العربي . كنت أكره أن أبسط غسيلنا القذر أما الآخرين ، إلا أن المقتل الوحشي لهزاع المجالي أرغمني على إعادة النظر في موقفني ، فقررت ، بعد شهر من مصرع رئيس وزرائي ، أن أتوجه الى منظمة الامم المتحدة لالقاء خطاب هناك . كان ثمة بواعث عديدة تدفعني الى أن أفعل ذلك .

فقد أصبحت هذه الهيئة الدولية ، منذ بعض الوقت ، الهدف المفضل لخروتشوف والشيوعيين . لم يكن الزعيم السوفياتي ليخفي عداؤه للسكرتير العام داغ همرشولد . كان يعتاج في نفسي شعور واضح جدا بأن العالم الشيوعي وبعض الامم التي تدعي الحياد ، قد تعاطفت أهميتهم باستمرار وأخذوا يستخدمون منبر الامم المتحدة مكانا لدعايتهم .

كان هناك كتلتان تتجلبان : الامم الحرة التي تريد أن تبقى حرة . ثم الآخرون . كان يساورني خوف شديد فيما يختص بالاختيار الذي سوف تمارسه الامم الأفريقية التي استقلت حديثا .

ثم ، ولا سيما بالنسبة لسائر ما يتصل بنا من قريب في الشرق الاوسط ، كنت لا أحب هذه الامتيازات التي يدعيها لنفسه الرئيس عبد الناصر كناطق بلسان العالم العربي . فليست له في ذلك أية صفة أو أي حق . لقد مات الرجل حقا ، فلا يليق أن نثير جدالا حول هذا الموضوع ، ولكن آنذاك كنت أعتبر أن من واجبي ابلاغ الامم المتحدة بذلك ، خاصة فيما يتعلق بازدياد حدة التوتر بين الجمهورية العربية المتحدة والاردن . كنت أعتقد أن لي أيضا رأيي الشخصي الذي من حقي الادلاء به

مهنتي كملك

حول بعض القضايا الحيوية بالنسبة اليها نحن العرب ، كالقضية الجزائرية ، أو قضية وجود اسرائيل . سيكون صوتي ضعيفا حقا ، إذا ما قيس بصوت الروس أو أصدقائهم ، ولكنني قررت الذهاب الى نيويورك ، سواء سمعوني أم لا .

كنت أفكر بأنني سأقوم برحلة سريعة وسهلة ولكن دون أن أعتمد على « معونة » جيراننا في الجمهورية العربية المتحدة . ولما كان لا يوجد آنئذ خط مباشر للطيران بين عمان ولندن لطائرات الكوميت التابعة لشركة الخطوط الجوية البريطانية التي تخدم مناطق الشرق ، فقد طلبت أن تهبط في الاردن بشكل استثنائي إحدى الطائرات النفائة الانكليزية لكي تأخذني مع حاشيتي . فقبل الطلب .

بموجب الاتفاقيات الدولية ، أبلغت شركة الخطوط الجوية البريطانية ، دمشق بالتغيير الذي طرأ على خط سير الطائرة وبوجودي على متنها ، وبطيرانها عبر أجواء سورية . بعد أن قبلت دمشق هذا البرنامج الجديد ووافقت على التحليق عبر أراضيها ، عادت فرفضت رفضا باتا . وبعبارة أخرى لا تستطيع طائرة الكوميت أن تحط في عمان لتأخذني . فاضطرت عندها ان أستعير طائرة قديمة تعود للخطوط الجوية الاردنية ، وعرجت على السعودية والسودان لابلغ لندن أخيرا مارا بطرابلس الغرب ومالطا . لقد تحول طيران طبيعى يستغرق سبع ساعات الى رحلة دامت ثلاثا وعشرين ساعة . ولكن لا شيء كان في مقدوره أن يعيق سفري الى الولايات المتحدة . وفي لندن أخذت أول طائرة متجهة الى نيويورك .

غداة وصولي ، جاءني السكرتير العام للامم المتحدة الى الفندق في زيارة مجاملة كانت على ما يبدو امتيازا نادرا . وقد علمت فيما بعد أنني كنت في الواقع رئيس الدولة الوحيد الذي جاء لتحييتي في

مهنتي كملك

هذه الدورة • وهذا ما تأثرت له شديد التأثير • لقد كنت دوما أكن لهذا الدبلوماسي السويدي الذي كرّس حياته لقضية الحرية ، الكثير من التعاطف والاحترام • وقد كان مصرعه ضربة قاصمة لاصدقاء حقوق الانسان •

لم يكن من السهل كتابة هذا الخطاب الهام الاول ، لحكمي الملكي الفتى ، ولكن هذا العمل كان جزءا من مهنتي • كان أمامي يومان • وعلى عكس ما كان يفعل رؤساء الدول الآخرون الذين اعتادوا تكليف مساعديهم ومستشاريهم بكتابة خطاباتهم فقد أعددت خطابي عمليا بنفسي • لقد مورست عليّ ضغوط مختلفة جاءت من كل جانب تشير عليّ بالاعتدال في أقوالي وعباراتي ، ولكن ، حسبما قلت فيما بعد لأحد الدبلوماسيين الذي طرح عليّ السؤال : « لم أقم بهذه الرحلة الطويلة المضنية التي امتدت عدة آلاف من الكليومترات ، لالقي فقط بعض المألوف من مبتذل الكلام »

إن منظمة الامم المتحدة ، بالنسبة إلينا نحن الشعوب الصغيرة لشيء سحري يمنحنا في الوقت نفسه ، الحماية والسلام والتقدم • وقد كنت مصمما على أن أقول كل ما كان يعتلج في نفسي • والا فالأفضل أن أبقى في بلدي •

أنهيت خطابي في الرابعة من صباح الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٠ • ودخلت مبنى مانهاتان الزجاجي في التاسعة والنصف • كان عليّ أن ألقى خطابي في العاشرة ، ولكن خروتشوف تقدمني • ففي خطاب بالغ العنف حمل على منظمة الامم المتحدة وعلى مختلف مظاهر الحياة في العالم الحر ، مزدريا ومستصغرا كل ما نؤمن به من أمور • كان لديّ انطباع بأن كلمتي التي أعددتها سوف تكون جوابا ممتازا على تهجماته • وعندما بدأت خطابي ، نهض السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفيياتي ووفد الجمهورية العربية المتحدة وغادروا القاعة • ولكنني لم أكرث

مهنتي كملك

لذلك اطلاقا ، لأنني لم أكن اليهم أتوجه بخطابي ، وإنما كان حديثي موجها الى العالم الحر • بعد مرور خمس عشرة سنة ، ما زال خطابي يمثل المبادئ التي أداغ عنها • لقد كان هذا الخطاب أهم ما ألقيته طوال ربع قرن من الحكم الملكي • وأنني أستطيع القاءه الآن دون أن أعدّل فيه فاصلة أو كلمة (١) •

لقد تأثرت ، بعد القاء خطابي من تلقي التهاني من الرئيس أيزنهاور والمستر ماكميلان وحتى من المستر نهرو • ولقد دعاني الرئيس فيما بعد الى البيت الابيض ودار بيننا حديث هام امتد فترة طويلة • وأقام السيد همرشولد على شرفي حفلة عشاء خاصة إن هذا الرجل الذي استغرقته المشاغل ، ووجه اليه قبل وفاته الكثير من الذم والقدح ، قد تمكن من التفرغ بعض الوقت ، على الرغم من التزاماته المضنية ، للمجيء مرة أخرى الى الفندق الذي أقيم فيه ، لتحيتي قبل رحيلي •

لقد مات أيزنهاور ، ومات نهرو وهمرشولد ، وأدركت الوفاة خروتشوف وعبد الناصر ، وما زلت هنا دوما باقيا • أما القضية الفلسطينية ، فما برحت على ما هي عليه ، رغم التصويت المتكرر الحديث العهد حولها ، ورغم ما صدر بشأنها مؤخرا من مقررات •

(١) : انظر الخطاب ملحقا في الصفحة (٢٦٢) •

بعد فترة على الأقل مضطربة ، تعرضت حياتكم خلالها للخطر مرات عديدة ، يبدو أن خصومكم ، مع بداية الستينيات قد غيروا من أساليبهم ازاءكم ، فازدادوا احتراماً لشخصكم ، وعاملوكم كرئيس دولة حقيقي ، كما تعاضم وزنكم باستمرار على المسرح الدولي .

لم يستنكر العالم مصرع رئيس وزرائي هزاع المجالي ، عموماً فحسب ، بل ان بعض الاقطار العربية التي لم تكن بين أقل الدول العربية أهمية ، لم تستحسن اطلاقاً هذا الاعتداء البشع . يضاف الى ذلك أن خطابي في الامم المتحدة قد أنالني مكانة رفيعة جديدة في ميدان الشرق الاوسط . ومنذ ذلك الحين ، لم يعرفوني فحسب ، بل عرفوا أيضاً ، وبشكل خاص ، بلادي وما يشغلها من هموم ومشاكل . لقد كنت مرغماً على أن أذيع من على منبر أهم المحافل الدولية ، وقائع احتفظت بها لنفسى فترة طويلة . وكنت مستعداً للاستمرار في السكوت عنها ، لو لم يأتوا في عقر داري فيشييعوا الاضطراب والارهاب .

وما من شك اذن في أن المذنبين سيزدادون شعوراً بالاثم فيما بعد . وعلى ذلك كان من واجبي أن (أبسط لهم يدي) وأن أحاول إيجاد التقارب بيننا . فخطوت اذن الخطوة الاولى بأن كتبت رسالة شخصية الى الرئيس عبد الناصر طلبت اليه فيها أن يبذل ما في وسعه لتحسين العلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة والاردن . وأن يضع حداً للدعاية المعادية التي كانت تشنها ضدنا اذاعتا القاهرة ودمشق منذ خمس سنوات . وقد ضمنت رسالتي أيضاً ما كنت أرجوه من إمكانية الاجتماع به خلال الأشهر المقبلة لنجري معا محادثات صريحة ومخلصة ، حول سائر القضايا التي باعدت بيننا والتي يمكن أن تفرق بيننا في المستقبل .

بعد ثلاثة أسابيع ، وفي نهاية شباط (فبراير) من عام ١٩٦١ ،

أجابني الرئيس المصري بكتاب في منتهى الود ، وأستطيع أن أقول بكتاب يمتلىء حرارة ، دعاني فيه بـ (صاحب الجلالة) أو (أخي) وشاركني فيه وجهات نظري وأفاض في طياته بالعبارات التي تنسجم مع آرائي ومعتقداتي . ولا شك أنه كان مشغولاً بما فيه الكفاية بالهموم والمتاعب التي كان يثيرها حلفاؤه السوريون والعراقيون بحيث كان الاستمرار في اشاعة الاضطراب في بلادنا يتطلب منه المزيد من الجهود . وعلى ذلك نشأ بيننا ، منذ ذلك الحين ، نوع من الهدنة .

كان هذا بداية عهد سعيد توافق من ناحية أخرى في ٢٥ أيار (مايو) مع زواجي بفتاة انكليزية شابة ، كريمة مقدم في البعثة العسكرية البريطانية في الاردن ، وهي المس جاردنر الشهيرة باسم الاميرة منى . أثار هذا الزواج حقاً بعض المشاكل من الناحيتين الدستورية والدينية ولكن تمت تسوية سائر الأمور بسرعة . وقد دام زواجنا اثنتي عشرة سنة ، أنجبت لي زوجتي الثانية خلالها أربعة أطفال : صبيان هما عبد الله وفيصل ، وابنتان سميتا زين وعائشة .

لقد بدا أنه قد بزغ فجر عهد جديد بالنسبة لبلادي . فقد أتاح لاقتصادنا ، الهدوء الذي تلا فترة بالغة الاضطراب ، قفزة كان في مسيس الحاجة اليها . كنا بالطبع نتمتع بمساعدات خارجية وعلى الاخص بمعونات أمريكية وانكليزية ، ولكن كان لدينا مواردنا الخاصة . وكنت عازماً على استثمارها وعلى العمل على ازدهارها .

كان قطاعنا الاقتصادي الاول عهدئذ يتألف من الفوسفات والبوتاس وتصفية البترول والسياحة التي كانت تجتذب سنوياً مئات الآلاف من الاشخاص القادمين من العالم أجمع للاستغراق في الخشوع والتأمل الروحي بجوار الاماكن المقدسة .

أنشئت مصفاة جديدة في الزرقاء تتيح معالجة (١٨) ألف طن

مهنتي كملك

من البترول الخام اعتبارا من عام ١٩٦١ وكمية مضاعفة بعد مضي ثلاث سنوات . أما الفوسفات فقد حقق نهضة أكثر اتساعا . كانت صادراتنا منه في عام ١٩٦١ (٣٢٠) ألف طن ، فبلغت (٦٦٠) ألف طن في عام ١٩٦٤ وتضاعفت الكمية المصدرة في عام ١٩٧٠ . وأما الاسمنت الذي كان صناعة ناشئة يتراوح انتاجها في حدود (٨٥) ألف طن في السنوات الاولى من حكمي الملكي ، فقد ازداد انتاجها حتى بلغ (٣٢٠) ألف طن في عام ١٩٦٥ . لقد رأت النور صناعات أخرى كان لها تأثير داخلي بشكل خاص ، ولكنها كانت تؤمن العمل لعشرات الآلاف من العمال كمطاحن الحبوب وصناعة الدخان والمعلبات .

وظهر جيل من الاردنيين وخاصة من الصناعيين ومدراء الاعمال والتجار على الطراز الغربي ، ومن الرجال الذين يتعاطون المهنة الحرة ، ومن المدرسين الحائزين على الشهادات من الجامعات الاجنبية ، كما وضع الحجر الاساسي للجامعة الاردنية .

لقد انفتح أمامنا عصر جديد حقا . ولكن الى متى سيدوم ؟

كنا في حاجة الى هذه الوثبة الجديدة ، الى هذا الاندفاع . ولما كنا لا ننسى أننا في الاردن شعب زراعي ، فقد بذلت جهودا خاصة في هذا المجال . كان الشروع في انشاء قناة الغور الشرقية قد غدا ضروريا لري السهول في شمالي البلاد . وقد أنجزت الاشغال الخاصة بذلك في عام ١٩٦٦ وبلغت نفقاتها خمسة ملايين جنيها استرلينيا .

أتاحت هذه القناة البالغ طولها (٦٥) كيلومترا والتي تسير في خط مواز لنهر الاردن ، أتاحت ري أربعين ألف فدان من الاراضي الاضافية بمياه نهري الاردن واليرموك . وهكذا استطعنا ، منذ ذلك الحين ليس تنظيم مجرى المياه فحسب ، وهي مياه كانت تأتي عالية أحيانا ، ومنخفضة انخفاضاً خطرا في السنين الاخرى ،

مهنتي كملك

ولكن تمكنا بشكل خاص من معادلة انتاجنا من القمح الذي كان يعطي في السنوات الجيدة كعام ١٩٥٦ (٢٤٥) ألف طن وفي السنوات العجاف ، كعام ١٩٦٠ (٤٣) ألف طن فقط ، وهو ما كان يحمل بين طياته الكوارث والنكبات .

بفضل هذا الماء الذي بعثت به الينا العناية الالهية ازداد سائر الانتاج الزراعي . بنسب محسوسة جدا . حتى الماشية انتفعت به فقد كانت قطعانها لدينا قليلة الاهمية نسبيا في الخمسينيات ، فارتفعت أعدادها الى (٨٠٠) ألف رأس من الغنم و (٦٥٠) ألف من الماعز و (٦٥) ألف من البقر و (١٩) ألف من الجمال .

ان كوني ملكا للاردن يعني أن أتولى العناية والاهتمام بكل شيء بشغف وكلف وحماسة . وما زالت ، حتى يومنا هذا ، جميع القطاعات وأسباب تطويرها وتنميتها محل اهتمامي اليومي ، فأطلب من أجلها التقرير تلو التقرير وأقابل المسؤولين ، وأقوم بالزيارات المفاجئة .

ان خطط التنمية لدينا موجودة هنا للتنبؤ ولتقديم الخطوط العريضة لاردن المستقبل وان ما يُعتقد به في نظري هو الارقام الباردة التي لا تتأثر بالميل والاهواء ، الارقام الدقيقة . لقد ازداد دخلنا القومي مقدار ستين بالمائة بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٩ . وفي فجر حرب حزيران ١٩٦٧ بلغ ثلاثة أضعاف ما كان عليه في عام ١٩٥٤ كل شيء قد انطلق من الستينات . سواء في ذلك تطورنا الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي . أما ميناؤنا الوحيد على البحر الاحمر ، ميناء العقبة ، فقد ضاعف من شحناته الصادرة والواردة بين عامي ١٩٦١ - و ١٩٦٧ ، وازدادت نقلياتنا على الطرق البرية . كما اتسع نطاق النقل الجوي اتساعا جديدا وبلغت السياحة عندنا نسبيا في غاية الاهمية . كل هذه الآمال ، كل هذه النتائج المشجعة قد أوقفتها فجأة حرب عام ١٩٦٧ . ولولا هذه الحرب لكان الاردن منذ عام ١٩٧٠ بلدا قادرا على سد حاجاته بنفسه دون معونة خارجية .

مهنتي كملك

ولكن هذا الهدوء الوقتي العابر في الحياة الداخلية لبلادني لم يمنعني من النظر الى ما يجري في الخارج ، فالاتفاق بين العرب قد تعقدت أموره وارتبكت أحواله باستمرار ، وشهر العسل بين مصر وسورية قد تمزق كيانه الى أن أصيب أخيرا بالتلاشي والانحلال . فاعترفت فوراً بالحكومة السورية الجديدة . وقامت بيني وبينها علاقة اتسمت بالمجاملة وحسن المعاملة . وهذا ما لم يلق عند عبد الناصر قبولا أو رضى . وهو أمر طبيعي . ولكن ماذا فعل لارضاءني طوال هذه السنوات الماضية . لقد قلت له ذلك على كل حال بصريح العبارة ، في خطاب أذيع على موجات الاثير ، وجهته الى شعبي ، قبل قليل من حلول عيد الميلاد عام ١٩٦١ . وبعبارات غير مقنعة ، قلت له بصراحة بأنني سوف أستمر في مكافحة الاستبداد وما أقامته مصر في سورية من اضطهاد وفساد ، وكانت تنوي تطبيقه علينا . ولم يتسرب أي شك الى ذهني من أن خطابي لا ينطوي اطلاقاً على أي هجوم على الشعب المصري ، بل على حكامه فحسب .

تقاربت أيضاً مع العربية السعودية التي أخذت تبتعد عن القاهرة . وفي آب (أغسطس) من عام ١٩٦٢ قررنا أنا والملك سعود أن نوحّد جيوشنا وأن نزيد أيضاً من تنمية التعاون الاقتصادي بيننا . وبعد مرور شهر على ذلك ، نشبت حرب اليمن الطويلة التي كان يتصارع فيها نظام الحكم الجمهوري الذي يدعمه عبد الناصر ، ونظام الامام الملكي الذي كانت تسانده القوات السعودية .

الا أن الاحداث تجري بسرعة في الشرق . فعبد الكريم قاسم ، جلاد الاسرة المالكة في بغداد في تموز (يوليو) من عام ١٩٥٨ ، ذهب ضحية للعقيد عبد السلام عارف . و حل فريق من البعثيين محل حكومة قاسم التي كانت قد قطعت علاقاتها مع القاهرة ، وبذلك ثار موضوع الاتحاد مع مصر . وفي هذه المرة ، ليس مع سورية فحسب ، بل مع العراق أيضاً .

مهنتي كملك

ابدلت رئيس وزرائي وصفي التل الذي كانت القاهرة قليلة الميل اليه ، بسمير الرفاعي في آذار (مارس) من عام ١٩٦٣ . وفي (١٧) نيسان (ابريل) وقع جيراني الثلاثة على وثيقة اتحادهم فاستتبع ذلك قيام سلسلة من المظاهرات في عواصم العرب الكبرى ولم تنج عمان من هذا النوع من المسيرات التي تحولت بسرعة الى شغب وفتنة . كان بعض المحرضين الشباب يصرخون باسم عبد الناصر ، ويتعرضون بالاذى للسكان المدنيين والمباني العامة . وفي (٢٠) نيسان (ابريل) ، قتل أربعة أشخاص وجرح ثلاثون في القدس . وفي مساء اليوم نفسه أسقط البرلمان الحكومة . فعينت عمي الشريف حسين رئيساً للوزراء وعقدت مؤتمراً صحفياً لسمّ أكرم فيه غيظي من هؤلاء البرلمانيين الذين أسقطوا الرفاعي ، ولكن ، تفادياً من ازدياد تفاقم الامور ، هنأت الاتحاد المصري السوري العراقي الذي كنت على استعداد تام للتعامل والتعاون معه .

لقد عانينا طوال سنين من تدخل العناصر الاجنبية في السير الداخلي لاعمالنا ، وقاسينا الامرين في حمل الآخرين على احترامنا . وقد مورس كل أنواع الابتزاز على أرضنا بأسم القضية العربية والتقارب الكبير . ان أفعالا كهذه ينبغي أن لا تتكرر ، وعليّ أن أبدو حازماً . لذلك أجرى العسكريون تفتيشاً دقيقاً في سائر أنحاء البلاد لتجنب كل تحريض أو كل محاولة للقيام بثورة أو انقلاب . وهكذا تغلب الحزم . ليس فقط لم يحدث شيء عندنا ، بل حدث بعد مرور بعض الوقت ، في تموز (يوليو) أن تعثّر اتحاد الاقطار الثلاثة . ووجد عبد الناصر نفسه وحيداً ، وحيداً حقاً ، فعهد ، حفاظاً على ماء وجهه ، الى الدعوة الى قمة عربية تعقد في القاهرة في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤ . وقد دعيت اليها . ومرة أخرى كانت « لقاءات مؤثرة » ولكن عليّ أن أعترف بأن الرئيس عبد الناصر ، قد تغير كثيراً . لقد بدأ يشيخ بعض الشيء . حتى أنه تكوّن لدي انطباع بأنه كان في حاجة الى مساندتي . تلاقينا عدة مرات في هذه السنة . في آذار (مارس) وفي الصيف ، ثم في مؤتمر الاسكندرية في أيلول (سبتمبر) .

مهنتي كملك

نوقشت في القاهرة ، نقاط أساسية ثلاث : قضية مياه نهر الاردن التي كانت تود سورية تحويل مجراها • وانشاء قيادة مشتركة برئاسة الفريق علي عامر ، و أخيرا ، وبشكل خاص ، الدعم غير المشروط لمنظمة التحرير الفلسطينية التي كان يتزعمها وبقي يتزعمها أحمد الشقيري •

مهنتي كملك

ألا تشعرون يا صاحب الجلالة بأنه على اثر مؤتمر القاهرة قد بدأت مشاغلكم الاولى مع المنظمة والصدامات الاولى مع المقاومة التي أدت فيما بعد الى أحداث أيلول الفاجعة في عام ١٩٧٠ ؟

هذا جد محتمل • وان التاريخ وحده هو الذي سيفصل في ذلك • في ٢٨ أيار (مايو) من عام ١٩٦٤ ، عقد الفلسطينيون مؤتمرا وطنيا في القدس ، اشترك فيه ما يزيد على الاربعمائة مندوب • وفي هذه المناسبة اعلن الميثاق الوطني الفلسطيني • وقد نص في هذه الوثيقة على أن فلسطين كل لا يتجزأ وان دولة اسرائيل غير شرعية وأن منظمة التحرير الفلسطينية وحدها هي صاحبة الاهلية الشرعية « لتحرير أرض فلسطين » ولكنها سوف لن تمارس أية سيادة على النصف الغربية من المملكة الاردنية الهاشمية • ويقول الميثاق اخيرا بأن المنظمة سوف تتعاون مع سائر الدول العربية ولكنها سوف لن تتدخل في الشؤون الداخلية لهذه الدول •

استقرت منظمة أحمد الشقيري في جميع العواصم والمدن الكبرى العربية ولا سيما في عمان • ولكن الشقيري لم يحترم منذ البداية الالتزامات التي وقع عليها في القدس • فقرر أولا فرض ضريبة على سائر الفلسطينيين مهما كانت جنسياتهم ثم تجنيدهم في صفوف المنظمة • وحاول بعدئذ أن يزودهم بالسلاح وخاصة اولئك الذين يعيشون في جوار الحدود الاسرائيلية • وما من شك في أنه ازاء مثل هذه التصرفات ، لا بد أن يزداد التوتر بين الاردنيين وممثلي المنظمة • فقد جرت مشادات بينهم خلال مؤتمر قمة الاسكندرية في أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٦٤ ، وحدث مزيد منها أيضا أثناء انعقاد مؤتمر الدار البيضاء بعد مضي سنة • فقد كان الشقيري يرغب في تسيير الامور على هواه أكثر فأكثر ، بما يتعارض مع الالتزامات التي تعهد بمراعاتها • ولم يكن من الممكن التساهل في هذا الشأن ، لأنه كان علينا أن نحافظ على وحدة بلادنا •

مهنتي كملك

ثم في الأشهر الأولى من عام ١٩٦٥ ظهرت منظمة فتح ، يدعمها حزب البعث السوري ، فبرز على مسرح الشرق الأوسط رجل جديد غير معروف الا قليلا من الجمهور ، وأخذ يتعاطف شأنه شيئا فشيئا بمرور السنين ، حتى اعترف به العالم بأسره ، بعد مضي عشرة أعوام وأعني به ياسر عرفات ، وبظهور فتح تطورت الامور بسرعة .

ازداد التسلسل نحو اسرائيل وخاصة انطلاقا من الاردن ، الامر الذي لم أستطع قبوله ، فقد قلت وأعدت القول مرارا وتكرارا منذ تلك الحين ، بأنني لا أريد أن تحدث عمليات الانتقام الاسرائيلية ضحايا أردنيين أبرياء ، من جراء عدم احترام المنظمة للوثيقة التي وقعت عليها في أيار (مايو) من عام ١٩٦٤ .

في الخامس والعشرين من أيار (مايو) ١٩٦٥ ، تسلسل الفدائيون الفلسطينيون مرة أخرى الى اسرائيل ، وأصابوا ضحايا مدنيين بما في ذلك طفلان ، أما الرد على ما حدث فلم يدم انتظاره طويلا ، اذ هاجم الاسرائيليون بوحشية ، بعد يومين ، مدينتي جنين وقلقيلية . كنت وقتئذ في العقبة فانطلقت من فوري نحو المدينتين المنكوبتين وبذلت ما في وسعي لمساعدة الجرحى والتخفيف عن مصابهم . وكان علي في اليوم التالي أن أستقبل نائب رئيس الجمهورية الهندي الذي قدم في زيارة رسمية الى الاردن . وقد كدت أن لا أقابله أبدا اذ أصابني تعب شديد منذ أيام ، لانني لم تكن قد أغمضت عيني ، فنمت وأنا أقود سيارتي واصطدمت بحائط ، ونجوت من هذا الحادث ، فلم أصب الا ببعض الخوف .

بعد مرور بضعة أشهر ، وفي كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٦٦ ، استقبلت فيصلا ملك العربية السعودية في عمان . كان قد خلف أخاه سعودا على رأس الدولة ، وقد أثارت هذه الرحلة الى الاردن من جانب عاهل سعودي ، غيظ عبد الناصر ، فالملك فيصل كان يدعم النظام الملكي في اليمن ضد القوات المصرية التي كان

مهنتي كملك

جيشها الغازي المؤلف من خمسين ألف جندي ، متورطا منذ أشهر في الجبال الجنوبية للجزيرة العربية . كنت أرى هذه الحرب في اليمن بعيدة تماما عن العقل والصواب . كان التنافس بين الاسر الحاكمة العربية ، يزداد وضوحا بحيث كان كل شيء يمكن التعلل به لايجاد القطيعة . وهكذا فان الحكومة السورية التي كان دعمها للمقاومة الفلسطينية يزداد كل يوم والتي كانت تحمل عليّ بلا انقطاع ، أذاعت على رؤوس الاشهاد في صيف عام ١٩٦٦ بأنها لن تشترك في القمة الاسلامية الرابعة التي ستعقد في الجزائر في أيلول من عام ١٩٦٦ ، لكي « لا تجلس على نفس مائدة المناقشات مع الرجعيين حسين وفيصل » . وقد فعل عبد الناصر نفس ذلك بعد مرور بضعة أيام .

كنت أشعر حقا بالعزلة في العالم العربي على الرغم من التعاطف الذي كان يغدقه علي الملك فيصل . ولكن هذه العزلة لم تمنعني من القيام بزيارة رسمية قصيرة لبريطانيا استغرقت بضعة أيام حيث حاولت تناسي مشاغلي وهمومي . بيد انني لم أستطع ذلك اذ كان قلبي وأفكاري يتلفتان نحو عمان ، ونحو وطني حيث كان الموقف قد أصبح يزداد خطورة . كنا في نزاع مكشوف مع مصر وسورية حول منظمة التحرير الفلسطينية طبعاً . انك سوف تدرك هذا التناقض وهو أن عبد الناصر يريد ، ان لم نقل يستلزم ، أن يفعل الفلسطينيون عندنا تماما ، ما لا يسمح لهم باتيانهم عنده لانه كان يمنع غارات الفدائيين الفلسطينيين على اسرائيل انطلاقا من قطاع غزة الذي كان تحت ادارته .

كنت أهاجم من كل النواحي ، ليس من قبل جيرانني العرب الاقربين ، فحسب ، بل أيضا من جانب روسيا السوفياتية التي كانت تتهمني بالتواطؤ مع اسرائيل . وهذا ما جاوز الحد ! أمرت باغلاق مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية الموجودة في سائر الاراضي الاردنية . وفي تشرين الاول (أكتوبر) وجه وصفي التل ، رئيس وزرائي الذي خلف الشريف حسين في عام ١٩٦٤ ، وجه

مهنتي كملك

انذار الى السوريين بأنهم اذا ما أغلقوا حدودهم مع الاردن فإن دبابتنا سوف تفتحها بكل الوسائل . كنت أشعر بأنني جيد التسليح ، حسن التجهيز مع لوائين مدرعين من أحدث طراز وفي أعلى مستوى من التدريب ، وسرب من القاذفات المطاردات التي كانت الولايات المتحدة على وشك أن تسلمها الي والتي كانت ستضاف الى طائرات الهنتر التي كانت لدي .

ولكن على توالي الشهور كانت غارات الفدائيين تزداد على نسق يتسم بالخطورة بالنسبة الى الجميع . فمثلا : بين تشرين الاول (اكتوبر) ومنتصف تشرين الثاني (نوفمبر) تسلل مسلحو المنظمة الى اسرائيل ، احدى عشر مرة . ست منها انطلاقا من اراضيها . وكان رد فعل الدولة اليهودية عاصفا : ففي (١٣) تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٦٦ ، كان يجب أن نسجل شهيدة جديدة في القائمة الطويلة من القرى التي ضحي بها ، هي قرية السموع التي نسفت جميع الدور فيها . وعندما وصلت قواتي الى المكان وجعلت تقاتل كان الجنود اليهود قد تركوا وراءهم أكثر من خمسين قتيلًا وجريحا .

ومنذ اليوم التالي كانت بلادي تتعرض من كل جانب لهجوم الدعايتين المصرية والسورية ورجال المقاومة على السواء . فقد وصفنا بأننا عديمو القدرة والكفاءة ، خونة جناء ، « عاجزون عن حماية السكان الفلسطينيين في اراضيها » . وانني لارجو أن تصدق بأن هذا كان يؤلنا سماعه ! أما أنا فكنت أرى أن الامر المؤكد الذي غدا أكثر وضوحا يوما بعد يوم فهو : وجود مؤامرة شيوعية ترمي الى تدمير الاردن . وأن الجميع يعرفون ذلك ! كان علي أن أقاتل لوحدي ضد الجميع . وكنت سأقاتل وحيدا ضد الجميع ما دام الامر كان يحتاج الى ذلك . انني هكذا أفهم مهنتي كملك وليس شيئا آخر . أخطر بحياتي في سبيل عيشة رضية لشعبي . فلا تهجمات

مهنتي كملك

عبد الناصر ، ولا انتقادات دمشق ولا شتائم الشقيري الذي اقترح الانشاء الفوري للجمهورية الفلسطينية في الاردن ، بقادرة على أن تغير من الامر شيئا . كان شتاء عام ١٩٦٦ - ١٩٦٧ يتبدى بشكل خاص عسيرا شاقا بالنسبة الى الجميع . ولكن كان لا بد لنا من الصمود . ولقد صمد الاردن .

لم ينسنا الانكليز والامريكان . فقد دعمونا ليس بالكلام وبالتصويت في الامم المتحدة ، فحسب ، بل بعثوا الينا بالاسلحة والمعدات فوصلت بكميات جسيمة الى مينائنا في العقبة في فجر عام ١٩٦٧ ، هذا العام العصيب .

مهنتي كملك

ومنذ ذلك الحين بدأ التشابك والتصعيد •

هذا واقع أكيد : لقد ازداد التوتر على توالي الاسابيع : الحرب الازداعية ، حرب البلاغات ، هجمات رجال المقاومة تضاعفت حدتها كان يسقط القتلى من كل جانب • كان هنالك خسائر يومية جسيمة تقريبا في المعدات • الا أن أمرا واحدا كان يدهشني • فالطائرات السورية التي كانت تسقطها المطاردات الاسرائيلية والقتلى العرب سواء في سورية أو الاردن ، كل ذلك كان يبدو وكأنه قد أبقي الرئيس عبد الناصر فاتر الهممة غير مكترث • ولكن ماذا حل اذن بميثاق الدفاع السوري المصري ؟ • لماذا لبثت الحدود الاسرائيلية المصرية هادئة ؟ ماذا حل بالتضامن العربي الذي أطنب رئيس الدولة المصري في الاشادة به وتحبيذه ؟ • لقد لفت نظره الى ذلك • حتى (حلفاؤه) السوريون أصبحوا قلقين • وأعلموه بذلك • فقد كانت دمشق ترغب بأي ثمن أن تجر القاهرة الى نزاع مسلح •

في (١٥) مايو (أيار) قرر عبد الناصر وضع سائر القوات المسلحة لبلاده في حالة انذار وأمر باجراء مناورات ضخمة في سيناء « لتخفيف الضغط على الحدود السورية الاسرائيلية » التي حشدت فيها تل أبيب قوات كبيرة • واستوجب عبد الناصر في (١٩) منه ، رحيل جنود الخوذات الزرقاء التابعين للأمم المتحدة فأصبح هذا الرحيل نافذا في (٢١) منه • ثم جاء قرار القاهرة القاضي باغلاق مضائق تيران التي تفضي الى ميناء ايلات الاسرائيلي • فاعتبرت الدولة اليهودية هذا التصرف عملا حربيا •

تلقيت نبأ هذا القرار بذهول في صباح (٢٢) فهذا الاجراء الذي يفتقر الى التروي والتفكير ليس من شأنه الا أن يقود الى النكبة ، الى الكارثة • لان العرب لم يكونوا مستعدين للحرب اذ لا يوجد

مهنتي كملك

بينهم أي تنسيق ولا أي تعاون ولا أية قوة مشتركة ولا أية خطة ! ولكنني كنت متيقنا بأنه : اذا كان لا بد للحرب من أن تنشب ، وهذا ما كان يزداد جلاء ووضوحا كل يوم ، فلنكن البادئين بالهجوم • أما اذا ما هاجمتنا اسرائيل فانني لن أقف مكتوف اليدين ، وستنحاز قواتي الى جانب الشعوب العربية • ولقد صرح ابن عمي زيد بن شاكر الذي كان يقود أحد ألويتي المدرعة ، في حديث صحفي أدلى به وقتئذ : « اذا لم يشترك الاردن في هذه الحرب ، فان حربا أهلية ستنشب في الاردن » • لقد شعرت في قرارة نفسي بأنني مرتبط ارتباطا وثيقا بميثاق الدفاع العربي الموقع في القاهرة في عام ١٩٦٤ ، حتى ولو بدا أنه لم يعيش الا على الورق آنئذ ، ولم يكن يعقل أن لا تحترم بلادتي التزاماتها وتوقعاتها وهي التي كانت دوما تأخذ مكانها في المراكز العسكرية الامامية في حروب التحرير منذ خمسين سنة • فهذه الحرب المحتملة تخص فلسطين التي كان الاردن يدير جزءا كبيرا منها • كنت اذن معنيا الى أقصى الحدود بهذا النزاع الوشيك الوقوع •

كان الاردن أكثر شعوب المنطقة تعرضا للخطر من جراء الطول الزائد لحدوده المشتركة مع اسرائيل • كان لدي حقا أسلحة ومعدات وجيش ممتاز مدرب خير تدريب ، ولكن بنسبة أقل من اعدائنا • عبثا طلبت معونة العراقيين والسعوديين لتوحيد جهودنا في جبهة واحدة ، فلم يأت شيء من الشرق • كنت أعرف اذن قبل نهاية شهر أيار (مايو) ١٩٦٧ بأنني سوف أبقي وحدي للدفاع عن خط قتال يمتد من البحر الاحمر حتى بحيرة طبريا • هذه « التعبئة العامة » لجيوش ميدان القتال ، لم تمنع جيراننا السوريين من ارتكاب اعتداء على أرضي بينما كان من الافضل أن يركزوا طاقتهم نحو الهدف المشترك !

ولما غدا كل حوار مع دمشق مستحيلا ، التفت نحو القاهرة التي بدت لي أكثر انفتاحا وتقبلا للآراء والافكار • فبعثت في ٢٥ أيار (مايو) الى العاصمة المصرية ، برئيس

مهنتي كملك

أركان حربي الجنرال عامر خماش • استقبل طبعاً بأدب ، ولكن لم يجر اطلاعه على شيء ولا على أي أعداد • ولم يستطع مقابلة أي من القادة المصريين ، باعتبار أن عبد الناصر نفسه كان (مشغولاً جداً) • فام يبق هنالك اذن سوى حل وحيد فقط من أجل احتمال معرفة ما يجري اعداده من جانب البلاد العربية ، وهو : أن أذهب شخصياً الى القاهرة •

اطلعت على رغبتني هذه ، سفير مصر في عمان الذي نقل طلبي الى حكومته • وفي اليوم التالي الواقع في ٢٩ أيار (مايو) ووردي جواب عبد الناصر :

« تعالوا الى القاهرة بأسرع وقت تستطيعون ! » •

كان ذلك الخطوة الاولى • في اليوم الثلاثين من أيار (مايو) طرت سرا الى مصر ، وكان يرافقني رئيس وزرائي والجنرال خماش نفسه ، وشخصان آخران • ارتديت لهذه المناسبة بزة القتال التي لم تفارقني طوال عدة أسابيع ، واعتمدت قبعتي ذات الشعار الملكي ، وعلقت مسدسي بحزامي • لم يصحبني أي حرس أما النيابة لبضع ساعات فقد أمنها أخي الامير محمد في غياب ولي العهد الامير حسن الذي كان في اكسفورد • استلمت أجهزة قيادة طائرة كارافيل مدنية تابعة لخطوطنا الجوية الوطنية ، وبعد طيران لم تتخلله أية مضايقات ، هبطت في مطار المازة القريب من القاهرة حيث كان الرئيس المصري ينتظرنني ، يحيط به رئيس وزرائه والفريق علي عامر رئيس (القيادة العربية المشتركة) التي كان من المفروض وجودها ! كان الاستقبال حاراً ودياً • كان يقف المصورون انقاداً للمظهر الخارجي ! وقبل أسبوع كانت اذاعة القاهرة تشتمني • وكان عبد الناصر يتجاهلني تقريباً • واليوم تظاهر باعتقالي وهو يمزح أمام الجميع ، الامر الذي اثار ضحكنا الشديد • وهكذا تسير السياسة ...

مهنتي كملك

أعتقد بأنه قد قيل كل شيء وكتب كل شيء عن حرب الايام الستة • حتى أنكم أنتم بالذات أصدرتم كتاباً في هذا الموضوع هو (حربي مع اسرائيل) فمما لا شك فيه ، والاسرائيليون يعترفون بذلك ، أن الاردنيين كانوا أكثر المقاتلين خللاً للمصاعب والمشقات في مواجهة الاعداء ، وأنه ، بين سائر الجيوش العربية ، كان جيشكم هو الذي قاتل أفضل قتال •

عندما انسحبت قوات الامم المتحدة من قطاع غزة ، كان لا بد أن يكون المرء أعمى حتى لا يدرك بأننا قد ألقينا بأنفسنا في فم الذئب وأن الحرب مع اسرائيل قد غدت لا مناص منها • وعلى التوالي الاسابيع كان الموقف يتدهور • حدث أولاً العدوان الاسرائيلي على قرية السموع في نهاية عام ١٩٦٦ ، ثم التوتر المفاجيء على خطوط الهدنة السورية في آذار (مارس) ونيسان (ابريل) من عام ١٩٦٧ ، مع الاشتباك الجوي العنيف في السابع من نيسان (ابريل) • كان قد أمسى واضحاً ، منذ قرابة خمسة أعوام ، بأنه اذا لم يفعل شيء ، فإننا سائرون على خط مستقيم نحو نزاع مسلح • لقد نشرت (كتاباً أبيض) حول الموضوع منذ صيف عام ١٩٦٢ عنوانه : « الاردن والقضية الفلسطينية والعلاقات العربية » ولقد شرح هذا الكتاب وجهة النظر الاردنية حول ضرورة انشاء وحدة حقيقية وما يتسم به هذا الامر من طابع حيوي بالنسبة للعالم العربي • كانت هذه الوحدة في نظري أساسية • اذ من المستحيل أن ندعم مطالبنا ، اذا لم نجمع شملنا وتوثق صلاتنا • وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر بيني وبين عبد الناصر ، وعلى الرغم من اللقاءات والمعانقات العلنية ، ومن الخصومات الجديدة ، فقد كنت أشد من ناصر حماساً وحرارة شعور ، عندما قرر دعوة القمة العربية الاولى فجر عام ١٩٦٤ • لقد ساندته في اللقاءات التالية التي تمت في الاسكندرية في ايلول (سبتمبر) من عام ١٩٦٤ ، ثم في الدار البيضاء في ايلول (سبتمبر) من عام ١٩٦٥ • ولقد جرى استعراض كل قضايانا في هذه اللقاءات :

مهنتي كملك

مياه نهر الاردن ، وعمليات منظمة التحرير الفلسطينية ضد اسرائيل انطلاقا من اراضيها ، والحرب المحتدمة الاوار في اليمن بين مصر والعربية السعودية الخ . كنت أعرف بأن أقل استفزاز سيكون مناسبة للاسرائيليين لمفاجأتنا وشن حرب خاطفة وقائية ضدنا . وهذا ما لبث أن تبدى . كان ينبغي أن لا نعطيهم حجة يتذرعون بها لاشعال هذه الحرب . واذا كان بعض العرب قد فهمني ، فان الآخرين لم يصغوا اليّ .

ومنذ نهاية القمة العربية الثالثة في الدار البيضاء ، تدهور الوضع بصورة خطيرة . ومرة أخرى كانت مصر هي المتسببة في ذلك : كانت القاهرة في نزاع علني مع العربية السعودية حول موضوع اليمن الذي كانت الحرب فيه لا تنتهي ، ومع الاردن حول موضوع منظمة التحرير الفلسطينية وعلاقاتي معها . ومنذ ذلك الحين أصبح في حكم المؤكد أن القمة العربية الرابعة سوف لن تنعقد ، خلافا لما كان متوقعا .

منذ عام ١٩٦٦ ، أمسكت شخصيا ادارة الحكومة الاردنية بيدي وكنت أنا ، ولا أحد سواي ، هو الذي قرر اغلاق مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في سائر الاراضي الاردنية . كان لا بد لي من التحكم في توجيه هذه الحركة التي كانت تزداد انفلاتا وتملصا من رقابتي . وقد أتاح لي هذا الاجراء الذي اتخذته ، اشرافا أفضل على الوضع الداخلي في الاردن . لقد بدأ رجال المنظمة ، وانني هنا أزن كلماتي ، في ممارسة التخريب على نطاق واسع . كان هدفهم الاساسي هو محاولة فصل شعبينا في الضفتين الشرقية والغربية لنهر الاردن ، ليتسنى لهم السيطرة عليهما بصورة أفضل لهم . ولتضخيم أعدادهم ، عمد زعماء المنظمة الى ادخال أي كان في صفوفهم ، حتى الاشخاص الذين كانوا ينتسبون الى جماعات سياسية أو الى أحزاب محظورة عندنا . كانوا يجندون بشكل خاص من الذين ينتسبون الى الحركات الشيوعية أو اليسارية التي كانت تتكاثر فئاتها . كانت هنالك واقعة قد أضحت في نظري تزداد ثبوتا ويقينا وهي أنه : بتدهور علاقاتنا مع مصر

مهنتي كملك

وسورية ، وبنشاطات المنظمة فوق أراضيها ، غدا مستقبل الاردن ، مرة أخرى ، في خطر ، ومعه قضية الملكية أو النظام الملكي .

لقد سبق لي الحديث عن عدوان السموع في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٦٦ بحجة « الانتقام من النشاط الارهابي لمنظمة التحرير الفلسطينية » هذا الحادث الذي اشتهر ويا للأسف قد وقع مثله مرات عديدة ضد المخيمات والقرى الفلسطينية المجاورة لاسرائيل . أما قرية السموع هذه التي يبلغ عدد سكانها أربعة آلاف ، فكانت تتألف بشكل خاص من أسر اللاجئين الفلسطينيين الذين كان الاسرائيليون يتهمونهم بايواء المناضلين القادمين من سورية . استغرقت العملية أربع ساعات . ولقد سبق لي القول بأنه بعد رحيل الاسرائيليين ، جرى تعداد واحد وعشرين قنيلا وسبعة وثلاثين جريحا من الرجال والنساء والاطفال . أديننت اسرائيل بعنف من قبل الامم المتحدة بأكثرية أربعة عشر صوتا ضد صوت واحد . وللمرة الاولى ضم الامريكان صوتهم الى أصوات الفرنسيين والروس والانكليز . ولكن الامر الاخطر ، جاء من أصدقائي العرب : اذ بدلا من أن يحملوا على اسرائيل ، انقلبوا علي يهاجموني لانني عارضت أن يقوم رجال أحمد الشقيري زعيم منظمة التحرير الفلسطينية وقتئذ ، بشن عملياتهم انطلاقا من الاردن .

ومنذ ذلك الحين ، لم يعد من الممكن الا أن يسوء الوضع ويندهور ليس بين العرب فحسب ، بل مع اسرائيل أيضا . ولم يخف وصفي التل الذي اغتيل في القاهرة بعد بضع سنين ، ما كان يعتلج في نفسه من مشاعر عندما أجاب على الاتهامات الموجهة الى الاردن خلال مؤتمر صحفي عقده في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٦ . اذ قال بشكل خاص بأن هجوم السموع الذي كان من الواجب أن يتيح للقيادة العربية الموحدة أن تختبر فعاليتها قد برهن بأن هذه القيادة غير موجودة الا على الورق . وأنها كانت اخفاقا تاما . كان الاردن خلال هذا الهجوم ينتظر المعونة الجوية

مهنتي كملك

من الجمهورية العربية المتحدة التي كانت مسئولة عن منطقة الدفاع هذه ، ولكن هذه المعونة لم تأت أبداً . وأخيراً ، كان قد تقرر أثناء مؤتمرات القمة العربية التي عقدت حديثاً ، أن كل عملية للمنظمة انطلاقاً من أي بلد عربي ، يجب عرضها ، قبل التنفيذ على القيادة العربية الموحدة لتتولى تقييمها ، وهذا ما لم يحدث . فقد كنت متصلاً بالنسبة لهذه النواحي التي كنت أعتبرها على جانب عظيم من الأهمية ، إذ بالإضافة إلى سورية ومصر ، كان علي أن أواجه خصماً عربياً جديداً لا يقل عنهما ، لأنه كان متواجداً عندنا : ألا وهو المنظمة . كانت الشعارات تتطاير في كل اتجاه . أما الشعار الذي كان أكثر إيلافاً لنفسه فقد كان القول : « قبل تحرير تل أبيب ينبغي تحرير عمان » .

عدت الحرب لا مفر منها . ولعل مما يبعث على العجب أنها لم تنشب إلا بعد مضي ستة أشهر . الجميع يذكر أهم تواريخ وأهم أحداث ربيع عام ١٩٦٧ . وأنني أستعيد لها لا شيء إلا للذكرى : (٧) نيسان (إبريل) ، المعركة الجوية العنيفة بين طائرات الميراج الإسرائيلية والميج السورية . (١٥) أيار (مايو) أذاع نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة المشير عبد الحكيم عامر ، أمراً يومياً يتطابق مع الذكرى التاسعة عشرة لاستقلال إسرائيل والعرض العسكري الضخم الذي جرى في القدس المحتلة : كان هذا العرض العسكري تحدياً واستفزازاً ، فرفض عدد كبير من الدبلوماسيين الأجانب حضوره . في (١٨) أيار قبل اثنان من السكرتير العام للأمم المتحدة ، جلاء قوات الطوارئ الدولية من قطاع غزة دون استشارة لمجلس الأمن ، واستلمت مراكزها فوراً ، القوات الفلسطينية والمصرية . في الحادي والعشرين منه ، بعث إلينا السوريون بسيارة ملائمة بالمتفجرات كان مقرراً لها أن تنفجر في قلب عمان ، ولكنها انفجرت في الرمثا على حدودنا فأدت إلى مصرع واحد وعشرين أردنياً ، الأمر الذي أرغمنا على قطع علاقاتنا مع دمشق . وفي الثالث والعشرين من (أيار) (مايو) زار عبد الناصر سيناء وقرر إغلاق مضائق تيران . وبذلك غدا خليج العقبة محاصراً

مهنتي كملك

وميناء إيلات الإسرائيلي مشلول الحركة . وفي الثلاثين منه كان لقائي مع عبد الناصر الذي سمّي فيما بعد (بالمصاحبة) ، ووقعت خلاله مع الرئيس المصري معاهدة الدفاع المشترك . وقد طافت صور تبادل العناق بيني وبين عبد الناصر ، سائر أنحاء العالم ، إلا أن بعضهم بقي متشككاً فيما يختص بهذه اللقاءات وهذا الفيض من العواطف الدافقة . واني لا أخطئهم .

عدت إلى عمان في مساء الثلاثين ولكن مع شخص مزعج إلى جانبني هو أحمد الشقيري رئيس المنظمة . فقد رجاني عبد الناصر أن أعيده إلى عمان معي فأضطرت إلى الموافقة على ذلك . ومنذ ذلك الحين غدا القتال أمراً محتوماً . بدأ الهجوم الإسرائيلي فجر الخامس من حزيران (يونيو) . كنت شخصياً في عداد الأهداف المقصودة ، لأن الطائرات الإسرائيلية ، في موجات اثر موجات ، لم تقصف عمان والأهداف المدنية والعسكرية فيها ، فحسب ، بل إن عدداً كبيراً من الطائرات ، بعد أن حددت موقع قصري الذي يظهر واضحاً من بعيد ، لقيامه على أحد تلال عمان السبعة ، ألقيت قنابلها عليه بقصد قتلي وقتل مساعدي وأعضاء حرسه . ولم يكن القصر مستهدفاً فحسب ، بل حتى مكتبي أصيب بصاروخ كان من المحتمل أن يقتلني لو كنت داخله . لقد كانوا مزودين بما يحتاجون من معلومات لهذه الغاية .

طوال عدة أيام قاتل شعبي بشجاعة وتصميم . فقد كـان الأردنيون في نظر العالم ، أشد المحاربين بسالة وأقداماً بين سائر العرب . وأنني لفخور بذلك ، فخور غاية الفخر . ولكن كان علينا أن نسلم بالأمور التي تبدو جلية واضحة للعيان . فليس في مقدورنا أن نقاوم وحدنا تقريباً في الجبهة الشرقية . لم يأت أي عون ولا أي دعم ، فسقطت القدس ثم أريحا والخليل ونابلس ورويدا وريدا . وقعت الضفة الغربية لنهر الأردن بأسرها في قبضة الإسرائيليين . لقد نسفوا الجسور وقسمونا إلى شعبين متمايزين . وفي الثامن من حزيران (يونيو) بعد أربعة أيام من بداية المعارك أبلغت السكرتير

مهنتي كملك

العام للامم المتحدة بموافقتي على ايقاف اطلاق النار الذي قرره مجلس الامن . وماذا كنت أستطيع أن أفعل غير ذلك ؟ أصبح ايقاف اطلاق النار نافذ المفعول بعد ظهر ذلك اليوم ، لان بعض جنودي رفضوا القاء السلاح وصمموا على مواصلة الجهاد ببطولة حتى النهاية . وانتهت حرب الايام الستة هذه بالنسبة الينا بعد أن سلبت منا القدس ، أغلى وأعز المدن الاردنية على قلبي ، وجردنا من الضفة الغربية لنهر الاردن .

بلا راحة ولا نوم ولا طعام تقريبا ، بعد أن غدت الزعيم العربي الوحيد الذي اشترك بنفسه في الحرب ، قررت في مساء يوم الثامن من حزيران (يونيو) أن أخاطب شعبي العزيز من على موجات اذاعة عمان . وهذا هو الخطاب : « لقد قاتلنا ببطولة وشرف ولسوف يعترف العرب فيما بعد بالدور الذي لعبه الاردن في هذا النزاع .

لقد دافع جنودنا عن كل شبر من اراضيها بدماهم الزكية الغالية التي لم تجف بعد ، والتي ستحتفظ بلادنا بآثارها وسماتها . انهم لم يخشوا التفوق الجوي المطلق للعدو الذي شل بالمباغطة والمفاجأة الطيران المصري الذي كنا نعتمد عليه . والآن فان ما وقع قد وقع . وان قلبي ليتفطر حسرة وألما عندما أفكر في جميع من فقدنا من جنودنا الذين سقطوا صرعى والذين هم أعز علي من نفسي .

أيها الاخوة . يبدو أنني أنتسب الى أسرة الذين أراد الله لهم العذاب وبذل التضحيات التي لا نهاية لها لامتهم . ان النكبة التي اصابتنا لاعظم مما يستطيع المرء تصوره . ولكن مهما بلغت جسامتها فلا ينبغي ، أيا كان الثمن ، أن تضعف من تصميمنا على استرداد ما فقدناه .

وأخيرا اذا كان المجد لم يجزكم خير الجزاء ، فليس مرد ذلك

مهنتي كملك

الى نقص في الشجاعة ولكن لان هذه كانت ارادة الله . كان الله مع شعبنا الآن .

لقد ندر أن تأثرت في حياتي ، تأثري وأنا أخاطب شعبي . كنت على وشك البكاء ولكن كان لا بد أن أمضي في خطابي الى نهايته . كنت أعرف أن شعبي كان يذرف الدموع ، كان يبكي قتلاه وآلامه . وكان يبكي من أجل بلاده . ولن تكون هذه هي المرة الاخيرة ، ويا للأسف . أما الضيف المزعج أحمد الشقيري ، الذي غادر الاردن عند اغلاق مكاتب المنظمة ليلجأ الى دمشق أولا ، ثم الى القاهرة ، فقد رحل من عمان في الثالث من حزيران (يونيو) قبل يومين من نشوب الحرب ، للذهاب الى القدس . وهناك عقد مؤتمرا صحفيا وتفوه بكلمات مشئومة خدمت الدعاية الاسرائيلية . ثم عاد في الخامس من حزيران الى عمان . وفي اليوم التالي يوم الثلاثاء السادس من حزيران ، غادرنا فجأة الى سورية « ليطلب الى دمشق أن تساعدنا بأكثر مما فعلته حتى الآن » . ولم نر وجهه أبدا .

مهنتي كملك

ما هي العبر والدروس التي تستخلصونها من هذه الحرب بعد أن اندمجت الجروح بفعل السنين ، لقد أفاض الناس في الحديث مؤخرا بأن حرب عام ١٩٦٧ كانت حربكم ، في حين أن حرب عام ١٩٧٣ لم تكن تعنيكم ،

سوف أجيبكم على سؤالكم على دفعتين .

أولا : سوف أحملك على الدهشة والحيرة ، ولكنني قلت ذلك مرات عديدة : ان هذا النزاع الدامي المميت الشرس الضاري سوف يبقى في نظري (حربا مزعومة) ولا شيء غير ذلك ، لم أقاتل في أية لحظة ضمن شروط حرب حقيقية ، ولم أشعر في أي وقت بوجود هذه الحرب ، انني كما تعلم لم أعلن الحرب أبداً على إسرائيل ولم (أحاربها) أبداً بالمعنى الصحيح لهذه العبارة ، فلم أزد على أنني كنت أرد على كل اعتداءات أعدائنا ، كما كنت أفعل منذ عام ١٩٥٦ أي منذ حوالي عشرين عاماً .

ان السلام في بلادنا غير موجود ، ولم ير النور اطلاقاً ، فقد فرضت علينا الهدنة حقا في عام ١٩٤٨ بعد انشاء دولة اسرائيل . ولكن ما هي الهدنة ؟ انها ليست السلام ، وهي لم تكن السلام أبداً ، ما أكثر ما أستهتر بالهدنة وخرقها في أغلب الاحيان ، اولئك الذين يقيمون في مواجهتنا ، ان تعداد ذلك سيكون من الصعب اجراؤه !

لم يتحقق السلام أبداً ، وكما تبدو الاحداث اليوم ، فان السلام ما زال بعيد المنال ! ، حتى بعد مقررات قمة الرباط في تشرين الاول (أكتوبر) من عام ١٩٧٤ وبعدما أجرتة الامم المتحدة مؤخراً من التصويت المتكرر ، لا بد من ايجاد حل عادل ، والا فلن يكون هنالك سلام .

مهنتي كملك

نعم في حزيران عام ١٩٦٧ ارتكبنا أخطاء وخسرنا حربا فرضت علينا واستخلصنا منها العبر والدروس التي تجلت على الاقل بعد مضي بضعة أشهر على حرب حزيران عام ١٩٦٧ ، خلال العدوان الاسرائيلي في الحادي والعشرين من آذار (مارس) ١٩٦٨ ، على الشونة والكرامة ، في الضفة الشرقية لنهر الاردن ، كان ردنا الانتقامي الخاطف على القوات الاسرائيلية قد أحال ما أسمته اسرائيل (بالعملية البوليسية البسيطة) الى اشتباك عسكري تام نجمت عنه خسائر فادحة مني بها المعتدون وكانوا لا يتوقعونها ومع ذلك كانوا يفوقوننا في العدد والطائرات ووسائل نقل الجنود وهو ما كنا لا نملكه . لقد عرفنا كيف نستخلص الدروس من ضعفنا بالنسبة للقوات الجوية ومن المعونة التي نستطيع توقعها من حلفائنا ، وعرفنا أننا اذا لم نعتمد على أحد ، قاتلنا قتالا أفضل ، وهذا مما لا يتطرق اليه الشك . ولو اتكلنا على المساعدة فلسوف لن تأتي على العموم أبداً ! وانني في مركز يتيح لي أن أعرف ذلك جيداً .

اكرر القول بأننا ارتكبنا أخطاء منذ ثماني سنوات ، وفي رأيي أن أول هذه الاخطاء هو أننا لم ننظم قواعد ومناهج عملياتنا العسكرية تبعا لامكانياتنا الخاصة ، فمئذ سنين كانوا يحدثوننا عن القيادة العربية الموحدة ، وعن القائد العام لسائر الجيوش العربية ، وعن معونة شعوبنا الشقيقة الخ ، وقد اعتمدنا على ذلك ، وهو أمر طبيعي . وما كان ينبغي علينا أن نفعل ، فلو لم نعتمد على هذه المعونة الخارجية المحتملة ، لكنت (حربي) مع اسرائيل قد اتخذت مجرى آخر تماما . ما في ذلك أدنى شك . عندما ينتظر الغطاء الجوي الذي كنت أنتظره ، فانه لا بد لي من أن أقاتل بالاسلوب الذي انتهجته في القتال ، ولو عرف رجالنا منذ البداية أنه لا يمكنهم تلقي أية معونة ، لا من مصر ، ولا من سورية ، ولا من العراق ، لكنت اختلفت استراتيجيتنا عما كانت عليه ، ولبقيت القدس في حوزتنا حتى اليوم ، لانه طوال الايام القليلة لهذه الحرب الخاطفة ، كنا دوماً نراعي احلال المصلحة

مهنتي كملك

العربية في المكان الاول ، واضعين مصلحتنا الخاصة في المحل الثاني من الامة . وهكذا كنت أفهم معنى التضامن . الا أن الجميع ويا للأسف لم يتقيد بنفس القاعدة التي انتهجتها .

لم تأت المساندة الخارجية ، وتلاشت بتوالي الساعات والايام المعونة المطلوبة التي وعدنا بها . فاضطررنا أن نتصرف بأسلوب الحركات التلقائية وأن نبتدع الحلول البديلة في اللحظة الاخيرة . كنا الى حد ما نرتجل ارتجالا ، في حين أن اشتباكا عسكريا في هذه الامة لا يعالج بالارتجال .

في اليوم الثالث ، عندما اضطررنا أن نتحقق من أن أحدا سوف لن يخف لمساعدتنا ، كان الوقت قد فات . كانت امكاناتنا أقل بكثير مما كنا نستهلك من أسلحة ومعدات . وكانت المقايضة بين القوات غير متوازنة اطلاقا . فمنعنا هذا العائق منعنا باتا من افشال وايقاف تقدم العدو واحباط خطته . كان في مواجهتنا جيش مدرب خير تدريب ، موحد ومسلح بالعزم والتصميم ، لا يعتمد سوى على نفسه ، ولا يتكل على مساعدة أحد . أما هنا ، فقد كنا نعول على التضامن العربي وعلى المعونة التي وعدنا بها منذ أشهر والتي كنت ما زلت أنتظرها بلا طائل ! ولعل الذي كان أشق على النفس وأقسى ، هو ليس الساعات ولا الايام التي تلت الهزيمة ، وإنما الاشهر التي كانت تمضي ، الاشهر التي كانت تثقل كاهلي ، وتحمل الي العناء والاعياء سواء من الناحية المادية أو الجسمية . كان لا بد لي من المقاومة والصمود . كنت أشعر بأن أعصابي على وشك الانهيار والانفجار . وكنت احس بأن صحتي قد تمكر بي في أية لحظة وتتلاشى مقاومتها . وهذا ما كان لا ينبغي أن يحدث . كان علي أن أبقى صلبا متينا لاواصل قيادة بلادي حسبما كان شعبي يتوقع مني ، ومثلما كنت أرجو وأتمنى . فسافرت كثيرا خلال هذه الاشهر التي تلت العدوان الاسرائيلي ، ودافعت بايمان وقوة عن قضية شعبي .

مرة أخرى ذهبت الى مقر الامم المتحدة في نيويورك بعد مضي

مهنتي كملك

ثلاثة أسابيع على نشوب القتال . والقيت خطابا أمام المحفل الدولي الكبير . كنت مقتنعا بأن الجيش الاردني قد قاتل قتالا أفضل مما فعلته سائر الجيوش العربية التي كانت متواجدة في المعركة . كانت تعليقات الصحف تثبت لي ذلك وكنت سعيدا من جراء هذا . كانت بلادي هي التي ذاقت النصيب الاوفى من الآلام والنكبات خلال هذا العدوان ففسرت أكبر عدد من الرجال والمعدات والاراضي . كنت اذن احس بأنني أكثر الناس جدارة بالتحدث باسم القضية العربية . وهذا ما فعلته من صميم قلبي . ربما أيضا تحت تأثير الانفعال النفسي والتعب والعناء من هذه الحرب . افترحت من علياء هذا المنبر ، عقد اجتماع عاجل لمؤتمر قمة عربي فووفق على عقد هذا الاجتماع في نهاية الصيف ، وهو موعد متأخر جدا في رأيي . كان يجب أن نضرب الحديد حاميا متوقفا وليس بعد مضي ثلاثة أشهر على نشوب الحرب ، عندما تكون الازدهان قد تطرق اليها النسيان .

انتهزت الفرصة التي أتاحت لي للتواجد في الغرب ، فقابلت عظماء هذا العالم في طريق عودتي . بدأت بالرئيس جونسون . وإذا كان قد أبدى لي بالغ اللطف وأكثر من العبارات الودية ، وكان شديد الاصغاء والاتفات الى أقوالي ، فقد أظهر لي بعض الحق ازاء مصر ، والكثير من التبرم نحو اسرائيل التي كانت في الربيع قد أكدت له بأنها سوف لن تتخذ أية مبادرة عسكرية . وفي اوروبا كانت أولى زيارتي مخصصة لرئيس وزراء العمال هارولد ويلسون الذي كان هو أيضا بالغ المودة تجاهي ومدركا واعيا للموقف كما يظهر على حقيقته . أما الرأي العام الانكليزي ، فقد كان معاديا لنا بلا شك ، وكان يتجلى ذلك في الاحاديث وفي الخطابات وفي مقالات الصحف . الا أن رئيس الوزراء وجورج براون وزير الخارجية قد أعربا لي عن الكثير من التعاطف والمشاركة الوجدانية . وانني اعتقد بأنه قد جرى بيننا تفاهم أكيد . وهذا هو الاساس .

أما أفضل لقاءاتي في الغرب وأحفلها بالفائدة والخصب ، وأكثرها

مهنتي كملك

ايجابية ، فقد كان بلا ريب لقائي بالرئيس شارل ديغول ، الرجل الكبير العظيم الذي كان يعرف تمام المعرفة مشكلة الشرق الاوسط وقضية العرب بشكل خاص . لقد كنت دوماً أكن لهذا الجندي الكبير أحر الإعجاب . وانني أعتقد بأنه كان يعرب لي كلما قابلته عن تعاطفه الوجداني ان لم أقل عن محبته . كانت أقواله تأخذ طريقها المباشر الى قلبي . كان يعرف اختيار الكلمات الصحيحة والنفحات التعبيرية التي تفيض بالصدق والاخلاص ولا سيما هذه العبارة التي سوف لن أنساها أبداً :

« اذا كان من حق اسرائيل أن تعيش بسلام وأمان ، فان الاردن بكل تأكيد يستحق ذلك سواء بسواء » .

بقي علي أيضاً أن أقابل الرجل الاخير الذي كنت لا أعرفه لانني لم أذهب أبداً الى بلاده بحكم أنني لم أكن أقاسمه آراءه ومعتقداته ألا وهو الرئيس الروسي نيقولا بودغورني . وقد حدد موعد الزيارة في الثاني من تشرين الاول (أكتوبر) .

ولكن قبل أن ألتقي بالزعماء الروس الذين هاجمتهم بعنف طوال الخمس عشرة سنة من حكمي الملكي ، أردت أن أقابل جمال عبد الناصر الذي خرج من هذه الحرب مثخناً بالجراح ، وفاقداً للكثير من هيئته ونفوذه ، والذي كف عن التحامل علي مباشرة بهجمات . لم يكن في مؤتمر القمة في الخرطوم الذي انعقد فيما بين التاسع والعشرين من آب (اغسطس) والاول من أيلول (سبتمبر) الا ظلاً لما كانت عليه شخصيته القديمة . وقد كدت من ناحية أخرى أن لا أصل الى القاهرة في الثلاثين من أيلول ١٩٦٧ هذا ، من جراء رداة الاحوال الجوية التي كانت سائدة فوق كل البحر الابيض المتوسط الشرقي من قبرص الى مصر مروراً ببירות وعمان . استلمت قيادة الطائرة من رئيس الطيارين وأقامت باتجاه القاهرة التي كان مطارها مغلقاً ومدى الرؤية فيه لا تتجاوز مائتي متر ، وهبطنا بأقل الخسائر .

لقد اتسمت المحادثات التي أجريتها مع الرئيس المصري بطابع غاية في الود والحرارة . لأول مرة تواجدت في مواجهة رجل آخر حلو

مهنتي كملك

الحديث لطيف المعشر ودود حسن الالتفات ودار الحديث بيننا حول ما أسميناه (بالموقف العربي) . كان هنالك خمس نقاط أساسية وجوهريّة بالنسبة اليّنا :

١ - الاعتراف بحق العيش بسلام وأمان لكل دولة في هذه المنطقة بما في ذلك اسرائيل .

٢ - الاتفاق على وضع حد لحالة الحرب والحرب نفسها .

٣ - فتح الطرق الملاحية الدولية للجميع بما في ذلك قناة السويس .

٤ - انسحاب اسرائيل من سائر الاراضي العربية التي احتلتها خلال حرب حزيران .

٥ - التسوية النهائية لقضية اللاجئين الفلسطينيين المحزنة والاعتراف بحق هؤلاء الرجال والنساء بالعودة الى أراضيهم .

وبديهي أن النقطتين الاخيرتين لا تتعلقان بنا فحسب ، بل بأولئك الذين يتواجدون في مواجهتنا أيضاً . . بعض هذه النقاط وردت في القرار الامريكي الروسي ولكنها لم تؤخذ بعين الاعتبار من جراء بعض المتطرفين العرب الذين كانوا يفضلون تدابير أكثر صراحة وأسرع تنفيذاً . ومع ذلك حتى الجزائريين الذين كانوا يسلكون طريقاً أشد صلابة مما انتهجناه ، قد بذلوا لي بعض التشجيع عندما التقيت بزعمائهم ، بعد قليل من مغادرتي القاهرة فقد وافق الرئيس بومدين أن يدعنا أنا وعبد الناصر ، لنحاول تحقيق ما اقترحنه موضحاً لنا في الوقت نفسه بأنه لا يؤمن بذلك أبداً . وعلى أثر هذه الاتصالات واللقاءات المتتالية بين زعماء الدول العربية ، ونتيجة للجهود التي بذلناها ، ظهرت مهمة الدكتور جونا

مهنتي كملك

يارنج اثر قرار اتخذه مجلس الامن بالاجماع في تشرين الثاني
(نوفمبر) من عام ١٩٦٧ .

في الاول من تشرين الاول (أكتوبر) كنت في موسكو : قابلت
فيها السيدين بودغورني وكوسيجين . وكان الاستقبال وديا جدا
ومرة أخرى أكد لي الروس الدعم الذي سوف يبذلونه للشعوب
العربية أيا كانوا . كنت في موقف مبهم بعض الشيء . لانني كنت
لا أشارك المصريين والسوريين والعراقيين نفس الحماسة التي تتقد
في صدورهم ازاء الكرملين . كان الروس يعرفون بأنني لا أكن لهم
وداً . وكان ما زال عالقا في كل ذاكرة خطابي الاول في الامم المتحدة
في عهد خروتشوف . ولكنني حاولت تبديد سوء التفاهم الذي كان
طوال سنوات ، يؤثر على العلاقات بين بلدينا . عدت اذن راضيا
جدا عن زيارتي الاولى لموسكو وعن موقف الزعماء الروس ازاء
بلادنا . فقد بدا أنهم يعرفونها جيدا أو أنهم مبالغون لمساعدتها
مع وضع القضية العقائدية جانبا .

نعم ان بعض جروح عام ١٩٦٧ قد اندملت بعض الشيء ، كما
قلت ، ولكن بعضها الآخر ما زال ينزف دما ولفترة زمنية سيطول
بداها .

ولكن ثمة نقطة لست أتفق واياك اطلاقا عليها ، عندما قلت بأن
عام ١٩٦٧ كان حربي وأن عام ١٩٧٣ لم يكن مثل ذلك . فمنذ سنين
كانت جميع المعارك التي خاضتها الشعوب العربية هي معاركي .
كانت جميعها تعنيني . وكانت كلها تجتذب
اهتمامي ، سواء وقعت في الشرق الاوسط أو في أي طرف من
الاراضي الاسلامية .

لقد قاتل الهاشميون منذ أربعة أجيال ، في سبيل نفس القضية
ونفس الهدف والغاية . لقد كان الشريف حسين في مكة أول من
رفع الراية . ثم جاء بعده جدي الملك عبد الله ، وتلاه والدي . أما
أنا فاني من أبناء الجيل الرابع الذي قاتل في سبيل نفس القضية

مهنتي كملك

ونفس الهدف والغاية . ان كل الحروب والمعارك لا تتشابه
والوسائل المستخدمة للدفاع أو الهجوم لا تتماثل أيضا .

كانت حرب عام ١٩٦٧ وحرب عام ١٩٧٣ مختلفتين تمام الاختلاف
فالمعتدون والمعتدى عليهم لم يعودوا كما كانوا عليه في الماضي .
وهذا بديهي . ومع ذلك فهاتان الحربان كانتا حرباي . ولو أن
المواقع على الارض لم تتحرك بالنسبة للاردن .

ان جدي الاعلى مدفون في القدس كما تعلم . أما جدي الملك عبد
الله ، فقد لقي مصرعه في القدس بين ذراعي . ان هذه المدينة هي
مدينتنا لاكثر من سبب . ومنذ ثمانية أعوام والمسلمون في العالم
أجمع ملوك وجنود وأغنياء وفقراء ينتظرون لكي يقيموا الصلاة من
جديد في المسجد الاقصى الذي يمثل الشيء الكثير في أعيننا .

مهنتي كملك

- لقد قيل وكتب بأن حرب الايام الستة هذه قد أجهدتكم معنويا وجسميا وأنكم لم تعرفوا النوم طوال كل أيام القتال ، ما هي بالنسبة اليكم والى شعبكم النتائج المباشرة لهذه الحرب وانعكاساتها على الصعيد الداخلي ؟

لست أنا فحسب ، بل ان رجالي وشعبي خرجوا جميعا مجاهدين من هذه الحرب ، مزعزين مثخنين بالجراح ، لم يكن من السهل كفكفة سائر الدموع واطفاء كل الرماد الذي كان ما يزال حارا ، وأزالة جميع ما تراكم من أنقاض ، ولكن مرة أخرى ، لقد فعلت البلاد ذلك بشجاعة ونبل ووقار ، كما كان يفعل الاردنيون دوما في الظروف المماثلة .

لقد سقطت القدس في صباح السابع من حزيران ، فاحتلها الاسرائيليون مع قبة الصخرة وسائر الاماكن المقدسة الروحية كما احتلوا بيت لحم ونابلس ورام الله والخليل ، لقد دافعنا بضراوة عن كل متر مربع من هذه الارض مضحين بحياة المئات والآلاف من الرجال ، وانني أعتقد بأن من المستحيل أن يفعل غيرنا أكثر مما فعلنا ، رجالي أيضا لم تغمض لهم جفون طوال هذه الليالي ، وبعد ثلاثة أيام من المعارك الضارية التي كانوا يقاتلون فيها رجلا مقابل خمسة رجال ، اضطروا ، وقد نال منهم التعب المهرق ، الى التراجع مرفوعي الرؤوس ، ليس لدي ما ألوم قواتي عليه ، وانني لعلّ يقين من أن المراقبين الاجانب قد أعربوا بوضوح عن آرائهم حول الطريقة التي حاربت بها الجيوش العربية ولا سيما الاردنيين الذين كانوا في نظرهم خير من قاتل منهم .

تدهورت اقتصاديات البلاد الى الحضيض ، فقد خسرنّا كل شيء ، وكان علينا أن نبدأ من الصفر ، ولكن ليس هذا الذي يستطيع ايقافنا ، ولقد أقمنا الدليل على ذلك ، وللمرة الاولى لعب التضامن العربي ذروة أدواره ، فاذا كان قد غاب عنا أثناء القتال

مهنتي كملك

فقد ساعدنا مساعدات ضخمة طوال السنوات التالية ، اذ الى جانب المعونة التقليدية التي كان يقدمها الغرب اليّنا كالولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، فقد كنا نعتمد على الامدادات التي كانت تزودنا بها كبرى الدول العربية المنتجة للبترول ولا سيما العربية السعودية والكويت وليبيا ، التي أنشأت في ايلول ١٩٦٧ صندوقا خاصا من أجل الدول التي اشتركت في الحرب وخاصة الاردن ومصر وسورية ، يبلغ مقداره (١٣٥) مليوناً من الجنيهات الاسترلينية ، منها أربعون مليوناً خصصت للاردن ، وقد أعاننا الاشقاء العرب أيضا في سبيل مئات الآلاف من النازحين الذين يقيمون في ضيافتنا .

لقد استمرت لحسن الحظ بعض صناعاتنا في العمل في حزيران (يونيو) وتموز (يوليو) ولا سيما الفوسفات الذي صدرنا منه حوالي مليون طن في عام ١٩٦٧ ومليون و (١٥٠) ألف طن في السنة التي تلتها ، واذا كنا قد تركنا مزارعنا وأراضينا الخصبة في الغرب ، فإن مناجمنا ومستخرجاتها واقعة في الضفة الشرقية من نهر الاردن ، وهذا ما عوض علينا بعض الشيء ، فقداننا لفواكهنا ولموارد سياحتنا التي عادت علينا بعشرين مليون جنيه استرليني في عام ١٩٦٦ ، وهو مبلغ مهم بالنسبة الى بلد صغير كبلدنا .

ثم هناك مشكلة السلاح ، فقد فقدنا الطائرات والدبابات والاسلحة الثقيلة والخفيفة ، وغدا من الضرورات المستعجلة أن نحصل على بديل لها ، وكنت على استعداد لان اتلقى السلاح من أية جهة كانت ، سواء من الشرق أو من الغرب ، ذهبت الى موسكو في تشرين الاول (اكتوبر) ولم يخف عني الذين تحدثت اليهم من المسؤولين بأنني اذا كنت في حاجة الى شيء ، فهم تحت تصرفي ، تقرّبوا اليّ واكتسبوا لمرضاتي ، الا انني فضلت الاستمرار في التزود بالسلاح من أولئك الذين كانوا يدعمونني دوما ، فعوضني الانكليز ببعض طائرات الهنتر ودبابات السنتوريون ، واسلمتني الولايات المتحدة طائرات من طراز ستار فايتر وبعض الاسلحة المختلفة .

مهنتي كملك

وهكذا بعد مضي ثلاث سنوات ، كان لدي جيش كامل العدد والعدة حسن التدريب ، يملك بشكل خاص (٣١٠) من الدبابات من طراز باتون وسانتوريون ، وعشرين طائرة هوكر هنتر وثمانى عشرة ستار فايتر . كما جهزت البلاد بنظام دفاعي من الصواريخ . كان علي أن أكافح للحصول على كل هذه المعدات ، لأن العقول كانت ما تزال مستعرة اللهيب ، وكان الجميع يتحدثون عن حرب جديدة في حين أنني بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩ لم ألق سوى نصف التجهيزات التي كنت أنتظرها . إلا أن حدة التوتر خفت لحسن الحظ بعض الشيء . وابتعدت أصوات الجزمات العسكرية .

بعد أن نهضت اقتصاديات البلاد من كبوتها ، وجهز الجيش من جديد ، كانت هنالك مهمة من نوع خاص وعلى جانب أعظم من الخطورة ، تنتظرني . وكنت في ذلك العهد لا أدري أنها سوف تستغرقني سنوات عديدة ، ألا وهي تحرير الأراضي المحتلة . لم يكن من المعقول أن ننال هذا التحرير بالقوة ، ولقد اعترتني الدهشة عندما سمعت عبد الناصر يحدد مثلي أن نحقق هذا التحرير بالطرق الدبلوماسية . كنت أرى أن مما لا شك فيه بأن المفاوضات هي الوسيلة الوحيدة لاسترداد أراضينا . لذلك كان لا بد لنا من التلاقي وبحث هذا الموضوع بهدوء وبمعزل عن الانفعال . فأقترحت عقد مؤتمر قمة جديد نتداول فيه بشكل خاص في الموقف المشترك الواجب اتخاذه ازاء اسرائيل . كانت الدولة اليهودية على استعداد للتحديث مباشرة معي ومعى وحدي ، ولكنني لم أكن راغباً في الانفراد والانشقاق عن الشعوب العربية الأخرى التي وقعت ضحية العدوان في حزيران (يونيو) . لهذا كان لا بد من توحيد قضيتنا وأعداد خطة مشتركة . وهذا ما أدى الى لقاء الخرطوم الذي قاطعته الجزائر وسورية . وأنني أكتفي من البلاغ النهائي الصادر عن هذه القمة بهذه الفقرة الهامة :

« قرر ملوك ورؤساء الدول العربية توحيد جهودهم السياسية على الصعيدين الدولي والدبلوماسي لازالة آثار العدوان الاسرائيلي

مهنتي كملك

والحصول على انسحاب قوات العدوان الاسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة في الخامس من حزيران . وسيتم ذلك ضمن نطاق المباديء الأساسية التي تعتمدها الدول العربية وهي : لا صلح مع اسرائيل ، ولا اعتراف باسرائيل ، ولا مفاوضات معها ، وتأكيد حقوق الشعب الفلسطيني في أراضيه . »

لقد وجهت اليها انتقادات مريرة من جراء ما اتصف به هذا النص من الصلابة والحزم ولكنه كان الوسيلة الوحيدة لتأكيد ارادتنا التي لا تتزعزع في البقاء متحدتين مصممين .

وجاءت فيما بعد مهمة يارينج ، وهو رجل يتصف بالنباهة والذكاء . كنا نبدوا أننا نتقدم بخطوات متناقلة . ولكن مع تراجع الزمن ، يدرك المرء اليوم انه طوال كل هذه السنين التي أعقبت حرب حزيران ١٩٦٧ ، كنا نراوح في مكاننا لا نريم وندور حول دائرة لا نتجاوزها .

ومع ذلك ، على الرغم من تدمير جزء كبير من طاقتنا العسكرية ، وعلى الرغم مما أصاب اقتصادنا من معوقات في هذا الصيف من عام ١٩٦٧ ، فقد كانت هنالك مشكلة هامة ، وفي منتهى الأهمية أيضا وهي : المشكلة الانسانية الخاصة بالبقاء على حياة الشعب الفلسطيني . قبل عدوان حزيران ، كان عندنا في الاردن بمعناه المحصور ، أي في الضفة الشرقية من نهر الاردن ، حوالي خمسمائة ألف لاجيء فلسطيني ، انضم اليهم مائة وخمسون ألفا هربوا من الضفة الغربية . كانت أحوالهم المعيشية مقلقة ، غير مستقرة ، ان لم نقل انها كانت لا تلائم حاجات البشر . وقد ركزت سائر جهودي لكي يتسنى لهؤلاء الناس الذين أقصوا عن ديارهم ، العيش على توالي الأشهر ثم السنين ، بكرامة وبصورة طبيعية . ومن أجل ذلك كنت في حاجة الى المال . الى المال الكثير . ولئن كانت المعونات تردنا من القارات الخمس ومن المؤسسات الخيرية ، فقد كانت هزيلة تبعث على السخرية ، في مواجهة

مهنتي كملك

ضخامة المشكلة • وكان هذا البطء لا يروق للاجئين وزعمائهم ، ومنهم ياسر عرفات الذي جعل يزداد وزنا وأهمية ، يضاف الى ذلك أن زعيم فتح وزعيم منظمة التحرير آنثذ أحمد الشقيري ، كانا يستغلان وصول اللاجئين الجدد والعاطلين عن العمل الجدد للاحاقهم في منظماتهما الفدائية وتدريبهم وتسليحهم استعدادا للضربات التي كانا يعتزمان القيام بها في المستقبل • كنا نسير على مهل نحو تصعيد لا سبيل الى معالجته وتفاديه ، بلغ ذروته القصوى في أيلول عام ١٩٧٠ ، وهو تاريخ أسود وشهر من الحداد في حياتي •

كان الفلسطينيون قد وطدوا العزم على استرداد اراضيهم التي احتلت ظلما وعدوانا في أقرب وقت يتيسر لهم : كان لهم أقارب في الجانب الآخر من نهر الاردن ، كان لهم أولاد وبيوت وبساتين تمثل سنين عديدة ، ان لم نقل أجيالا من الجهود والتضحيات • كانت سورية تدعمهم دعما فعالا ، وهذا ما كنا نعرفه قبلا ، وكان يسانداهم العراق أيضا الذي كان له خمسة عشر ألف جندي يرابطون في الاردن باستمرار منذ الحرب • وقد كان الفدائيون بمباركة من دمشق وبغداد ، يجتازون الحدود الجديدة للقيام بضرباتهم ومناوشة العدو بعملياتهم • وقد حدث ما لا بد من حدوثه •

كانت اجراءات اسرائيل الانتقامية ملطخة بالدماء في شباط من عام ١٩٦٨ • وقد ألح علي بعض قوادي العسكريين أن أتولى بشكل أكثر فعالية ، رقابة وتوجيه هؤلاء الفدائيين • الذين بدأوا يتجادون في التصرف على هواهم في الاردن • وقد صرح وزير داخليتي وقتئذ بشكل خاص بأن : « الاردن مصمم على أن يضرب بقبضة فولاذية كل الذين يقدمون لاسرائيل بأعمالهم ، الحجج والاعذار للعدوان على وطننا »

كان علينا أن لا نصطدم وجها لوجه مع الفدائيين • ولكن كنا

مهنتي كملك

مصممين على الاحتفاظ بزمام الموقف في أيدينا •

ثم وقعت الغارة على الكرامة في اذار (مارس) من عام ١٩٦٨ من قبل القوات اليهودية ، كان الاشتباك دمويا من الجانبين خسائر في الارواح البشرية ، تدمير للمعدات • وكان دفن الشهداء من الفدائيين مناسبة لقيام مظاهرة ضخمة • مؤيدة لهم ، وبداية ، ولا شك ، لنواة من المقاومة أكثر رسوخا وأمتن بنيانا وما من شك في أن المنظمة التي كان الفدائيون يجاهدون تحت لوائها كانت تلقت النظر بروعتها حقا ، كانت حسنة التجهيز ، جيدة التدريب • وقد فاتلت في معركة الكرامة الى جانب القوات الاردنية ببسالته وفعالية • ولكن لا بد لي من الاعتراف بأن من الصعب علي أن أمارس رقابتي وتوجيهي على جنود لا نستطيع تمييزهم من غيرهم في الاردن حيث توجد قوانين ، وحكومة لجميع المواطنين مهما كانت أصولهم وأجناسهم ومعتقداتهم • هذه القوانين واجبة التطبيق على الجميع بلا استثناء • لم أكن أرغب في دولة ضمن دولة •

هؤلاء الفدائيون الذين كانت سورية تتولى تسليحهم وتجهيزهم واطعامهم وايواءهم ودفع مرتباتهم ، كان أصدقاؤهم في دمشق والقاهرة يبعدونهم بلباقة عن أراضيهم • فقد ألغت سورية كل عمل فدائي انطلاقا من حدودها ، أي من الجولان • كانت دمشق ترتاب بشكل خاص في منظمة فتح التي كانت تعتبرها مزعجة جدا • فكان الفدائيون ، دون أن يتردوا من سوريته « يوجهون » نحو لبنان والاردن فينطلقون منها للقيام بعملياتهم ضد الدولة اليهودية • وهذا ما كنت أرفضه ، وما زلت حتى اليوم أرفضه •

انني لا احتاج الى دروس في القومية والوطنية أتلقاها من أحد فاذا كان أحد يعتبر وقتئذ ، وما زال يعتبر الان ، بأنه أكثر قومية عربية مني ، فليبرهن على ذلك في بلده نفسها ، وليس بأتخاذ

مهنتي كملك

الأردن أرضاً للتجارب •

ازداد عدد الفدائيين شهراً بعد شهر في الأردن ولا سيما في المدن • وأصبحت عمان معقلاً لهم • كانوا يتجولون في شوارع العاصمة وأسلحتهم في أيديهم يتحدّون السكان وأفراد جيشي • في تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٦٨ ، بلغ التوتر بين جيشي والفدائيين ذروته • كانت الاشتباكات والخطب وبلاغات محطات الاذاعة كلها كانت تحضّ وتحرض على الهيجان والفوران • ولقد وقع ويا للأسف ما كان لا بدّ من وقوعه والذي كنت أخشاه •

مهنتي كملك

لقد قابلتم ياسر عرفات عدة مرات بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٧٠ •
أما كنتم أنتم الاثنان تستطيعان إيقاف هذا التصعيد ؟

بالطبع ، فقد أجرينا عدة محادثات أنا وياسر عرفات طوال هذه الأشهر الحرجة • وعقدت اتفاقيات مع الفدائيين ، اعترفوا بموجبها ، في الفترة الأولى ، بسلطة الجيش الأردني • ولكن الجميع كان يعرف بأن منظمة التحرير الفلسطينية ليست هي التي تسلّح الفدائيين فحسب ، بل كان هنالك أيضاً جماعات أخرى غير معروفة الا قليلاً في ذلك العهد ، ثم ازدادت أهميتها بالتدريج فيما بعد • لقد أجريت محادثات ودية جداً وإيجابية مع ياسر عرفات في شباط من عام ١٩٦٩ • ولكن ما العمل عندما ترفض القوات طاعة رؤسائها وتقرّر تشكيل مجموعات أخرى أشد اضطراباً واحتمالاً وأكثر تصميمًا • كنت راغباً في قبول القرار رقم (٢٤٢) الصادر عن مجلس الأمن الدولي • وكانت محادثاتي مع نيكسون الذي كان قد دخل البيت الأبيض قبل قليل ، قد رسخت رغبتني التي كانت رغبة العرب جميعاً ، وهي العمل على حمل اسرائيل على احترام المقررات التي كانت الأمم المتحدة قد اتخذتها منذ مدة غير بعيدة •

ولكن الدبلوماسية بطيئة ، والضحايا الأبرياء للعدوان الاسرائيلي لم تعد تقبل الانتظار • كان الفلسطينيون تواقين الى أن يستردوا بالسلاح ما جردوا منه ظلماً في عام ١٩٦٧ • فازداد التوتر تفاقمًا في الأردن في عام ١٩٦٩ هذا ، ولا سيما في العاصمة عمان • كانت المظاهرات واستعراضات القوة والنداءات الى التمرد والشعارات المعادية للأردن وزعمائه ، يتوالى ظهورها في كل يوم • ازاء خطورة الموقف في نهاية الصيف ، عينت خالي الشريف ناصر قائداً عاماً لقواتنا المسلحة ، ومحمد رسول الكيلاني وزيراً لداخلية • كانا رجلين يتصفان بالصرامة والفعالية والوطنية ،

مهنتي كملك

ويعرفان تمام المعرفة ما أتوقع منهما ، وهو إعادة الهدوء الى داخل أراضينا ، والقيام بالمراقبة المشددة الدقيقة للحدود مع اسرائيل .

لقد سبق لي القول : بأن الصعوبة تكمن في أن الفدائيين كانوا شيعة وأحزابا ، فالاتفاقيات التي تعقد مع بعضهم لا يعنى بها الآخرون . والالتزامات التي توقعها قوة ثالثة ، ترفضها مجموعة أخرى . كنت أحتفظ بعلاقات مجاملة مع ياسر عرفات . ولكن القرارات التي كنا نتخذها معا ، كانت تتجاهلها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، التي يتزعمها الدكتور جورج حبش ، والجبهة الديمقراطية الشعبية لتحرير فلسطين التي كان يترأسها نايف حواتمه . هاتان الحركتان المتطرفتان الى أقصى حدود التطرف ، كانتا تناديان بأعلى الأصوات على كل من يود الاستماع بأنه : « قبل تحرير فلسطين ، ينبغي تحرير عمان » .

ولكي يعرفوا بأنفسهم ، ويعترف بهم الناس ، كانت هاتان المجموعتان تستخدمان أكثر الأساليب مسرحية واستغفاتا للنظر ، كتحويل الطائرات عن خطوط سيرها .

ولقد تعرضوا حتى الى أسرتي ، ولا سيما الى زوجتي الاميرة منى . فقد أوقفوها بينما كانت تستقل سيارتها في شوارع عمان قبل قليل من حلول عيد الميلاد وأطلق سراحها حربي الخاص بعد بضع ساعات .

في بداية شباط (فبراير) من عام ١٩٧٠ قمت بزيارة عبد الناصر في القاهرة للتباحث معه في الموقف الداخلي الذي كان سائدا في بلدي ، واستطلاع رأيه بشأنه . كان الرئيس المصري ما يزال محتفظا بكل هالة النفوذ التي كان يتمتع بها في العالم العربي وكانت نصائحه ومشوراته مسموعة ومأخوذا بها . ولكن اذا كان قد نصحتني سرّا وبعيدا عن الانظار الفضولية ، بأن ألتزم جانب الحزم ازاء الفدائيين ، فلم يكن في مقدوره أن يفعل ذلك في خطاباته ، لان هذا كان سيثير الاستهجان في سائر العالم الاسلامي وعندما عدت الى عمان في العاشر من شباط (فبراير) كنت أعلم

مهنتي كملك

انه كان لي في شخص الرئيس المصري ، صديق يتعاطف معي وجدانيا ، ولكن ليس حليفا رسميا في أية حال . كنت أعرف انني وحيد ، وحيد أكثر من أي وقت مضى . وأن أقل خطوة عائرة ضد المنظمات سوف تكلفني استثارة غضب الشعوب الشقيقة وقطع المعونات الهامة التي كانت تمدني بها ليبيا والكويت ولا سيما منذ عام ١٩٦٧ .

في هذا اليوم اتخذ محمد رسول الكيلاني قرارا بمنع حمل السلاح في سائر الاراضي الاردنية وأجرى رقابة جديدة على كافة السيارات المدنية . فاعتبر الفلسطينيون التدابير التي اتخذها وزير الداخلية بمثابة استفزاز حربي . كانوا يرفضون بأي ثمن الموافقة على التخلي عن اسلحتهم . وكان لا بد لي من استخدام كل ما أملكه من أساليب الاقناع خلال حديث مع الزعماء الفلسطينيين ، جرى في منزل رئيس الوزراء بهجت التلهوني ، للتوصل الى تنازلات متبادلة ، فتقوم الحكومة بتجميد مقررات الوزير بعض الوقت ، شريطة أن يضع الفدائيون حدا لتجاوزاتهم .

في الرابع عشر من شباط (فبراير) وخلال مؤتمر صحفي ، أعلنت بشكل خاص ، أن مقررات وزير الداخلية قد كانت خطأ يعود الى عدم الاحاطة بالموضوع ، وقلت : بكل اخلاص ، لم أكن أتوقع ردود الفعل هذه بعد صدور القرار الحكومي القاضي بمنع حمل السلاح . ربما حدث انقطاع في الاتصالات ، فالحكومة لا تريد من الفدائيين أن لا يحملوا سلاحهم ، انما تود فقط موقفا يتسم بالتنسيق والتنظيم . على كل حال فان قرارات الوزير سوف يجري تجميدها . . . »

بعد عشرة أيام أعفيت محمد رسول الكيلاني من منصبه فأعتبر كل جانب أن ما حدث كان نصرا له ، وبدا كل من الطرفين أنه قد كسب المعركة . ولكن الحرب ، ماذا حل بها ؟ هل ابتعدت ؟ هل زالت معالمها ؟ لا ويا للأسف . فقد تبع ذلك فترة هدوء قصيرة تغمرها الكآبة ويلفها القلق : فترة لم تدم سوى أربعة أشهر . في صباح التاسع من تموز (يوليو) كان زيد الرفاعي مساعدي

مهنتي كملك

في القصر ، والذي غدا فيما بعد ، رئيسا للوزراء ، قد استيقظ مبكرا جدا على قعقة الاسلحة الاوتوماتيكية ، فأتصل هاتفيا بأبن عمي زيد بن شاكر لمعرفة ما كان يحدث . فأبلغه الأخير بأن الفدائيين كانوا يطلقون النار على المقر العام للمخابرات . فذهب الى هنالك على عجل مارا تحت النيران المتشابكة الصادرة من رجال جيوشي ومن الفدائيين ، واستطاع كيفما اتفق أن يدخل الى دار وأن يتصل بي هاتفيا منها لابلاغي وتحذيري . وعلى الرغم من توسلاته الي لكي أبقى حيث كنت أقيم في الحمر ، فقد اندفعت في سيارة مع القائد العام لجيوشي وعدد قليل من الحرس ، لنرى رأي العين ما كان يجري إذ كان أيضا من مقتضيات مهنتي أن أتواجد حيث تدعو الحاجة الي حتى ولو كان ثمة خطر ، وأي خطر كان سائدا في هذا اليوم !

وما كدنا نمر أمام مركز القيادة العسكرية في صويلح ، حتى جعلت نيران الرشاشات تدوي . فلاقى حتفه أحد الجنود المتواجدين في سيارة الجيب التي كانت تتقدمني وجرح آخر . فأطلقنا جميعا نيران اسلحتنا للافلات من هذا الكمين ، واستمر اطلاق النار بضع دقائق أيضا الى أن توقف ، أسفر ذلك ويا للأسف عن وقوع قتلى : ثمانية من الفدائيين ، وأحد جنودي ، وأربعة جرحى . رباه ، لماذا كل هذا ؟ لماذا ؟ وما أن بلغت القصر حتى أخبرني مساعدي بأن المنظمات الفلسطينية لا تنسب الى نفسها هذه المؤامرة وانها على العكس من ذلك قد استنكرتها . غدا الوضع فوضى متزايدة باستمرار . لا أحد يطيع أوامر أحد . كل يلقي اللوم على الآخر . كانت الازهان في حالة غليان ، ولا سيما بين رجالنا من أبناء العشائر الذين كانوا ينتظرون مني أن أعطيهم النور الأخضر حتى يندفعوا الى المعركة . وانطلقت الشائعات التي لا تساعد على تسوية الامور ، وتهدة الخواطر : قيل بأنني أصدرت أمري الى الجيش بمحاصرة مخيمات اللاجئين في الوحدات ، وفي مخيم الحسين حيث « سقط مئات القتلى والجرحى » ! « يا له من هذيان » . ومن باب الانتقام قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بمحاصرة أهم فندقين في العاصمة واحتجزت ثمانية وخمسين من المواطنين

مهنتي كملك

الاجانب كرهائن : وأعلنت بأنها سوف تطلق سراحهم عندما تصمت نيران الاسلحة والا فانهم سوف يقتلون ، وسيدمرون الفندقان .

في العاشر من حزيران ، جرى وقف لاطلاق النار . ولكنه لم يدم سوى فترة قصيرة . وفي اليوم التالي أصر الفدائيون على استقالة أربعة من أقرب المستشارين عندي . كان بينهم خالي الشريف ناصر ، وابن عمي زيد بن شاكر . كان هذا غير معقول . ثم وقعت حادثة مؤلمة عندئذ : قتل الفدائيون الذين كانوا منتشرين في كل مكان في المدينة ، شقيقة زيد بن شاكر ، ابنة عمي ، جوزاء التي كانت قد صعدت الى سطح بيتها لتشاهد ما كان يجري . وسواء أقتلت عمدا أم سهوا فقد كان الفدائيون قد أحرقوا بدار أم قائد الفرقة المدرعة ، وفي نيّتهم أن يظهروا تواجدهم بطريقة أو بأخرى . كانت جوزاء الضحية البريئة لذلك . ولما كان من الممكن أن يستمر التصعيد وأن يستتبع هذا سقوط قتلى آخرين ، فقد اتخذت على كره مني ، قرارا بأعفاء الشريف ناصر وزيد بن شاكر من منصبيهما ، وأبدلت خالي في قيادة الجيش ، بالجنرال مشهور حديثه ، مقابل ذلك أطلق الفدائيون رهائنهم . وهذا لم يمنع من اطلاق نيران الرشاشات على مشهور حديثه في اليوم التالي لتقلده منصبه في احدى ضواحي عمان . ولحسن الحظ لم يصب بأذى .

احسست بأن وجود خالي في الاردن في هذا الصيف من عام ١٩٧٠ كان يزعج الفدائيين الذين كانوا يأخذون عليه « توجيه دفة الامور » من وراء الكواليس . فتسامحت أيضا ورجوت الشريف ناصر أن يأخذ بعض الاجازة في الخارج ، ريثما تعود الاوضاع الى نصابها من جديد . وفي السابع عشر من حزيران ، خلال مؤتمر صحفي عقدته ، لم أستطع أن أتمالك نفسي من توجيه المديح والثناء للرجلين اللذين أعفيتها من منصبيهما وهما : خالي وابن عمي اللذان عادا فيما بعد الى العمل ، واللذان كانا في رأيي مفخرة لجيشنا ولشعب الاردن . في السادس والعشرين من الشهر المذكور

مهنتي كملك

عينت عبد المنعم الرفاعي رئيسا جديدا للوزراء . وفي اليوم التالي استقبلنا في عمان بعثة عربية رسمية قادمة من الجزائر وتونس وليبيا ومصر والسودان . وقد جاءت بدعوة مني للادلاء برأيها والاعراب عن مشاعرنا حول المشكلة التي تثير الهم والقلق وتقسّم السكان الى طائفتين متناحرتين متعاديتين ، ومستعدتين لكل شيء . استمرت أعمالنا أسبوعين ، وأخيرا ، في العاشر من تموز (يوليو) وقّع اتفاق من قبل مختلف الاطراف . وقّعـه الرفاعي بأسم حكومتي ووقعه عرفات بأسم الفدائيين (والحكاماء) العرب الخمسة ، وقد اعترفنا بموجبه بوجود (لجنة مركزية) لفدائيين على أراضينا ندع لها كل حرية للمناورة والتنقل مقابل أن يتخلى الفدائيون عن قواعدهم ومستودعات ذخائرهم في التجمعات السكانية الاردنية ويكفوا عن حمل السلاح في المدن .

كان هذا من شأنه أن يجعل المرء يتطلع الى المستقبل بهدوء وسكينة . لقد كان هناك ما يدعوني ، بحكم طبيعتي المتفائلة ، أن أعتقد بأننا بذلك قد نجونا تماما من مواجهة قد يقتل فيها الاخ أخاه . ولكنني ما لبثت أن اضطررت الى تضيق مدى ما كنت أرتجيه : اذ لم تدم الهدنة سوى شهر واحد ، بلا زيادة يوم واحد ! كنت وافقت مثل عبد الناصر على الاقتراح الامريكي بايقاف النار لكي نتيح لوسيط الامم المتحدة مواصلة جهوده في جو أكثر هدوءا . وعندما قررت مصر والاردن الاحترام الدقيق لوقف اطلاق النار ثارت ثائرة الفدائيين مرة أخرى . فقد اعتراهم شعور بأن عبد الناصر وأنا قد خذلناهم وغدرنا بهم وأن قضيتهم قد « أغفلت » . لقد تكون لديهم انطباع خاطيء طبعاً بأننا بعماننا هذا لم نعد نريد محاربة اسرائيل ، بل مقاتلتهم هم الفلسطينيون . ومنذ ذلك الحين تجاوزت الاحداث ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية . وأمست جبهة التحرير والجبهة الديموقراطية بالامور في أيديها . كانوا يودون العمل بسرعة ، وبسرعة قصوى . لم يعد أي شيء يستطيع منذئذ أن يوقفهم . كان الامر في نظرهم مسألة تتعلق بالابقاء على حياتهم .

مهنتي كملك

ثم كان الانفجار وكان أيلول الاسود

اعتبارا من ذلك الوقت ظهرت الازمة . فاما نحن أو هم . لم يقبل أحد أن يقدم تنازلات ولم يكن أحد راغبا في أن يتراجع عن موقفه . كانت المواجهة أمرا لا يمكن تفاديه ، ويا للأسف ! بالطبع كان ثمة خلافات بين المنظمات الفلسطينية مثلما توجد خلافات بينها اليوم أيضا . ولكن من أجل الابقاء على حياتها كانت لا تستطيع الا أن توحد جهودها .

ذهبت في الاول من أيلول لاستقبال ابنتي الكبرى عاليه في مطار عمان . فتعرضنا في طريق العودة لنيران غزيرة من أسلحة أتوماتيكية كان يطلقها الفدائيون علينا من بيوت تحصنوا فيها . وثبنا خارج سيارتنا وألقينا بأنفسنا في الخنادق وفتحنا النار . وقد خرجنا من هذا الكمين كيفما اتفق .

بعد مضي خمسة أيام حوّل الفدائيون الفلسطينيون طائرتين مدنيتين عن خطوط سيرهما . احدهما سويسرية والثانية امريكية وأرغموهما على الهبوط في ميدان دوسون (قيعان خنّا) على بعد بضعة كيلو مترات شمال شرقي الزرقاء . كانتا تقلان (٣١٠) من الركاب والملاحين ، بمن في ذلك (١٢٥) امرأة وطفلا . كما فشلت في لندن محاولة تحويل أخرى أجريت على طائرة تابعة لشركة العال الاسرائيلية . وقد دمرت أيضا طائرة جامبو امريكية في القاهرة بعد هبوطها بقليل . هذه الهجمات نسبها الى نفسه وديع حداد الرجل الثاني في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باعتبار أن جورج حبش كان وقتئذ في كوريا الشمالية . وفي التاسع من أيلول هبطت أيضا طائرة بريطانية من طراز (في سي تن) في ميدان داوسون وعلى متنها (١١٥) راكبا . كان المفروض اطلاق سراح الرهائن اذا ما أفرج عن سبعة فدائيين محتجزين في السجون الاوروبية ، وبعض اخر معتقلين في السجون الاسرائيلية . كانت منظمات

مهنتي كملك

المقاومة منقسمة فيما بينها حول الاساليب التي تنتهجها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين • كان ياسر عرفات معارضا لهذه الاختطافات وكانت تجاربه في موقفه المعارض سائر الاقطار العربية بلا استثناء • في الثاني عشر من هذا الشهر ، أطلق سراح معظم المسافرين الذين كانوا محتجزين ضمن ظروف وأحوال شاقة عسيرة كانت تتفاقم باستمرار ، ما عدا أربعة وخمسين شخصا وزعوا في مختلف انحاء البلاد ريثما تتم مبادلتهم بالفدائيين المعتقلين • وقد أطلق سراحهم جميعا سالمين معافين في نهاية الشهر •

وفي رأيي ، وهذا ما قلته وأعدت قوله : ان هذه التحويلات لخطوط سير الطائرات المدنية لهي (عار على العرب أجمعين) • عبثا طوقت ميدان داوسون بقوات من جيثي ، وعبثا حاول القائد العام الجنرال حديثه مفاوضة الفدائيين من (٦) حتى (١٢) أيلول (سبتمبر) ، فلم نخرج من الامر بطائل • كان الصدام العسكري غير معقول لوجود هذا العدد من الرهائن في أيدي الفدائيين • كانوا يستحثونني من كل جانب لكي أتدخل بفعالية • ولكن كان هذا غاية في الخطورة • وكان الجيش يريدني أن أنتقل الى العمل الفعال ، ولو أدى الى سقوط بعض القتلى •

حتى ان بعض جنودي ، من بين أخلصهم وأشدهم ولاء ، لم يعودوا يعرفون ماذا يفعلون والى من يلجأون • كنت متواجدا يوما ، خلال الاسبوعين الاولين الحرجين من أيلول (سبتمبر) في مواجهة سرية مدفعية مستعدة لعمل أي شيء ما عدا البقاء في وضع سلبي • كانت تتقدم في أحد مفارق الطرق جنوبي الحمير ، وبينما كنت أتجه في سيارتي نحو هذه السرية في محاولة لايقاف سيرها ، ناداني أحد الجنود بعد أن قفز من سيارة شاحنة وقال : « توقفوا وعودوا من حيث أتيتم ، اذهبوا • الى الخلف در ا » وجاء آخر فزاد على ذلك قائلا : « انسحبوا من طريقنا أو أقتل نفسي أمامكم • » • وكان قد جذب مسمار قنبلة وأضاف : « لقد كنتم أملنا ، وكنا نحبكم • كل هذا قد انتهى ١٠ » •

مهنتي كملك

لقد تقاضاني هذا الامر ثلاث ساعات لاصرف رجالي عن محاولة القيام بهجوم عسكري والعتور على حل اخر غير الحرب الاهلية وقتل الاخ لآخيه •

في ليلة الرابع عشر من أيلول ، كان رئيس وزرائي عبد المنعم الرفاعي وياسر عرفات يعملان بنشاط متواصل في محاولة لارساء قواعد اتفاق يكفل بعض الحقوق للفدائيين ويتيح لهم انشاء معسكرات أخرى خارج المدن الكبرى • ولكن في اليوم الخامس عشر ، عندما عرض علي الرفاعي الخطوط العريضة لهذا المشروع الذي أعده طوال ساعات الليل كلها مع زعيم منظمة فتح ، لم أستطع الا رفضه • ولكي لا أصدم أحدا في مشاعره ، قلت بأنني سوف أفكر في الموضوع فيما بعد ، بذهن مسترخ • وبعد ظهر اليوم نفسه ، جمعت في الحمير بعضا من أقرب مساعدي ومستشاري ، وهم وصفي التل ، وزيد الرفاعي واثنان من كبار الضباط هما مازن العجلوني وقاسم المعايطه ، وابن عمي زيد بن شاكر الذي كنت قد عينته في آب (أغسطس) على رأس دائرة العمليات في القيادة العامة للجيش • فاتفق الجميع في الرأي على وجوب اجراء عمل حازم وسريع ضد الفدائيين ، ولا سيما وأنه في فترة بعد الظهر هذه قتل ابن قاسم المعايطه أثناء اشتباك بين الجيش والفدائيين في الزرقاء • كانوا يريدون الصدام العسكري قالوا ذلك بصريح العبارة •

اتخذ القرار اذن في مساء الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) كان لا بد من العمل بسرعة ، والا سار الاردن كله في طريق الانهيار • وفي ساعات متأخرة من الليل ، بعثت في طلب رجل لا يعرفه الجمهور الا قليلا ، رجل مسن هو الزعيم محمد داود • كان فلسطينيا محترما ، رفيع المنزلة عند عارفيه • كان دائم الاستياء من تطرف بعض زعماء منظمة التحرير ، ومن فشل ياسر عرفات في محاولته السيطرة على سائر العمليات الفلسطينية ، ومن انعدام الانضباط لدى بعض وحدات الجيش • ولسوف تبقى التعابير التي ارتسمت على وجهه عالقة في مخيلتي ، عندما طلبت اليه ترؤس حكومة

مهنتي كملك

عسكرية ، قدمت اليه قائمة بأعضائها • كان الزعيم محمد داوود يعرف ما يتوجب عليه عمله : اذا لم يجلّ الفدائيون عن الممدن كما تقضي بذلك احدى نقاط اتفاقية الرفايع عرفات ، في الساعة الثامنة من صباح السادس عشر من الشهر ، فان الجيش سيشرع في الهجوم • كان الجو ثقيل الوطأة ، فأتخذ مع مستشاري الرئيسيين هذا القرار البالغ الاهمية الذي كنت قد رفضت اتخاذه منذ أشهر ، لا بل منذ سنوات •

كان الزعيم محمد داوود ، يقدره الفلسطينيون • وكان له العديد من الاصدقاء بين زعماء المقاومة • فلربما كان تعيين رجل مقترن حازم ، سيؤدي الى انقاذ ما يمكن انقاذه •

في الساعة السادسة صباحا ، أذاعت محطة اذاعة عمان ، نبأ تشكيل الحكومة الجديدة التي كانت تتألف من سبعة جنرالات وثلاثة عقدا ، وثلاثة رواد ، وحل المشير حابس المجالي في قيادة الجيش محل الجنرال مشهور حديثه • وفي الرسالة التي وجهتها الى شعبي ، أعلنت بشكل خاص بأن : « حالة من الشك والفوضى وانعدام الطمأنينة والامن ، تسود بلادنا العزيزة ، وأن الخطر الذي يهدد الاردن قد ازداد • فقد رنا أن من واجبنا اتخاذ سلسلة من التدابير لاعادة القانون والنظام وحماية حياة كل مواطن ، وسبل عيشه وما في حوزته « • » •

اعتبر الفدائيون هذا القرار وهذه الاقوال بمثابة اعلان حرب • واستدعى ياسر عرفات اللجنة المركزية الى مقر قيادته في جبّل الحسين حيث اتخذ قرار في غاية الخطورة : اذ قررت جميع منظمات المقاومة أن تتحد تحت لواء ياسر عرفات والجهة الشعبية ، ومنح اللواء يحيى منصب رئيس اركان حرب ، وهو الان قائّد لجيش التحرير الفلسطيني • وتقرر القيام بأضراب عام يبدأ في اليوم التالي ويستمر « الى أن تسقط الحكومة الفاشية » • حاول داوود عبثا طوال نهار السادس عشر ، الاتصال بياسر عرفات

مهنتي كملك

الا أن الاتصال الهاتفي القصير الذي أجراه معه في ساعة متأخرة من بعد الظهر لم يغير من الامر شيئا • كان ذلك يعني الصدام العسكري والمواجهة التي طالما خشيناها والتي يقتل فيها الاخ أخاه •

بدأت المواجهة في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والخمسين من صباح السابع عشر من أيلول • كان يتواجد من ناحية ، خمس وخمسون ألف رجل مجهزون خير تجهيز ومدربون خير تدريب ، ويشكلون كتلة واحدة وفي حوزتهم ثلاثمائة دبابة وحوالي أربعون طائرة • ومن ناحية أخرى خمسون ألفا من الفدائيين يمكن اعتبار حوالي نصفهم من الجنود الحقيقيين ، يساندتهم عشرة الاف آخرون متمركزون في سورية ، بالاضافة الى أنهم يستطيعون أن يتمتعوا في أية لحظة بدعم اثني عشر ألف جندي سوري وعراقي مرابطين في الاردن منذ عام ١٩٦٧ •

كان أول رد فعل اجنبي خلال نهار السابع عشر هذا ، قد جاء من الرئيس السوري نور الدين الاتاسي ، الذي أيد الفدائيين فوراً ، وكان يشجعه في ذلك مساعده صلاح جديد ويوسف الزعبي اللذان كانا يطالبان بالتدخل الفوري للجيش السوري الى جانب الفدائيين • ولكنهما أوقفا بعض الشيء في اندفاعهما من قبل وزير الدفاع السوري الفريق حافظ الاسد ، وهو رجل راجح العقل نير الفكر • اذ كان يعتقد بأن من المحتمل أن يؤدي اتيان عمل كهذا الى حمل اسرائيل على اتخاذ اجراء ضد دمشق •

كان عبد الناصر يبدو في حيرة وارتياب • فقد أرسل اليه ، بعد حديث مطول أجراه مع العقيد القذا في ، رئيس اركان حرب الفريق محمد صادق الذي دعا الفريقين عند وصوله الى ايقاف اطلاق النار • ولكن الوقت كان قد فات •

ثم جاءت طعنة الخنجر التي تلقيتها في الظهر اذ تغلب

مهنتي كملك

المتطرفون في كل من سورية والعراق وهاجموني في العشرين من أيلول ، في اللحظة التي كنا أقل الناس توقعا لها • كان لـدى السوريين بشكل خاص ، (٨٨٠) دبابة ومائتا طائرة ، هل كانت النهاية في هذه المرة ؟ • كان علينا أن نواجه بجيشنا الصغير ووسائلنا الضعيفة ، خصوما ثلاثة ، في الداخل وفي الشمال وفي الشرق ، دون أن تجرد من أجل ذلك حدودنا الغربية من حاميتها • ثم ماتت الدول العربية الواحدة تلو الأخرى الى جانب المعسكر الفدائي • وعمد أقرب الاصدقاء لنا ، أولئك الذين كانوا دومًا يكنون لنا التقدير والوداد الى قطع علاقاتهم معنا ، ومنع المعونة المالية عنا •

أقد عاد الكفاح من جديد ، من أجل البقاء ، من أجل الحياة • كنت أهاجم من كل ناحية بموجات متتالية من عشرات الطائرات وبحملات من مئات المدرعات ، دون أن أستطيع الرد الا بضربات صغيرة سريعة وفعالة كنت أوجهها الى قواعد الخصوم الخلفية • كان ميزان القوى واحدا ضد ثلاثة ، وحتى ضد أربعة ! كان لا بد من مناوشتهم بلا انقطاع •

في الثاني والعشرين من الشهر ، استردت نفوسنا الامل والرجاء • فقد استقرت الجبهات وتوازنت • وفي اليوم التالي تراجع المهاجمون • لقد كانت الهزيمة • وفي مساء الثالث والعشرين من الشهر ، كانوا قد غادروا ترابنا الوطني ، تاركين وراءهم أكثر من ستين دبابة وعشرات من الشاحنات ، ومئات من الاسلحة • ولكنهم تركوا بعض القتلى أيضا • رباه لماذا كل هذا ؟

وفي مساء الثالث والعشرين نفسه ، جاءت بعثة أخرى تحمل النوايا الطيبة ، وكان على رأسها الرئيس جعفر نميري رئيس جمهورية السودان • لقد أتاح لنا النصر الذي أحرزناه امكانية ترجيح وتغليب وجهات نظرنا التي تقضي بما يلي :

مهنتي كملك

(١) وجوب اخلاء الفدائيين وقوات الجيش للمناطق المدنية •

(٢) وجوب حصر نشاطات الفدائيين في مناطق الحدود مع اسرائيل •

(٣) منظمة التحرير الفلسطينية هي وحدها التي يعترف بها كممثلة شرعية للمنظمات الفلسطينية •

(٤) على الفدائيين أن يحترموا قوانين الاردن وسيادته •

رفض ياسر عرفات هذا الاتفاق • وبعد رحلة خاطفة الى القاهرة ، عاد النميري الى عمان لمقابلة الزعيم الفلسطيني • جرت المقابلة في مساء الرابع والعشرين من الشهر • وقبل ياسر عرفات في النهاية النقاط الاربع من الاتفاق • وأصدر أمره الى قواته بايقاف اطلاق النار • وفي ليلة الرابع والعشرين الى الخامس والعشرين ، أذاع هذه الرسالة من محطة إذاعة دمشق : « أيها الشعب العزيز العظيم الشجاع الثوري • من أجل تفادي المزيد من سفك الدماء ، ولكي يتسنى لنا مداواة جراحنا ، واستئناف الحياة الطبيعية ، أعلن لكم ، بوصفي القائد الاعلى لقوات الثورة الفلسطينية ، بأنني ، استجابة للطلب الذي أعربت عنه بعثة رؤساء الدول العربية ، قد وافقت على شروط وقف اطلاق النار • وأنني أطلب الى الاخوة أن يفعلوا مثل ما فعلت ، اذا ما قام الجانب الآخر بعمل الشيء نفسه » •

عاد النميري الى القاهرة وبرفقته ياسر عرفات الذي استقبل فيها كرئيس دولة • لقد تحدثوا هناك عن « مذبحة » ، وعن « عشرين ألف قتيل بين الفلسطينيين » وعن مشاهد من التقتيل • وقصارى القول : لقد أدين الاردن • جمد الدم في عروقي • فاذا كان عبد الناصر قد سمع رواية عن الحوادث ، فلسوف أسمع الرواية الأخرى ، روايتي أنا • في صباح الاحد السابع والعشرين من الشهر ، وصلت القاهرة استقبليني عبد الناصر ، وأوصلني الى

فندق هيلتون ، حيث اجتمعت في الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين مع فيصل ملك العربية السعودية والشيخ صباح السالم الصباح أمير دولة الكويت ، ومعمّر القذافي رئيس جمهورية ليبيا وجعفر النميري رئيس جمهورية السودان ، وسليمان فرنجيه رئيس جمهورية لبنان ، والشامي ممثلا لليمن والباهي الادغم ممثلا لتونس بالإضافة الى عبد الناصر وعرفات . وهناك حادث تفصيلي طريف : كنت أنا وياسر عرفات نحمل سلاحا ! وبإيجاز أدخلت أمام نوع من المحكمة . استغرقت المحادثات ست ساعات ونصف الساعة . كان الاتفاق الذي ووفق عليه قبل بضعة أيام قد تعدل ان لم نقل قد استهتر به . لم يعد الموضوع يتعلق بأبعاد الفدائيين خارج المدن بل : « بأحلالهم في مواقع مناسبة من أجل المعركة مع إسرائيل » . لم تتكلم أية من النقاط الأربع عشرة للاتفاق الجديد ، عن « احترام قوانين الأردن وسيادته » . وبناء على الطلب الصريح الذي أعرب عنه الملك فيصل ، اضطرت الى مصادفة ياسر عرفات .

كل طرف كان يدعي النصر لنفسه . جيشي المنتصر في الميدان ، والفدائيون المنتصرون على الورق . ولكن من الذي كان رابحا ؟ ومن الذي مني بالخسارة ؟ . نعم لقد سقط مئات القتلى . ألف وثلاثمائة حسب أقوال المشير حابس المجالي ، وليس عشرون ألفا . كان الفلسطينيون يتواجدون في المعسكرين . وكان الأردنيون متواجدين أيضا في المعسكرين . وكانوا يتبادلون إطلاق النار على أنفسهم . نعم فرّ بعض الجنود من الطرفين ، حتى لقد اكتشفت ان سائق سيارتي كان فدائيا وأن أحد الطهاة عندي قد حاول مرات عديدة أن يسمم ما أتناوله من طعام . وعندما جرى اعتقاله كان يحمل قنبلة في جيبه ! .

ما أشد الحزن الذي كان يعتريني عندما أستعيد ذكرى كل هذا ، وما أشد الكآبة التي كانت تستبد بي ! كان لا بد من إعادة تنظيم الأمور في بيتي الأردني ، وإعادة الثقة الى الشعب والجنود . طوال هذه الأحداث الفاجعة ، وخلال هذه الأسابيع المؤلمة الشاقة على

النفس . نسيت حتى أن رئيس وزرائي قد استقال ، فاستبدلته بأحمد طوقان ! لقد أهملت اتصالاتي مع شعبي ، التي كنت في مسيس الحاجة اليها .

قمت بجولات عادت عليّ بالكثير من الراحة النفسية ، اذ كانت بالنسبة اليّ مدعاة لتقوية المعنويات عجيبة . في القواعد العسكرية ، استقبلت بالهتاف : « يا حسين ، يا حسين » . بالطبع لم تنتظم الأمور في يوم وليلة . وقعت أيضا بعض الاشتباكات هنا وهناك . وجرى بعض الاحتكاك . ولكن الجيش كان يعيد النظام بسرعة في كل مرة . ووردتني أسلحة جديدة من واشنطن ولندن .

ثم جلب الرعد في العالم العربي ، ووقعت المصيبة الفجائية : باعلان الوفاة المباشرة للرئيس عبد الناصر . وهكذا مات « الخصم الودود » ! . ماذا كنت أستطيع أن أستشعر غير الكثير من الألم والحزن أيضا ، على الرغم من الهموم والمتاعب التي تسبب لي بها طوال سنين عديدة ؟

لم يبق أحمد طوقان طويلا في إدارة الاعمال ، فقد أبدلته بوصفي التل ، أقرب المستشارين اليّ ، وعينت في نفس المناسبة مستشاري الآخر ، رئيس الوزراء الحالي ، زيد الرفاعي ، سفيراً في لندن .

خلال الأشهر التسعة التي تلت ، قضي بالتدريب على كل مقاومة وغادر الفدائيون أراضينا . وهذا تم على فترتين : من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ حتى نيسان (ابريل) ١٩٧١ ، حملهم الجيش على الخروج من المدن الكبرى : عمان ، اربد ، عجلون ، جرش ، ثم في الفترة الاخرى ، من أيار (مايو) حتى تموز (يوليو) ١٩٧١ أخذ الفدائيون الذين تجمعوا في الغابات والقرى والارياف ، أسرى ، وتمكن اخرون من الفرار الى لبنان وسورية ، وبعضهم الآخر اتجه نحو الاراضي المحتلة . وقد أطلق سراح جميع

الاسرى وزعمائهم فيما بعد . وفي آب (اغسطس) من عام ١٩٧١ انتهى كل نشاط عسكري لهم . ومنذ ذلك الحين ، غدوت ولي الامر في بلدي . كنت أعرف أن الخصم كان يتصرف بالعناد والتصميم ، وأنه كان ساهرا على الحدود ، فطلبت من رئيس وررائي أن لا يذهب الى القاهرة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١ فلم يلتفت الى ذلك ، وقتله في ردهة الفندق الذي كان ينزل فيه ، فلسطينيون كانوا يدعون انتسابهم الى منظمة مقاومة لم نسمع باسمها سوى للمرة الاولى وهي منظمة أيلول الاسود . وفي الفترة ذاتها نجا زيد الرفاعي من رصاصات قاتلة في وسط لندن بالذات !

كان موقفى الحازم ازاء الفدائيين ، محل انتقاد شديد من جانب مؤتمر عربي عقد في طرابلس لم يشترك فيه عمليا سوى قليل من الدول هي : ليبيا ومصر وسورية واليمن وياسر عرفات . كانت حربا شريفة نزيهة وكان لا بد من كبش فداء لمشاكل الفدائيين . ولكنى لم أتمالك نفسي من الابتسام عندما بلغني في الوقت نفسه أن السوريين قد صادروا أسلحة الفدائيين التي وردتهم من اوربا عن طريق ميناء اللاذقية ! وهكذا فعل آخرون ما كنت فعلته أنا نفسي . ماذا كانوا يستطيعون غير ذلك ؟ وماذا كانوا هم فاعلون لو كانوا في مكاني ؟

ان من يعمل ملكا في الشرق لا يمارس في الحقيقة مهنة مريحة قطعاً .

لقد أوقفت حرب عام ١٩٦٧ بلا هوادة ، جهودكم المبذولة لتحقيق النهوض الاقتصادي ، ما هو الوضع الاقتصادي للاردن اليوم ، بعد كل هذه الهزات التي طرأت في السنين الاخيرة ؟

انه في تحسن مستمر ، وأستطيع أن أقول انه في تحسن يبعث على الدهشة . ففي وقت قصير ، انطلق انتاجنا انطلاقة عظيمة ، فاشتدت كثافة طاقة التنمية عندنا في خمسة قطاعات رئيسية . مصادر ثروتنا المعدنية والمائية ، وصناعتنا الخفيفة ووسائل المواصلات الداخلية ، والسياحة .

ليس من يجهل الاحداث المؤلمة التي أصابت حياتنا القومية بالاضطراب في عام ١٩٦٧ ، وعواقبها الموقية التي ما زالت عالقة بنا حتى يومنا هذا ، ولا أقل من أن نذكر منها الموجة العارمة التي كانت تتضخم باستمرار ، من النازحين الفلسطينيين الذين استقبلناهم في أراضينا والذين بقيت أغليتهم غير منتجة .

ان الاردن يبدو لي اليوم متمتعاً بأكمل صحة لا سيما بعد المباشرة في تنفيذ مشروع السنوات الثلاث الذي يغطي الفترة الواقعة بين عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٥ والذي ترمي أهدافه الرئيسية التي سوف تتحقق في نهاية هذه السنة (١) الى ما يلي :

- ١ - احداث سبعين ألف عمل جديد .
- ٢ - زيادة الدخل القومي الاجمالي بنسبة ثمانية بالمائة .
- ٣ - النهوض بالنشاطات الاقتصادية والاجتماعية عبر تنمية فعاليات البلديات والمجالس المحلية والمناطق الريفية خاصة فيما يتعلق بالماء والكهرباء والمواصلات .

(١) عام ١٩٧٥ .

مهنتي كمالك

٤ - زيادة مصادر الثروة الداخلية للبلاد حوالي أربعين بالمائة .
٥ - تحسين ميزان المدفوعات وتخفيض مقدار عجز الميزان التجاري (وهو عجز أوصلناه من (١١ر٥) بالمائة بالنسبة للفترة الواقعة بين ١٩٦٧ و ١٩٧٠ الى (٦ر٣) بالمائة ، فكان علينا اذن خلال هذه الفترة أن نزيد من صادراتنا بمقدار (٥٦ر٥) بالمائة وأن نزيد من دخلنا السياحي (١٥٠) بالمائة .

لقد قدرنا ، عندما أعددنا هذا المشروع في نهاية عام (١٩٧١) أن التوظيفات الثابتة ، ينبغي أن تبلغ خلال هذه السنوات الثلاث ، (١٧٩) مليون دينار أردني (حوالي ٢٧ مليار فرنك فرنسي) ، منها (٩٩ر٥) مليون دينار ، ترد من القطاع العام ، و (٧٩ر٥) مليون دينار ، ترد من القطاع الخاص .

وما من شك في أنه في السنوات المقبلة ، وأقول في السنوات العشر القادمة سوف نبقى في حاجة لمعونة رؤوس الاموال الاجنبية ، (١) لا سيما التي ترد من الشعوب الشقيقة : ان أكثر خبرائنا تفاؤلا يعتقدون بأن استمرار هذه المعونة ينبغي أن لا يتجاوز ستة الى ثمانية أعوام ، أما أنا فأرى بأن عام ١٩٨٥ سوف يشير الى منعطف في تاريخنا . ولكن من البديهي أن هذا الموعد سوف لن يتعلق بتحقيقه بنا وحدنا بل سوف يكون ، بصورة أساسية تقريبا رهينا بالظروف الدولية :

كمقدار عدد اللاجئين الفلسطينيين الذين سوف يمكنون عندنا ليصبحوا مواطنين أردنيين متساوين في الحقوق والواجبات . ومقدار عدد الذين سوف يعودون الى الضفة الغربية بعد أن يكونوا قد اختاروا الجنسية الفلسطينية . والزمن الذي سوف يستغرقه

(١) بديء في عام ١٩٧٦ بتنفيذ خطة التنمية الخمسية ١٩٧٦ - ١٩٨٠ التي تهدف الى مواصلة المسيرة الانمائية في المملكة .

مهنتي كمالك

دوام الوضع الراهن الذي ما زلنا نتحمل نتائجه وحدنا . والوقت الذي ستعاد فيه الاراضي المحتلة نهائيا الى الامة العربية .

فالى جانب العبء الهائل من المساعدة التي نقدمها الى اللاجئين والنازحين ، قد أضيف تلاشي صناعتنا السياحية التي انخفضت مواردها من (١١ر٣) مليون دينار ، أي (١٧٠) مليون فرنك عام ١٩٦٦ الى (٣) مليون دينار ، أي (٤٥) مليون فرنك عام ١٩٧٢ . وقد وازى ذلك أيضا انخفاض نسبة الزيادة في اجمالي الانتاج القومي من (١١ر٥) بالمائة خلال الفترة الواقعة بين ١٩٥٦ و ١٩٦٦ حتى بلغت أربعة بالمائة أثناء الفترة الواقعة بين ١٩٦٧ و ١٩٧٢ .

ولولا جميع هذه الهزات التي أصابت حياتنا القومية لكنا قد استغينا عن المساعدة الخارجية منذ عام ١٩٧٠ . فقد كان مشروع السنوات السبع الذي بدأنا في تنفيذه عام ١٩٦٤ والنتائج المشجعة التي أسفر عنها طوال الفترة الواقعة بين عام ١٩٦٤ وعام ١٩٦٧ ، قد ملأ نفوسنا اغتباطا ، وأتاحا لنا أن نعتبر عام ١٩٧٠ عام الانطلاق الاقتصادي .

لقد بقيت ذيول حرب حزيران عام ١٩٦٧ ظاهرة للعيان عندنا الى ما بعد مرور خمس سنوات على نشوبها . ولكن منذ عام ١٩٧٣ بذل جهد لم يسبق له مثيل في بلادنا . فاذا ما وقى الله الاردن من أي اعتداء في هذه السنوات المقبلة ، واذا ما استمر الجهد المبذول اليوم على ما هو عليه طوال عشر سنوات ، فإن ما كان يمكن انجازه في عام ١٩٧٠ حسب تقديرات خبراء الاحصاء عندنا ، سوف يتم تحقيقه حتما في عام ١٩٨٥ .

ان الاردن يملك كل مقومات الازدهار . فهو غني بالفوسفات فانتاجه من هذه المادة سوف يبلغ (٢ر٤) مليون طن في نهاية عام ١٩٧٥ . وقد قدر له انتاج خمسة ملايين طن في عام ١٩٧٦ ، وسبعة

مهنتي كملك

ملايين طن في حوالي عام ١٩٨٠ ، وهذا ما سيتيح لنا دفع قيمة ثمانين بالمائة من مستورداتنا ، وهو غني أيضا بالبوتاس ، وسينتج المخصبات الكيميائية وكذلك النحاس والمغنيزيوم بكميات هامة . ومن الممكن أن يكتشف البترول قريبا جدا في المناطق الصحراوية في جنوب البلاد ، واحتمالات ذلك خمسون الى خمسين .

وهناك عنصر أساسي في اقتصادنا لا يجوز أن نغفل اعتباره : وهو أن الشعب الاردني هو بلا ريب من أكثر شعوب المنطقة حبا للعمل واقبالاً ومثابرة عليه . انه متعطش للمعرفة ، تواق الى الاطلاع ، راغب في أن يتعلم وأن يعلم بعدئذ أولئك الذين لا يعلمون . ان شعبنا بالغ النشاط صابر مثابر لا تنزعجه الشدائد وليس من بلاد في الشرق الاوسط لم يشارك أردني في تنميتها وتطويرها . فمهندسوننا وأطباؤنا وخبرائنا موجودون في سائر أقطار الامة العربية ، من المغرب الى أقاصي شبه الجزيرة العربية ، يفيدون شعوبنا الشقيقة بعلمهم وخبرتهم .

لهذا فانني أقول ، وها هي الارقام شاهدة على ذلك ، بأنني جد متفائل بمستقبلنا . وليس من سبب يدعو لان لا نصبح في بضع سنين مثلا يحتذى للبلاد التي تحيط بنا .

مهنتي كملك

ولكن هنالك أيضا التربية والتعليم والصحة العامة والعمل والاصلاحات الاجتماعية . ماذا فعلتم منذ عشرين سنة لمكافحة آفة القرن العشرين التي تدعى الامية ؟

ان قناعتنا بأن الجهل هو عدو للعرب ، حملتنا على التصميم على سرعة تنمية وتطوير نظام التربية والتعليم عندنا . ان هدفنا الفوري هو اعداد الشباب وتأهيلهم في ميدان الخبرات الفنية والاساليب التقنية . واننا ندرك أهمية العمل من أجل تنمية وتطوير دولة ديموقراطية حقيقية ورفع مستوى المعيشة المضطرد والمنتظم لسائر العمال . لقد كنت دوما أعلق أهمية كبرى على تثقيف الاردنيين وعلى مكافحة الجهل .

وانني أعتقد بأن ايراد بعض الارقام ستمكنك أكثر من أي شرح أو تفسير ، من أن تحكم على جهودنا وعلى ما أحرزناه من تقدم . ففي الوقت الذي ازداد عدد سكاننا بمعدل (٣ر٢) بالمائة خلال العشرين عاما الماضية ، فان عدد طلابنا قد ارتفع من (١٤٠) ألفا في عام ١٩٥١ الى (٤٢٥) ألفا في عام ١٩٧٣ ، أي بزيادة بلغت ثلاثة أضعاف . كما ازداد أيضا عدد الاساتذة زيادة محسوسة جدا اذ انتقل عددهم من ألفين في مطلع الخمسينيات ، الى أكثر من خمسة عشر ألفا اليوم ، وقد لازم ذلك أن قفزت ميزانية التربية والتعليم من (٣٠٨) آلاف دينار الى سبعة ملايين ونصف المليون دينار في العالم الماضي (١) .

ولا حاجة الى القول بأن التعليم العام مجاني تماما في الاردن بالنسبة للصفوف الاولى ، أي أنه يشمل تقريبا جميع من في سن انتلمذة من الصبية الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والخامسة عشرة . وفي نهاية هذه السنوات التسع التي أسميها « أولية » ، يتوجب على التلاميذ أن يتقدموا الى فحص يتيح لهم في حالة

مهنتي كملك

النجاح متابعة دراستهم . فمن أسعدهم حظ احراز شهادة بالنجاح في هذا الفحص ، تسمى « شهادة الاعدادية العامة » ، (١) يستطيعون الاستمرار في دراستهم عن طريق مرحلة ثانوية مدتها ثلاث سنوات . وفي ختام هذه السنوات الثلاث ، يفتح لهم الفحص النهائي ، امكانية دخول الجامعة سواء في عمان أو في الخارج .

وفي يومنا هذا يتلقى التعليم حوالي (٩٥) بالمائة من جميع الطلاب الاردنيين الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والثانية عشرة ، ويدخل الجامعة خمسة وعشرون من أصل كل مائة طفل يدخلون مدارس الحضانة . وهذا أمر يستحق الالتفات والاعتبار .

كانت الامية في نهاية الحرب ، أمرا مألوفاً ، في بلادنا القديمة العهد ، الشديدة التمسك بتقاليدها . وكانت نصيب معظم المواطنين الذين كانت أكثريتهم من سكان البادية والارياف . وبمقتضى احصائيات عام ١٩٧٢ ، كان أربعون بالمائة من السكان الذين تزيد أعمارهم عن الخامسة عشرة ، ما زالوا أميين ولا بد لهذا الرقم الذي كان أكثر ارتفاعاً فيما مضى والذي جعل يهبط بانتظام منذ عام ١٩٥٢ ، لا بد له من أن ينخفض بنفس النسق خلال السنوات العشر القادمة . وقد بوشر بمكافحة فعالة للجهل منذ عشرة أعوام تقتصر على الضفة الشرقية لنهر الاردن فقط . ويوجد الآن أكثر من مائتين من مراكز التعليم الاستدراكية تتيح للرجال والنساء تعلم القراءة والكتابة بمقتضى برامج تدريسية تستغرق سنتين .

وأخيراً فان لدينا أيضاً صفوتنا المختارة من الشباب الذين سيمثلون اردن الغد . والذين يتلقون العلم في جامعتنا في عمان (٢)

(١) توقف العمل بهذا الترتيب اعتباراً من السنة الدراسية ١٩٧٥ - ١٩٧٦ ، وأصبح الباب مفتوحاً أمام سائر الطلاب لإكمال المرحلة الثانوية .

(٢) أنشئت جامعة اليرموك فيما بعد .

مهنتي كملك

أو يتابعون علومهم في الجامعات الأجنبية الكبرى في بيروت وغيرها من الحواضر العربية الكبرى أو في الغرب . ويؤخذ من أحدث الأرقام المتوفرة ، أنه يجب أن يحصى أكثر قليلاً من (٤٢٧١٨) طالباً يدرسون في الجامعات منهم ما يزيد على الثلث من الفتيات . وهناك ما يقرب من (٣٥٠٠) طالب يتابعون الدروس في المعاهد العليا الأخرى ، ولا سيما في معاهد دور المعلمين ، ليتخرجوا أساتذة .

وانني أود أن أسمح لنفسي بعودة صغيرة الى الوراء ، الى السنوات الخمسين الأخيرة : فقد ورثت دولة شرقي الاردن منذ تأسيسها في عام ١٩٢١ ، نظاماً تعليمياً تأصلت جذوره عندنا وفي سائر منطقة الهلال الخصيب من قبل الغزاة الاتراك . كان تعليمنا معتمداً على بعض المدارس الابتدائية لا تتجاوز فترة التدريس فيها السنوات الثلاث . وكان لدينا أربعة مدارس ابتدائية في اربد والسلط والكرك ومعان ، كان يمتد تدريسها لفترة ست سنوات . وكان ثمة أيضاً بعض المدارس الدينية الإسلامية والمسيحية مبعثرة في كل مكان تقريباً في مجموع أراضي الامارة . ومنذ أن أقمنا مؤسساتنا الخاصة بعد مضي سنة على تأسيس الدولة ، زدنا معاهدنا فبلغت أربعة وأربعين ، كان يدرس فيها واحد وسبعون أستاذاً فقط . وفي عام ١٩٢٣ وضع الحجر الاساسي « لمدرستنا السلطانية » أي المدرسة الثانوية ، باحتفال كبير في السلط . وبعد مرور سنة على ذلك ، عقد أول مؤتمر للمدرسين في شرقي الاردن في البناء الجديد ، ثم تتابع انشاء المدارس بمدرسين وطلاب آخرين . وفي نهاية السنة الدراسية لعام ١٩٣١ ، أي بعد مضي عشرة أعوام على استقلالنا ، كان لدينا ما يقرب من (٥٢٥٠) تلميذاً ، موزعين على أربعة وخمسين مدرسة حكومية يتولى التدريس فيها (١٢٢) أستاذاً . وكانت ميزانية التربية الوطنية تمثل (٢٣) بالمائة من ميزانيتنا العامة .

في خريف عام ١٩٤٠ أنشأنا أول وزارة للتربية والتعليم عندنا ،

مهنتي كملك

وأقمنا البنيان الاساسي لتعليم جدي متين الاركان • وكان يتألف بشكل خاص من مرحلة أولى ابتدائية مدتها سبع سنوات • ومن مرحلة ثانوية تستغرق أربع سنوات ، دون أن نغفل امكانية أن يتابع الطالب لمدة سنتين ما نسميه (بالمرحلة الفنية) التي تعد الطلاب بصورة خاصة للاعمال التجارية والزراعية •

فيما يتعلق بفلسطين ، بحصر المعنى ، فان تاريخ التعليم فيها مختلف تماما عنه في الضفة الشرقية لنهر الاردن ، بالنسبة للفترة الواقعة بين عامي ١٩١٩ و ١٩٥٠ • ولم يكن يوجد في عام ١٩١٤ سوى مدرسة واحدة في القدس تقدم تعليما ثانويا كاملا ، ومعهدين آخرين في كل من عكا ونابلس يقدمان تعليما ثانويا محدودا ، أستطيع أن أضيف اليها حوالي خمسمائة مدرسة ابتدائية ، جميعها خاصة ، تمول وتدار من قبل الجمعيات الاجنبية التابعة للحكومات ، أو للارساليات الدينية • وبين نهاية السيطرة العثمانية وانقضاء أجل الانتداب البريطاني ، عملت الحكومة الانكليزية اشياء كثيرة • فقد أنشأت (١٥٠) مدرسة ابتدائية وعشرين مدرسة متوسطة • وأربع مدارس ثانوية تؤهل لدخول الجامعات •

ومنذ توحيد الضفتين في عام ١٩٥٠ ، وضعت المؤسسات التعليمية القائمة على ضفتي نهر الاردن تحت الرقابة المباشرة لوزارة التربية والتعليم في عمان التي تولت تقسيم البلاد الى ست مناطق تعليمية هي : نابلس والقدس والخليل في الضفة الغربية ، وعجلون والبلقاء والكرك في الضفة الشرقية • كانت المملكة الاردنية الهاشمية قبل خمس وعشرين سنة تضم حوالي سبعمائة مدرسة وثلاثة آلاف مدرس و (١٢٣) ألف تلميذ • ولولا انفصال الضفة الغربية ، لكان لدينا اليوم مجموعة قياسية من (٢٦٥٠) مدرسة وعشرين ألف أستاذ ، و (٦٥٠) ألف طالب • الا أن الاحداث قضت بأن تسيير الامور على نحو آخر • ولكن ، كما تستطيع أن تتحقق

مهنتي كملك

منه ، لقد بذل جهد لم يسبق له مثيل في مجال التربية والثقافة خلال السنوات العشرين الاخيرة •

الى جانب التعليم العام ومكافحة الامية ، فقد طلبت الى حكومتي ان تبذل على توالي السنين ، جهودا ضخمة فيما يختص بالصحة العامة والضمان الاجتماعي ، وتأمين المساكن لافراد شعبي ، لقطع الطريق نهائيا على الجهل والاهمال أن يتسببا في وقوع ضحايا لهما • لقد عانينا أشد المعاناة طوال سنوات • فقد آوينا عددا متزايدا بلا انقطاع من اللاجئين ومن الذين لا مأوى لهم • وإذا كان قد تم انجاز الكثير في هذا المجال ، فما زال المزيد من العمل يتطلب التحقيق •

ولقد كنت دوما أعلق أهمية كبرى على صحة ورفاه الاردنيين • وهنا أيضا ، وضمن حدود الامكان ، كنت تواقا الى أن ينفق مواطني القليل من المال على العناية بصحتهم ، اذا لم يتسن لهم عدم الانفاق اطلاقا • ففي يومنا هذا غدت العناية الطبية مجانية ، سواء فيما يختص بالصحة العامة ، أو بالنسبة للطب الوقائي • كما تدفع أجور زهيدة مقابل المعالجة الطبية أو استقبال المرضى في المستشفيات • وان الملكة علياء ، زوجتي الثالثة ، لهي أكثر مني اختصاصا في التحدث اليك عن المساعدات التي نقدمها للنساء الحوامل وللأمهات الشابات والاطفال ، وكذلك الطاعنين في السن والمعدمين • ولكن لا حاجة الى القول بأن معظم ميزانيتنا تذهب الى اللاجئين الذين أدى ازدياد عددهم بلا انقطاع ، منذ عشرين سنة ، الى مضاعفة قلقنا • فهم أيضا ، بحكم أنهم يعيشون أحيانا في ظل أوضاع حياتية انعدم فيها الاستقرار والثقة بالمستقبل ، في حاجة الى العيش الرغيد والى تعهد صحتهم والعناية بهم ومواساتهم •

فاذا أخذنا أحدث الارقام وإذا اقتصرنا في الكلام على الضفة الشرقية لنهر الاردن فقط ، فان لدينا الآن في المملكة الاردنية

مهنتي كمالك

انها شمية أكثر قليلا من (٧٠٠) طبيب ، (٤٥٠) منهم يعملون في القطاع الخاص ، وحوالي (١٢٠) طبيب أسنان ، لاربعة أخماسهم زبائن خصوصيون ، وأكثر من (٢٠٠) صيدلي و (٣٥٠) ممرضة محترفة . قد يبدو هذا قليلا في نظر من يفكر بالعقلية الغربية ، ولكن عندنا ، تعتبر هذه الأرقام مشجعة للغاية .

ان اسداء العون للامهات الشابات والعناية التي تسبق الامومة والتوليد والمراقبة الطبية بعد ولادة الاطفال ، جميعها مجانية تتحمل الدولة نفقاتها سواء عن طريق وزارة الصحة أو وزارة الشئون الاجتماعية والعمل . أما الضمان الاجتماعي ، فحديث العهد عندنا ، ويستفيد منه جميع الموظفين في البلاد مقابل دفع واحد بالمائة من مرتباتهم الشهرية . وهكذا فان الامراض والولادات والوفيات تتحمل الدولة تكاليفها ، كما يجري دفع مرتبات تقاعدية عند الاحالة على التقاعد ، سواء عند بلوغ الستين أو بعد خدمة تدوم ثلاثين سنة . وموجز القول ، فان نظامنا قد اقتدى بالانظمة المعمول بها منذ عشرات السنين ، لدى بعض الامم في العالم الغربي . فلنا اذن قوانيننا الاجتماعية وضماناتنا وصناديق الادخار الخاصة بنا ككل بلد عصري ، أو بلد يسير في طريق التنمية .

ولقد بذل مجهود خاص من أجل الاسكان . ولدينا في الوقت الحاضر ، اربعمائة ألف مسكن ، منها ما يزيد على الربع في العاصمة عمان . لقد وظف لغايات الاسكان أربعة ملايين دينار في عام ١٩٦٧ وعشرة ملايين دينار في عام ١٩٧٢ . وان تقديرنا الحالي هو زيادة سنوية تبلغ عشرين ألف مسكن ، ومنذ عشر سنين ، تشرف مؤسسة الاسكان على هذا القطاع بمنتهى الكفاءة والفعالية سواء فيما يتعلق بالبيوت الخاصة أو الشقق أو المساكن التعاونية (١) .

فالتربية والتعليم والصحة العامة والاسكان ، هي دوائر (٢) لقد تجاوزت البلاد هذه الأرقام بمراحل في وقتنا الحاضر .

مهنتي كمالك

رئيسية ثلاث أعلّق عليها أهمية كبرى .

ومع أن بلادنا دولة حديثة العهد ، الا أن الاصلاحات الادارية تجري فيها باستمرار . وسنواصل الاخذ بهذه الاصلاحات ، لانها جزء لا يتجزأ من جهودنا الرامية الى اقامة حكومة تتصف بالفعالية والديموقراطية الحقّة . كما أننا نكافح الفساد الذي لا مكان له في دولة شيدت دعائمها على تعاليم الاسلام والايمان بالله .

يعد الاردن معنيا مباشرة بهذا النزاع . ان هذه الاراضي ينبغي أن تعاد الى أصحابها الحقيقيين الوحيدين ، وبالنسبة الى معظم أعضاء منظمة الامم المتحدة ، فان منظمة التحرير التي يتزعمها ياسر عرفات ، هي وحدها صاحبة الحق في أن تتولى حيازة الضفة الغربية ، أي أن تتصرف بالاراضي التي كانت لنا في غربي نهر الاردن .

ولا حاجة الى القول أيضا ، بأنه في حالة ما لو عمدت نفس الدول العربية التي أخرجتني في قمة الرباط المعقودة في تشرين الاول (اكتوبر) من عام ١٩٧٤ ، الى الطلب الي في أن « أمثل » الفلسطينيين في المحادثات أو الاتصالات فأنني لن استطيع الرفض ولكن ذلك لن يكون الا بصورة مؤقتة .»

انني رجل مسالم . ولقد قلت ذلك دوما أو أفهمته لمن كنت أتحدث معهم . فالسلم في منطقنا ممكن في كل وقت . كل شيء متوفر للعرب واليهود ليعيشوا سعداء في ظل سلام دائم . ولكن لا بد من أن تعيد اسرائيل الاراضي التي استولت عليها في حزيران من عام ١٩٦٧ وهذا أمر الزامي ، لا غنى عنه . أما القدس ، فيمكن أن تبقى موحدة وأن تصبح نقطة التلاقي للديانات المسيحية واليهودية والاسلامية . على أن يعاد عندئذ القطاع الشرقي من المدينة المقدسة الى العبادة الاسلامية ، وإلى السيادة العربية .

ان من حق كل زعيم عربي ، وكل رئيس دولة ، ومن واجبه أيضا أن يتصرف كما يشاء ويفهم ، ليتقدم خطوة باتجاه السلام . فقضية مصر الخاصة ، لا تشبه قضية سورية ، كما أن قضية سورية لا تشبه قضية الاردن أو لبنان ، أن كل محاولة ، حتى لو تمت بصورة انفرادية ، يجب أن تحترم وتشجع ، ما دامت ايجابية

ان موقف (اللاسلم واللاحرب) قد طال عليه الزمن . ولقد عانينا جميعا من نتائجه ، نحن ، وأولئك الذين يقفون في مواجهتنا

فلنعد الى السياسة ، أليس لديكم انطباع بأن قمة الرباط المعقودة في تشرين الاول (اكتوبر) من عام ١٩٧٤ التي حرمتم من الضفة الغربية لنهر الاردن قد كانت بالنسبة اليكم ، الى حد ما ، طعنة خنجر في الظهر وضعتكم أمام أمر واقع ؟

ان التاريخ هو الذي سوف يحكم على ذلك . اذ لا ينكر أن موقفنا قد تغير منذ الخريف الماضي بصورة مأساوية مثيرة . هل حالهم الصواب في أن ينكروا علي حق التحدث باسم الشعب الفلسطيني؟ سوف يتولى التاريخ اصدار حكمه في هذا الشأن . لقد عمل الهاشميون دوما باخلاص لصالح الشعب الفلسطيني وحقوقه القومية المشروعة لقد طلبوا الي أن أقلب الصفحة . وها أنذا قد قلبتها . ولا فائدة ترجى من التشبث بماض فات وانتهى . ومهما كانت عواطف الشخصية في هذه القضية المؤلمة ، فان هدي الوحيد منذ ذلك الحين هو أن أساعد اخواني الفلسطينيين على استرجاع وطنهم المفقود بطريقة أو بأخرى . لقد طلب ذلك مني تسعة عشر رئيس دولة عربية . فقبلته بصورة عفوية تلقائية ، بلا مناقشة . واني لأرجو من كل قلبي أن تظهر منظمة التحرير الفلسطينية ، فيما تأتيه من أعمال في مستوى المهمة التي أوكلت اليها . ولسوف أمد لها يد المساعدة ما استطعت الى ذلك سبيلا .

لقد قيل وكتب الكثير عن أن اسرائيل ترفض اطلاقا التعامل مع منظمة التحرير أو أية منظمة مقاومة فلسطينية أخرى ، وانها لا تقبل على ما يبدو اجراء الحديث الا معي ، ولكنني لا أعتقد بأن في وسع اسرائيل أن تستلزم ذلك . فهي لا تملك الخيار ، وعليها منذ الان ، أن تتوجه بالخطاب مباشرة الى منظمة التحرير . ولسوف لن أكون وسيطا ، أو سفيرا في هذه التحركات المقبلة . ان كل مشروع يحتمل أن تعرضه الدولة اليهودية على الاردن ، سوف يحول فورا الى منظمة التحرير . فمنذ مؤتمر القمة في الرباط ، لم

ولذلك، فإن جميع المخارج لهذا الوضع ستكون ممكنة الحدوث ، حتى الفاجع المحزن منها . أما الفلسطينيون فلهم مني الدعم والمساندة وإنني أتعهد بالتقيد حرفيا بالمقررات التي أتخذت في مؤتمر الرباط ذات الطابع المأساوي أحيانا . لقد أصبح لمنظمة التحرير الفلسطينية مكتب في عمان ، كما كان لجيش التحرير الفلسطيني دوما وحدات عسكرية مرابطة في أراضينا حتى في الشهور التي أعقبت أحداث أيلول المؤلمة في عام ١٩٧٠ ، اننا نستقبل انفسطينيين على الرحب والسعة عندنا ، ما داموا يراعون قوانين بلادنا ويقبلون ضيافتنا . انني أعرف ان تهديدات هنا وهناك ، قد أطلق بعض الزعماء الفلسطينيين ألسنتهم بها ضدي . بعضهم كان يريد اغتيالي ، وبعضهم الآخر كان يود اقامة (نظمام ديموقراطي) في عمان .

انني اعتقد بأن للعرب في وقتنا هذا اهتمامات أخرى . وان لهم عدوا اخر اشد صلابة وأقسى عودا . ان علينا أن لا نبعثر قوانا في المنازعات الداخلية التي لا طائل تحتها والتي برهمن التاريخ على أنها لم تنته دوما في صالحنا . وهذا أقل ما يقال . والى أن يثبت العكس ، فانني صاحب الشأن في بلادي ، وان الاردنيين ومن يرغب في أن يصبح أردنيا من الفلسطينيين . يستطيعون أن يبنوا مستقبلهم بالتعاون معي .

أن أقل ما يمكن قوله هو أن السنوات الأربعين من عمركم ، قد كانت جميعها ملآى بجلال الاعمال ، ولكن في هذه الحياة التي تحيونها في خدمة شعبكم ، ألم يكن هنالك مكان للسعادة ؟ الحياة الخاصة والعائلية ؟

انني أعتقد بأن من العسير جدا ادراك السعادة في هذه الدنيا ، سواء أكان المرء ملكا أو انسانا عاديا . ما هي السعادة بالنسبة للأغلبية العظمى من الناس ؟ ، انها الحصول على عمل مفر ممتع ، وعلى راتب جيد ، وأسرة لطيفة تستعذبها النفس ، والقيام بالرحلات من وقت الى آخر ، وأن يكون للمرء بعض الاصدقاء ، وأن يساعد الناس ، ويساعده . لقد نلت كل ذلك ، وما زال كل ذلك في متناول يدي . ولكن هل يعني هذا انني حقا سعيد ؟ لا أعتقد ذلك .

نعم لقد كانت حياتي خصبة مليئة ، كما قلت ، ولربما لم يعرف مثلها الا القليل من الناس . لقد عرفت السراء والضراء . ولعل الضراء رجحت على السراء . وعانيت احظات في غاية الشدة . ومرت بي فترات في أقصى درجات الضيق ، وأملت بي أوقات كنت أشعر فيها بأنني في منتهى العزلة ، وعرفت الحداد والاحزان والنادر من الفرح ، والقليل من السعادة . لقد عرفت كل ما يمكن أن يعرفه كائن بشري : الجوع والعطش والاذلال والهزيمة ، والنادر من اليسار والحبوحة والقليل من السلام والراحة والابتهاج . ولقد كان شعبي معي في كل هذا . لانني متعلق بشعبي في الاردن تعلقا لا تنفصم عراه ، وموثوق الصلة به الى أبعد الحدود . فقد كانت ألامي هي ألامه ، وأحزاني هي أحزانه .

ولما كنت أعلم أن مواطني ، منذ الحرب العالمية الثانية ، لم يتذوقوا الا القليل من السعادة ، فأنا أيضا مثلهم ، لم أعرف

مهنتي كملك

من السعادة الا اقلها •

لا شك أن أبسط الاشياء تدخل السعادة الى قلبي : كنجاح أحد المواطنين ، وفوز إحدى المبادرات التي تقدم عليها بلادي ، واليد التي تبسطها الي أمة صديقة ، وابتسامات زوجتي وأولادي • لانني اذا لم أتحدث اليك عنهم الا قليلا ، فانهم مع ذلك يحتلون في حياتي مكانا لا حد له • انني كما تعلم قد تزوجت مرات ثلاث • ولي الآن ستة أبناء اثنان منهم من الذكور • (١) وان ما أفعله لشعبي ، أفعله أيضا لهم على السواء • فهم جميعا أردن الغد • ان حياتي الخاصة والعائلية غير منتظمة فأعباء الدولة تحول بيني وبين أن أكون لهذه الكائنات الانسانية العزيزة الغالية بالقدر الذي أرغب وأتوق اليه • وطالما أضطر أن أخيب امالهم في الوقت الذي ينتظرونني فيه لتناول طعام الغداء معي • فأحتبس نفسي مع زائر أجنبي ، أو سياسي أردني • ثم في حوالي الساعة الرابعة أو الخامسة من بعد الظهر ، أطلب احضار بعض الشطائر لأكلها وأنا منهمك في عملي • أما في المساء ، فانني أغادر مائدة العمل في الساعة الثامنة أو التاسعة • ويكون أولادي عندها قد استسلموا الى الرقاد • وتبقى في انتظاري زوجتي الملكة علياء وحدها (٢) مع ابنتي الكبرى التي تتابع الآن دراستها الجامعية في عمان ، ليمنحاني الحرارة التي أفقدتها والتي أشعر بأنني في مسيس الحاجة اليها • (٣)

(١) في الثالث والعشرين من شهر كانون الاول ١٩٧٥ ، من الله سبحانه وتعالى على صاحب الجلالة الهاشمية الملك الحسين المعظم وصاحبة الجلالة شهيدة الواجب ، الملكة علياء المعظمة ، بأمير أسمياه « علي » •

(٢) في مساء اليوم التاسع من شباط من عام ١٩٧٧ ، استشهدت جلالة الملكة علياء أثناء قيامها بالواجب الانساني ، في حادث طائرة هيلوكبتر كانت تستقلها وهي في طريق عودتها الى عمان من زيارة تفقدية لمستشفى الطفيلة ، للاطلاع على أحواله وتقويم أوضاعه تلبية لنداء استغاثة ورد من أحد المواطنين •

(٣) في الخامس عشر من حزيران ١٩٧٨ تم عقد قران حضرة صاحب الجلالة الملك الحسين المعظم على حضرة صاحبة الجلالة الملكة نور الحسين المعظمة •

مهنتي كملك

صحيح انني أقضي بعض الاجازات في العقبة أو في الارياف ، ولكنها أقل مما يرغبون ويرتضون • ثم انني لا أذهب كما يفعل الملوك ورؤساء الدول ، لممارسة رياضات الشتاء • وللمرة الاولى منذ ثمانية عشر عاما ، لبيت دعوة شاه ايران في شباط الماضي (١) لقضاء بضع ساعات بالقرب منه في الثلوج السويسرية • لقد تزلجت قبل ثماني عشرة سنة لمدة يومين • وفي هذه السنة أمضيت ثلاثة أيام في التزلج •

انني لست في حاجة الى من يتلهف علي • فقد نلت الحياة التي ابتغيها وأشتهيها • وانني اعتقد بأنني أمارس مهنة شائعة تستهوي نفسي ، ولكنها شاقة عسيرة • وانني أجتهد في أن أعطي مهنتي على أحسن وجه استطيعه • ولقد وفرت لي بعض المسرات التي اذا ما بدت هزيلة في نظر الآخرين ، فقد عوضتني الكثير عما كان لا بد لي أن أكابده وأعانيه من ضيق وشدة وعذاب •

(١) من عام ١٩٧٥ •

نص الخطاب الذي ألقاه جلالة الحسين في الأمم المتحدة
في ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٠

ان لوجودي هنا اليوم أربعة أسباب • أولاً : انني اعتبر نفسي
معنياً الى أقصى الحدود بهذا الهجوم الشديد الموجه ضد منظمة
الأمم المتحدة • ثانياً • أود أن استوثق من أنه لا يتطرق أي خطأ
محتمل الى نظرتكم الى المكان الذي يحتله الاردن في النزاع العقائدي
الذي يهدد السلم العالمي • ثم كرئيس لدولة صغيرة، فانني أعتقد
بأن من واجبي ازاء الأمم الصغيرة الأخرى على هذه البسيطة ،
ولا سيما الأعضاء الجدد منها في الأمم المتحدة ، ان أطلعهم على
تجربتنا الخاصة بالدفاع عن الحرية التي نحن جميعاً في مسيس
الحاجة اليها • وأخيراً أعتبر أن علي أن أقدم اليكم وجهة نظري
حول ثلاث قضايا حيوية في الشرق الأوسط ، تؤثر على السلم
العالمي • وهي : التوتر المتزايد بين الاردن والجمهورية العربية
المتحدة ، واستقلال الجزائر ، والقضية الفلسطينية •

ولعل من فضول القول ، أن نؤكد مرة أخرى بأن الأمم المتحدة
تمثل الأمل الوحيد في السلم والحرية للإنسانية جمعاء • وهذا أمر
من الأهمية بمكان عظيم بالنسبة لسائر الاقطار الصغيرة في العالم
نقد حاول الاتحاد السوفياتي من جديد تدمير الأمم المتحدة، وعرقلة
مناقشاتها، وإيقاف مقرراتها ، وبأساليب صاخبة، وخروج متكرر
من قاعات الاجتماعات ، يثير الجلبة واللغط ، حاول اضعاف مكانة
وسمعة مجلس الأمن والجمعية العامة •

وان أحدث ايضاح لما أقوله ، هو تصرفاته في الدورة الحالية ،
ومحاولاته الرامية الى اضعاف سلطات السكرتير العام واقتراحه
نقل مقر المنظمة • انها جهود لا يكاد يخفيها ، لتقويض دعائم

لا يستطيع أحد تابع مناقشات الجمعية العامة في الاسابيع
الآخيرة هذين ، ان يتجاهل المعنى الحقيقي لمثل هذا الاجتماع •
ان القضايا المعروضة علينا ليست جديدة ، ولكن بحكم كونها ما
زالت بدون حل ، فانها تتخذ حجماً من الضخامة بحيث يشكّل
استمرارها تهديداً ليس للسلم العالمي فحسب ، بل لحياتنا نفسها
وانني لا أملك مشروعاً له فعالية « المعجزات » لحل هذه القضايا •
ان الاردن الذي لا يحتاز الاسلحة النووية والذي ليس في مقدوره الا
أن يعاني أشد المعاناة من قيام حرب ذرية ، لا يسعه الا أن يتوسل
الى الدول المعنية ، لاستئناف جهودها ولأن تسعى ، مهما كانت
العوائق التي تعترض طريقها ، الى ايجاد صيغة ، أو ربما
بالأحرى ، الى ايجاد مخرج حقيقي لا ينقذها فحسب ، بل
ينقذكم جميعاً •

هنالك صعوبات أخرى • ولا بد أن يكون المرء أعمى في
الحقيقة ، لكي لا يدرك أن على أمم العالم أن تمارس عملية
اختيار بين جميع القضايا الحيوية تقريبا التي تواجهها هذه
المنظمة • هذا الاختيار لا يشوبه أي غموض • فالامر يتعلق اما
بأن نصبح جزءاً من الامبراطورية السوفياتية وأن نخضع خضوعاً
تاماً لما يفرضه عايناً المجلس الأعلى للاتحاد السوفياتي ، أو بأن
نبقى أمة حرة ليس لها من ولاء خارجي سوى للأمم المتحدة
نفسها • فنحن بين أمرين وعلى كل بلد أن يمارس اختياره •

هل لي أن أقول فوراً بكل قوتي وقناعاتي ، بأن الاردن قد مارس
اختياره ؟ ان جوابنا يكمن في أعمالنا • وانني هنا لأؤكد من جديد
موقفنا أمام سائر أمم العالم • اننا نرفض الشيوعية • وان الشعب
العربي لن ينحني أبداً أمام الشيوعية مهما تنكّرت به من مظاهر
لتفرض نفسها علينا •

لن تعمّر الشيوعية أبداً في العالم العربي لان هذا اذا ما حدث •

مهنتي كملك

فلسوف تحل الشيوعية محل القومية العربية • وعندئذ سوف يزول وجود الأمة العربية • انني أعتقد بأن القومية العربية شديدة التأصل في حب الله وحب الحرية ، وفكرة مساواة الجميع أمام الله • ولذلك لن يخالفها نظام ينكر هذه المبادئ •

واني أذهب الى أبعد من هذا ، فأعرب عن عقيدتي الراسخة بأن على سائر الأمم التي تؤمن بالله أن تتحد لمجابهة هذا التحدي لوجودها نفسه • فلا حدة الانفعال النفسي الناشئ عن حب الوطن ولا المقاومة الناتجة عن الرفاه المادي ، ولا القوة الروحية المنبثقة عن مفهوم الحرية ، ما من عامل من هذه العوامل وحده ، هو في مستوى التهديد ضد السلام الذي تشكله الشيوعية الاستبدادية • ولن تهزم الشيوعية ، ويسود السلام على الأرض ، ما دام أولئك الذين يؤمنون إيماناً صادقاً بالله ، وبما أوصى به من حب ومساواة وعدالة اجتماعية ، لا يترجمون أفكارهم الى أعمال •

لا يمكن أن يكون ثمة حياد في المجابهة الجبارة بين الشيوعية والحرية • كيف يمكن لموقفنا أن يبقى محايداً بين نظامي حكم ، بين فلسفتين ، أحدهما في مستوى هذه المبادئ في حين أن الأخرى تنكرها وتخفقها ؟ اننا بانحيازنا الى جانب العالم الحر ، لا ننسى مع ذلك كفاحنا الطويل من أجل الحرية • ولن نستطيع أيضاً احتمال بعض المظالم التي يرتكبها بعض أعضاء العالم الحر • ولكن في الوقت الذي يبلغ الاستعمار العجوز مرحلة الغروب ، مرحلة الزوال ، فاننا لسنا متعامين عن الامبريالية الجديدة التي تتمثل في الشيوعية ، وهي امبريالية أشرس وأعتى وأخطر على فكرتي انحرية والقومية ، من كل شيء سبق أن عرفه العالم •

واذا كنا نرفض الحياد لانفسنا ، فاننا نحترم حق كل أمة في اختيار طريقها الخاص بها ، مع البقاء يقظين ازاء الاستخدام المحتمل للحياد في سبيل استغلال الخلاف القائم بين الشيوعية والعالم الحر • ونحن يقظون أيضاً ازاء خطر التوسع الشيوعي تحت قناع الحياد •

مهنتي كملك

أصل الآن الى مشكلة الشرق الاوسط الحيوية جداً للسلم العالمي وذات الاهمية الكبرى بالنسبة للأمم المتحدة • انني ألفت النظر ، في الجزء الخاص بنا من العالم ، الى قضيتي الجزائر وفلسطين • في هذين البلدين ، يسود وضع ينبغي على الجمعية العامة أن تدرك أبعاده • انني لن أتوسع في سرد الوقائع التي تبعث على الحزن والاسى ، لانني ان فعلت ، فان ذلك من شأنه أن يزيد ، بدلاً من أن يقلل من خطر نشوب نزاع دولي ، ولكن على خلاف ذلك ، لو أننا تركنا هذه الوقائع تستمر وهي متوارية دون أن نثير انتباه الأمم المتحدة ، فان ذلك في نظري سيكون خطراً أيضاً • لهذا فانني أعتقد بأن من واجبي أن أتناول بالعرض والايضاح التوتر السائد بين الاردن والجمهورية العربية المتحدة •

الى جانب بعض القضايا الأخرى ذات المستوى العالمي التي يقلق بال الجمعية العامة ، ربما يبدو من باب الغرور أن نعرض ما يحتمل أن يتجلى كموضوع ذي أهمية محلية • ومع ذلك فلا يوجد ثمة قضية محض محلية • وكما عرف العالم الآن ، ليس هناك من خلاف عقائدي أو تهديد بنزاع مادي ، يتوقف أمام حدود بلاد أولئك الذين تورطوا فيه • يضاف الى ذلك أن المبادئ التي يجب أن تقود الى الحلول ، فهي قابلة للتطبيق في العالم أجمع ، وفي الوقت الذي يفوز فيه بالاستقلال عدد متزايد من البلدان ، فان التطبيق الفعلي لهذه المبادئ يرتدي أهمية متعاظمة •

وفي رأيي أن بقائي صامتاً والحالة هذه ، من شأنه تشجيع قيام وضع قابل لتدمير الأمة العربية ، ولجبر الدول الكبرى في طريقه ، الى نزاع عالمي •

بدأ الامر منذ سنين عديدة • في الفترة التي اضطر فيها الاردن الذي كان قد نال استقلاله حديثاً ، الى مجابهة تهديد جديد ضد حريته ، تهديد أكثر هولاً أيضاً ، اتخذ شكل تغلغل شيوعي في منطقتنا • لم تعد على الاردن ، تحذيراتنا للشعب الاردني ولسائر الأمة العربية ، سوى بالتعبير والتحقيق وبالهدم والتخريب

مهنتي كملك

وبالضغوط الخارجية بمختلف أشكالها • وقد كانت هذه الضغوط من الشدة والحدة بحيث جعلتنا نعتقد بأن هدف هذا الشعب الشقيق من وراء ذلك ، كان تدميرنا • كنا نستطيع افتراض أن حكومته كانت شديدة التعلق بالوحدة المنشودة مثل الاردن سواء بسواء ، الا أن الواقع هو أن هجمات الجمهورية العربية المتحدة ضدنا قد تكررت وبلغت حدا حملت الجمعية العامة في الحادي والعشرين من آب ١٩٥٨ على المصادقة على قرار أصدرته الجامعة العربية ، ينص على أن الجمهورية العربية المتحدة تتعهد بايقاف حملاتها ضدنا • ومن سوء الطالع أنها لم تحترم ولم تف بوعدها • فقد استؤنفت الهجمات • وأصبح التحريض على الاطاحة بحكومتنا واغتيال ساستنا يذاع يوميا من محطة الاذاعة المصرية • أما الحدود القائمة بين الجمهورية العربية المتحدة والاردن ، فقد أعلقت ، للاحاق الاذى باقتصادنا بينما يجري تشجيع خونة مشهورين ، أو على الأقل يسمح لهم بالقيام بعمليات تخريبية هدامة ضدنا • وقد بلغ الموقف حالة من شدة الخطورة ، حملت الجامعة العربية التي ينتسب الى عضويتها كل من الجمهورية العربية المتحدة والاردن ، على التصويت على قرار يدعو أعضائها الى الامتناع عن كل نشاط من شأنه أن يخل بالعلاقات الاخوية بينها •

وفي اليوم التالي لاختتام دورة الجامعة العربية هذه ، اغتيل رئيس وزراء الاردن هزاع المجالي بقنبلة وضعت تحت مكتبه ، مع أحد عشر شخصا آخرين بينهم طفل يبلغ العاشرة من العمر • واني اذ أمسك عن المزيد من الحديث عن هذا الموضوع ، لأؤكد لكم بأنني أفعل ذلك وأنا لا أتمالك نفسي الا في غاية الصعوبة • واني أود أن أضيف ، مع ذلك ، بأنني أضفي معنى كبيرا على واقع كون خلافتنا مع الجمهورية العربية المتحدة يعود تاريخها الى الفترة التي شهّرنا فيها بالخطر المتزايد للشيوعية في العالم العربي ، يضاف الى ذلك بأنني أرى توافقا بليغ التعبير بين الاساليب المستخدمة ضد الاردن ، والاساليب التي تصطنعها

مهنتي كملك

الشيوعية في بلاد العالم •

ولا يخفى على أحد بأن سياسة الاتحاد السوفياتي ترمي الى حمل بعض الاقطار الصديقة على اختيار جانب القطيعة مع غيرها والى بذور بذور الشقاق والفتنة بين الشعوب ، لكي تبلغ من ذلك غايتها وهي السيطرة التامة على العالم •

واني أود من ذلك أن أخلص الى هذا وهو اذا كانت آمالنا تتطلع الى مزيد من الحرية والى مزيد من التعاون ، وبايجاز الى عالم أفضل ، كما يوحي بذلك انشاء الامم المتحدة ، فان بقاءنا يعتمد على واقع الاستخدام الفوري لكافة وسائل العمل المشترك المتوفرة لدينا • ولقوة الرأي العام الذي نمثله ، لكي نضغط وبسرعة وفعالية على كل أمة تخالف هذه المبادئ • انني لا أدعي بأن هذه الفكرة جديدة ، انها ببساطة فكرة الشرعية تطبق على أفعال الاقطار ذات السيادة • أما فيما يختص بي ، بوصفي رئيسا لشعب صغير تهاجمه ضغوط خارجية ، فهي فكرة تستحق المراجعة والعناية في هذا الوقت • لانني أعتقد بأن على تطبيقها الصارم ، يتوقف آخر الامر ، حياة وتقدم العديد من البلدان الصغيرة بما في ذلك بلدي • وان الامم المتحدة هي الاداة الوحيدة القادرة على تطبيق هذا المبدأ بفعالية ونجاح •

وقبل أن أواصل الحديث لاطرق موضوع الجزائر وفلسطين ، أود أن أضيف كلمة ختامية عن الجمهورية العربية المتحدة • فمع أن الاردن سوف يقدر دعم الامم المتحدة الصريح العلني لموقفه ، فان بلادني لا تتوقع ولا تطلب جوابا خاصا أو فوريا على ما سبق لي قوله • فاذا ما استطعنا مجتمعين أن نبتكر أو أن نستخدم وسائل أفضل من الوسائل الحالية لتأمين سلامة ووحدة أراضي الاقطار الصغيرة ، وضمان قدرتها على تحسين مصيرها ، حرّة من كل التدخلات الاجنبية ، فانني أعتقد عندئذ بأننا نكون قد حققنا تقدما • واذا كان ما قلته سيساهم في هذا الامر ، فانه حينئذ يكون قد استحق الجهد المبذول في قوله •

مهنتي كملك

ما زالت المأساة الجزائرية خطيرة ، كما يبدو عليها سيما انتفاقم وازدياد الخطورة أيضا . ان القضية في رأيي هي من جديد ، رفض الاعتراف لشعب بحقه في تقرير مستقبله الخاص ، وهذا هو جوهر الحرية نفسه . ان الامم المتحدة لا تستطيع أن تمنح نفسها ترف الاستمرار في موقفها السلبي ، أكثر مما بقيت سلبية فيما يتعلق بكوريا والمجر . وفي معنى من المعاني ، تعتبر هذه القضية بأنها أكثر خطورة وأهمية لان أحد طرفي النزاع هو أحد أعضاء العالم الحر . اننا نناشد فرانسوا أن تراعي ما يبدو أنها قد أهملته وهو تقاليد الحرية والمساواة والاخاء التي اثرت عنها واختصت بها وما من شك في أن قسما هاما من الشعب الفرنسي مصمم من سويداء القلب على أن يدع لاشقائنا الجزائريين اختيار المستقبل الذي يريدون . ويا حبذا لو أن الحكومة الفرنسية تترجم بالافعال نفس هذه القناعة ، فتجعل حق تقرير المصير الذي وعد به رئيس الجمهورية ، يشمل الجزائريين أيضا . فإذا ما سلكت فرنسا هذا السبيل ، فلسوف تسترد مكانها بين الامم التي تكافح من أجل الحرية ، ولن يكون هنالك عالم أفضل اذا ما استمر الاستعمار بالمبادئ الاساسية ، فعلينا أن نضع حدا لحمات الدم التي لا طائل تحتها . فالكثير من الشر قد سبق وقوعه (١) .

اما القضية الثالثة في الشرق لاوسط ، فهي فلسطين . ان ضمير العالم قد بدا أنه قد أغمض عينيه بصورة مخجلة ، ومنذ مدة طويلة جدا ، على هذه المأساة الانسانية . ان اتساع هذه القضية قد بلغ حدا جعل أكثر من مليون لاجئ عربي من فلسطين ، يعيشون منذ اثني عشر عاما ، مجهولين من قبل عالم لم يحاول بشكل

(١) لقد وضع الرئيس شارل ديغول حدا لهذه الحرب الضروس بعد شهور كما تعلمون ومنذ ذلك الحين غدت الجزائر أمة حرة . وقد كان وزير خارجيتها منذ عهد قريب ، رئيسا للجمعية العامة ، وهذا ما ينبغي أن يجري لفلسطين ، وهذا ما يمكن أن يفعل من أجل فلسطين .

مهنتي كملك

جدي حتى الآن ، أن يعينهم على استعادة الحق الأكثر أهمية والاكثر قداسة في الوجود ، ألا وهو الكرامة الانسانية . ان فشل الامم المتحدة في البداية ، في منح هذا الشعب حق تقرير المصير في عام ١٩٤٧ ، قد ترك منذ ذلك الحين جرحا لا يلتئم . وليس ثمة مراقب عادل وحيادي ينكر بأن الشعب العربي في فلسطين قد لحق به الاذى عند تقسيم هذه المنطقة ، وما تبع التقسيم من انشاء دولة اسرائيل . في ذلك العهد ، كان التقسيم خطأ وظلما سياسيا . وهو ما زال كذلك في يومنا هذا . فالعالم يقبل الامر الواقع بسهولة ، وكأنه احدى المسلمات السياسية الثابتة .

أن الجميع هنا يعرفون ذلك جيدا ، فقد جرى التصويت على عدة قرارات وعلى سبيل المثال القرارات الصادرة في عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٩ ولكن لم يفعل شيء اطلاقا لاقناع اسرائيل باحترامها . ومن الواجب على الامم المتحدة أن تفرض ارادتها على عضو يرفض الخضوع لقراراتها . اذ لن يكون هنالك سلام حقيقي في الشرق الاوسط ، دون حل مشرف وعادل للمأساة الفلسطينية ، ودون اعادة الحقوق كاملة الى شعب فلسطين العربي .

لقد سبق لي القول بأننا في الاردن ، لسنا حياديين بين الخير والشر ، كما أننا لسنا حياديين في ايماننا بالله . واني أسأل الله الذي أومن به ، أن يبارك هذه الجمعية العامة ، لكي تتوفر لنا الشجاعة في البت بحكمة وبلا خشية أو رهبة ، في القضايا التي تطرح أمامنا .

الفرس

الصفحة رقم

٥

١٣

مقدمة الطبعة العربية •

مقدمة الطبعة الفرنسية •

السؤال رقم

- ١ - يا صاحب الجلالة الناس لا يعرفون إلا القليل عن أسرتكم وطفولتكم وحاشيتكم ويقال بأنكم من الفقراء ، وأن مورد رزق والدكم كان محدودا •
- ٢ - لقد أثر اغتيال جدكم تأثيرا كبيرا على تطور شخصيتكم • ولقد كان أيضا حدثا تاريخيا هاما في تاريخ الاردن في أية ظروف وقع هذا الاغتيال ؟
- ٣ - لقد ارتقى العرش جلالة والدكم الملك طلال • وأصبحتم تبعا لذلك وليا للعهد •
- ٤ - لقد فكرتم آنئذ بأن حكم جلالة والدكم سيطول •
- ٥ - ماذا كان أول رد فعل لكم ؟
- ٦ - بماذا عادت عليكم اقامتكم في أشهر اكاديمية عسكرية بريطانية ؟
- ٧ - كيف أمضيتم شهوركم الاخيرة في ساندهيرست ؟
- ٨ - عندئذ بدأت فعلا حياتكم كملك
- ٩ - كيف تكيفتهم مع مسئولياتكم الجديدة ؟
- ١٠ - كيف يستطيع ملك أن يكون قريبا من شعبه ؟
- ١١ - هل في هذه الفترة بدأت هوايتكم للطيران ؟
- ١٢ - الشرق الاوسط ، السلم ، الحرب ، متى سمعتم بهذه الكلمات للمرة الاولى ؟
- ١٣ - انها أسرتكم ...

- ١٤ - كيف كانت شرقي الاردن في هذه الحقبة ؟
١٥ - يتحدث العالم عن القضية الفلسطينية منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما ، وهذا قد أسال حبرا كثيرا ، أما فلسطين فقد أصبح يعرفها العالم أجمع ، هل تستطيعون تذكيرنا بأصل هذه القضية المأساوية ؟
١٦ - كان عاما ١٩٥٦ و ١٩٥٧ ، عامين عسيرين جدا عليكم ، فهما السنتان الاوليان اللتان اضطررتم فيهما أن تتخذوا أولى قراراتكم الهامة ، أولا طرد كلوب باشا ثم مجابهاتكم مع حكومتكم ، وأخيرا قضية الزرقاء ،
١٧ - لقد بدأت مصاعبكم الداخلية الحقيقية بعد رحيل كلوب ،
١٨ - كان الوضع في الواقع متوقفا على أحد أمرين : إما أنتم أو هم ، وعندئذ انتهيتم الى قضية الزرقاء
١٩ - ومع ذلك لم يكن يحف بكم سوى الاعداء ، متى تم انشاء الاتحاد العربي ؟
٢٠ - ان فيصلا غير معروف معرفة جيدة من الغرب ، فهل تستطيعون أن تحدثونا عنه أكثر قليلا ؟
٢١ - كيف أمكن لهذه المأساة أن تحدث ، على الرغم من تحذيراتكم وتحذيرات الاثراك ، وربما تحذيرات شاه ايران ؟
٢٢ - كنتم محاطين بالاعداء أكثر فأكثر ،
٢٣ - لقد تعرضتم لعدة محاولات اغتيال منذ عام ١٩٥٢ بعضهم يقول أنها عشرة ، وبعضهم يقول أنها عشرون ، لقد قتل رؤساء وزارات وأعضاء حكومة ومقربون اليكم ، ما هي في نظركم المؤامرة ذات

- ٢٤ - الطابع المميز والاكثر مأساوية ؟
١٧٠ - عندما تتلفتون الى الوراء لتتوجهوا بأنظاركم نحو الخمسينيات ، ألا يتكون لديكم انطباع بان حياتكم كانت أشبه بحياة المغامرين ؟ مرة كانت كانت قططكم تاكل من طعامكم فتموت مسمومة وفيما بعد وضع حامض كيميائي في زجاجتكم التي تحتوي على نقاط لعلاج الانف ،
١٧٨ - تعتبر دوائر استخباراتكم بين أفضل دوائر استخبارات في الشرق الاوسط ، فاذا كنتم ما زلتهم على قيد الحياة ، واذا كان الاردن ما زال أمة حرة ، ألا يعود الفضل في ذلك جزئيا ، الى ما تتصف به من مزايا ؟
٢٦ - لماذا لم تحاولوا عرض « القضية الاردنية » على العالم في وقت مبكر ، على الامم المتحدة مثلا
١٩٢ - بعد فترة ، على الاقل مضطربة ، تعرضت خلالها حياتكم للخطر مرات عديدة ، يبدو أن خصومكم مع بداية الستينيات قد غيروا من أساليبهم ازاءكم ، فازدادوا احتراما لشخصكم ، وعاملوكم كرئيس دولة حقيقي ، كما تعاضم وزنكم باستمرار على المسرح الدولي ،
١٩٦ - ألا تشعرون يا صاحب الجلالة بأنه على أثر مؤتمر القاهرة قد بدأت مشاغلكم الاولى مع المنظمة والصدامات الاولى مع المقاومة التي أدت فيما بعد الى أحداث أيلول الفاجعة في عام ١٩٧٠ ؟
٢٠٣ - ومنذ ذلك الحين بدأ التشابك والتصعيد
٢٠٨ - ٣٠ - أعتقد بأنه قد قيل كل شيء ، وكتب كل شيء عن

حرب الايام الستة ، حتى أنكم أنتم بالذات أصدرتم كتابا في هذا الموضوع ، هو (حربي مع اسرائيل) ، فمما لا شك فيه ، والاسرائيليون يعترفون بذلك ، أن الاردنيين كانوا أكثر المقاتلين خلقا للمصاعب والمشقات في مواجهة الاعداء ، وأنه بين سائر الجيوش العربية ، كان جيشكم هو الذي قاتل أفضل قتال .

٢١١

٣١ - ما هي العبر والدروس التي تستخلصونها من هذه الحرب بعد أن اندملت الجروح بفعل السنين لقد أفاض الناس في الحديث مؤخرا بأن حرب عام ١٩٦٧ كانت حربكم ، في حين أن حرب عام ١٩٧٣ لم تكن تعنيكم .

٢١٨

٣٢ - لقد قيل وكتب بأن حرب الايام الستة هذه قد أجهدتكم معنويا وجسميا ، وأنكم لم تعرفوا النوم طوال كل أيام القتال . ما هي بالنسبة اليكم وإلى شعبكم النتائج المباشرة لهذه الحرب وانعكاساتها على الصعيد الداخلي ؟

٢٢٦

٣٣ - لقد قابلتم ياسر عرفات عدة مرات بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٧٠ أما كنتم أنتم الاثنان تستطيعان إيقاف هذا التصعيد ؟

٢٣٣

٣٤ - ثم كان الانفجار ، وكان أيلول الاسود . . .

٢٣٩

٣٥ - لقد أوقفت حرب عام ١٩٦٧ ، بلا هوادة ، جهودكم المبذولة لتحقيق النهوض الاقتصادي . ما هو الوضع الاقتصادي للاردن اليوم ، بعد كل هذه الهزات التي طرأت في السنين الاخيرة ؟

٢٤٩

٣٦ - ولكن هنالك أيضا التربية والتعليم ، والصحة العامة ، والعمل ، والاصلاحات الاجتماعية . ماذا

فعلتم منذ عشرين سنة لمكافحة آفة القرن العشرين التي تدعى الامية ؟

٢٥٣

٣٧ - فلنعد الى السياسة ، أليس لديكم انطباع بأن قمة الرباط المعقودة في تشرين الاول (أكتوبر) من عام ١٩٧٤ ، التي حرمتمكم من الضفة الغربية لنهر الاردن قد كانت بالنسبة اليكم ، الى حد ما ، طعنة خنجر في الظهر ، وضعتكم أمام أمر واقع ؟

٢٦٠

٣٨ - ان أقل ما يمكن قوله هو أن السنوات الاربعين من عمركم قد كانت جميعها ملآى بجلال الأعمال . ولكن في هذه الحياة التي تحيونها في خدمة شعبكم ، ألم يكن هنالك مكان للسعادة ؟ للحياة الخاصة والعائلية ؟

٢٦٣

٣٩ - ملحق :

نص الخطاب الذي القاه جلالة الحسين في الامم المتحدة في ٣ تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٦٠ .

٢٦٦

طبع في مطابع الشركة العربية للطباعة والنشر

كتاب حمالة الحمار

مهنتي كملت

قصة حكم ملاكي قطع استولاً بعيدة بخطى ثابتة - اسحة أكيدة في مسيرته الطويلة السعيدة على دروب الجهد والخلود . وتاريخ الأردن المعاصر ، من ضلال قصة حياة مليكة القائد الرائد .

دروس واقعية في الوطنية والقومية والمزيم والعزم والضميم . وأئلة خالدة في الرهولة والجهولة والجرأة والشمية . ومواقف انسانية سامية في الحلم والتسامح والعفو عند المقدرة .

لوحات فنية رائعة ، تصور كفاح بطل فذ عملاق ، يصارع الكوارث والأصوال والصاعبات ، ويعا في الشقاء والمقاعب في سبيل حياة أفضل لشعبه الوفي الأمين .

قصيدة من الشعر المنثور ، رائعة التعبير ، باللغة التأثير في حب الأردن وشعب الأردن ، نظماً بالحسين العظيم نبضات قلبه الكبير .

فترة في السيادة والأرب والفن .